« كلما تقدمت الحضـــارة وتنوّر الناس زاد عدد المسلمـــين ، فيسفر عن لين تعصب الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإله واحد فى ذلك القطر المملوء بالخرافات انحناء النفوس بالتدريج أمام جلال الله وعظمته - حقاً إن فتح الاسلام للهند لمّا يتم ، وهو سائر بطيئا صامتـــا على طريقه فلم يقف تقدمه سلطان انكلترا النصرانية . »

( من كتاب حضارة الهند لجوستاف لوبون )

# الهند القديمة

## جغرافية الهند

لم تكن الهند فى القديم هى شبه القارة المترامية الاطراف المتعارف عليها فى العصور الحديثة ، اذ كانت هذه التسمية يضيق مدلولها حيناً ما فلا يُعرف به الا شُقة ضيقة من الأرض، او يتسع اتساعا كبيرا حينا آخر فيشمل رقعة واسعة من جنوب القارة الآسيوية .

واختلف الناس فى منشأ تسمية هذه البلاد فمنهم من نسبها الى الإله « إندرا » إله الهند القديم ، ومنهم من ردها الى السند الذى كان يعرفه الفرس القدماء باسم «هِند هو» اى النهر ، جريا على عادتهم فى ابدال السين السنسكريتية بالهاء ؛ وكان نفوذهم قبل غزو الاسكندر قد عم الجزء الغربى من هذه البلاد وتوغلوا فيه .

وهؤلاء الفرس هم الذين اطلقوا كذلك اسم الهندستان ( اى ارض الانهار ) على الشمال باكمله من هذا الاقليم.

وشبه القارة الهندية، التى تضم اليوم جمهوريتى باكستان والهند،

هى كتلة بالغة الضخامة من اليابس تصل مساحتها الى المليونين من الاميال المربعة ، اى بما يزيد على نصف مساحة القارة الأوربية ، وفيها تمثيل كامل لمختلف عروق الانسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم وما اعتنقه من مختلف العقائد منذ ظهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد . وفيها انواع الأجواء المتباينة من الصقيع القطبي وثلوجه بالهملايا ومرتفعاتها بالشمال الى قيظ المناطق الاستوائية وشواظها باقصى الجنوب . وفيها كذلك من صنوف الحيوان والطير والنبات والمعدن ما يصلح لأن يكون اجمالا لما بالعالم كله منها . فهى فى الحق دنيا قائمة بذاتها قد عزلها عن بقية اليابس الآسيوى امنع متراس اقامته الطبيعة بين بلدين وهو جبال الهملايا الهائله التى تعرف بسقف الدنيا . وبهذه الجبال الشامخة مسارب تجارية ضيقة تنفذ الى التبت وبلاد التركستان ولكنها لا تصلح لمرور القوافل الكبيرة .

والحدود الشرقية للهند جبلية كذلك ، وتتمثل فى جبال آسام ، وبها بعض المسالك التى تصل ارض الهند بالصين الغربية وشرقى آسيا .

وتمتد فى الغرب جبال الهندكوش من الشمال حتى البحر جنوبا . وتخترقها بدورها كذلك مسالك تصل إلى التركستان واواسط آسيا

عبر بلاد الأفغان ، والى إيران عبر بلوخستان . وعن طريقها نفذ الغزاة والمهاجرون،آريون واغريق وهون وسيث وفُرس وأتراك ومغول ، الى شبه القارة الهندية ، فلم يظهر طابعهم قويا إلاّ فى الشمال والشمال الغربى منها ، حتى أصبحت هذه الاجزاء التى تعرف باسم الهندستان تغاير فى ثقافتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية نظائرها فى الوسط والجنوب .

وكان مما صد حضارة الشمال عن التسرب جنوبا ووقف حائلا فى وجه الغزاة تلك الوهدة الضيقة العميقة التى تتوسط شبه القارة ممتدة من الشرق الى الغرب عند شمال الدكن ، وتقع فيها جبال الوندهايا وتلال ساتپورا مع نهر نربدا .

وفيما عدا ما ذكرنا من حدود جبلية لشبه القارة الهندية فالبحر من حولها محيط .

وفى شمال الهندستان يجرى كذلك اعظم انهار الهند وهما السند والكنج اللذان يستمدان ماءهما من ثلوج الهملايا .

والهنادكة يقدسون مجارى المياه قاطبة لما تهبه لهم من خيرات ونعم . ونهر الكنج هو اقدسها جميعا عندهم حتى ليتطهروا بمائه كل يوم . بل انهم ليلقون بجثث موتاهم فيه تبركا ما أفلتوا من الرقابة . وطوبى لمن يكتب له منهم الحجيج الى منابعه العليا المقدسة .

واكبر روافده هما جمنه وبراهمابترا ؛ وبنهيراته الاثنى عشر التى تؤلف دلتاه يصيب اقليم البنغال خصبا عميما .

ولئن كان الكنج هو أقدس الانهار عند الهنادكه فإن السند بأميال الألف أطولها جميعا . وروافـــده الخمسة ، وهى ستلج وجيناب وبياس وجهلم وراوى ، قد عُرِف الاقليم الذى تجرى فيه بعددها ، فالپنجاب يعنى الانهار الخمسه . وللسند كذلك رافد سادس هو نهر كابل الذى ينبع من الهندكوش ويلتقى بالنهر الرئيسى فى ناحية الغرب . واقليم الپنجاب هو من بوابات التجارة الهندية الكبرى ، ومنه نفذ أغلب الغزاة والفاتحين فاوغلوا فى شبه القارة .

ويضم وديان السند والكنج أغلب اراضى الهند الزراعية ، وإن كان وديان الثانى اكثر اتساعا وخصبا وبالتالى اغص بالسكان ذلك أن الكنج تمده على طول مجراه روافد عدة تستمد ماؤها من ثلوج الهملايا الدائمة ، وهو ماليس للسند منه نصيب فضلا عن انسيابه فى أرض يغلب الاستواء عليها مما يؤدى إلى بطئ جريانه وضياع الكثير من مائه فى صحراء الثار اكبر صحراوات الهند والتى تفصله عن الكنج . وتعرف هذه الصحراء ايضا باسم « الراچپوتانا » نسبة إلى الامراء الهنادكة الراچپوتيين الذين جرى بذكر شدة بأسهم وبطولتهم ووقوفهم دائما فى وجه الغزاه والفاتحين ، تاريخ الهند وأساطيرها على السواء .

وفى وسط الهند يجرى نهر نربدا، وإلى الجنوب منه يجرى مُهندى، وتحته جودا فرى أعظم أنهار الدكن ثم يليه نهر كرشنا .

وانهار شبه القارة الهندية هذه برغم كثرتها لا تكفى لرى أراضيها ، لذلك كان اعتماد الزرّاع الأكبر على مياه الأمطار الموسمية التى يؤدى أمتناعها إلى مجاعات مروعة محتومة . فلم يكن عبثا إذن أن ذُكر المطر فى كتب الهنادكة المقدسة القديمة بأنه عطاء الآلهة الذى يهب لهم الزرع قوام الحياة . (١)

سكان الهند .

وأصل سكان الهند لم يصل إليه الباحثون على وجه التحقيق . وإن كان الثابت المعروف أنه قدورد على شبه القارة هذا موجات متتابعة من هجرات أجناس مختلفة .

وكما تتغاير الهند فى أجوائها تغايرا واسع المدى فهى كذلك تختلف فى أجناسها إختلافا بينا شـــديد الوضوح . ففى مناطقها الشمالية يعيش جماعات لهم سمات الشعوب الشمالية ونشاطها فى الغـــالب . ويجانبهم أقوام آخرون لهم ، خصوصا فى وسط

---

١ — v Le Bon. Les Civilisations de l'Inde Paris 1887. p 34,35

والجنوب ، سواد سكان المناطق الحارة حيث تقسو حرارة الشمس على الناس فتُضعف ابدانهم وتقلل من نشاطهم [١] .

واقدم من سكن الهنـــد فى الغالب قوم سود ، لهم سمات الأجناس الحامية قطنوا الغابات ؛ ولا تزال منهم بقايا منقرضة منعزلة تسكن وسط الهند حتى اليوم .

وقدم الهند من بعد ذلك ، فى عصور ما قبـــل التاريخ ، موجات تورانية وافدة من الشمال فدفعوا بأهل البلاد أمامهم صوب الأماكن الجبليـة فى الوسط . وما لبثوا أن توالدوا معهم فظهر الدراوريون والتمول أقدم من سكن الهند فى التاريخ ، ومنهم أغلب سكان شبه القارة اليوم .

وتوالت موجات الآريين البيض من السيث والهون على الهند من بعـد ذلك قادمة من ناحية الشمال الغربى فاكتسحت أمامها التورانيين واخضعتهم والدراوريين والتمول لسلطانها . وعن الدراوريين أخذ هؤلاء الغزاة نظمهم الحكومية والإقتصادية .

وسكن هؤلاء البيض فى بادىء الأمر أقلـــيم البنجاب ، باب الهند الآرى ، ثم أخذوا من بعد ذلك ينتشرون فى منطقة الدوآب

---

١ — تنبه هنا إلى أن كلمة هندوكى ليس لهـا أى دلالة جنسية أو عرقيـه فهى تطلق فى الهنـد على اتباع عقائد الهند القديمة .

التى صارت مركزا لحضارتهم .

وخاف البراهمة مغبة اختلاط بنى قومهم الآريين بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات وجعلوا أنفسهم والنبلاء المحاربين من الآريين على رأسها . فالجيش يقوده النبلاء فى الحرب والبراهمة يؤيدونه ويشدون من عضدة بالدعاء الذى لن يتم له النصر بدونه [1] .

وإلى جانب الطبقتين الآريتين ، وهم الكهنة البراهمة والاكشترية المقاتلة من النبلاء ، الذين يرون فى موت الرجل منهم بمخدعه عارا وأى عار ، سُلك التورانيون فى طبقة الويشية التجار . ولا يأتى من بعدهم سوى طبقة الشودرا التى تنتظم الزراع والصناع والعمال ، وكانوا أغلب سكان شبه القارة الأصليين إذ ذاك.

أما الپاريا ، وهم المنبوذون ، فكانوا فى بادىء أمرهم جماعة صغيرة لا تنتمى إلى الطبقات الأربعة سالفة الذكر . وقوامهم بعض القبائل الوطنية وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد عقابا لهم بسبب ولادتهم عن زواج بين براهمة وشودرية ، أو لعجزهم عن وفاء بالدين ، أو لممارستهم المهن الحقيرة التى تضم

١ — Dunbar, G. A. History of India from the earliest times to the present day. vol. 1 p 15.

الكناسين والجزارين والجلادين والحواة ومن اليهم . وهم بعددهم المتزايد الذى ينوف على الأربعين مليونا ونفوسهم الثائرة مع عطف البشر البالغ عليهم ، حين يزداد الوعى الإنسانى تغلغلا فى صفوفهم ، كفيلون بزلزلة كيان النظـــام الطبقى كله والقضاء عليه .

وأثر الآريين العظيم فى الحضارة والمدنية يتجلى فى ديانات الهند القديمة وعاداتها وطباعها ولغاتها .

واذا كانت غلبة الجنس الآرى تظهر واضحة فى مناطق الهملايا العليا حيث يتميز السكان ببياض بشرتهم ، فإنها ما تلبث ان تأخذ فى القلة اذا ما اتجهنا صوب الجنوب حيث تأخذ سمرة اللون فى الظهور بازدياد متدرج .

حتى اذا ما نزلنا وادى الكنج ، أخصب بقاع الهند والذى يزدحم فيه أكثر من ثلث سكان البلاد ، وجدنا به تمثيلا يكاد يكون كاملا لعروق الهند من الدراويين والآريين والتورانيين على تفاوت. هذا والعنصر الأخير أى التورانى ، كان أبعد أثر فى سكان الهند من الناحيه الجثمانية وأظهر من كافة العناصر الأخرى التى قدمت هذه البلاد من بعده .

واذا كان وادى الكنج قد اختلطت فيه عروق الهند من

آريين وتورانيين ودراوريين ، وتجاورت فيه كذلك دياناتها وعقائدها من برهمية وبوذية وهندوكية وإسلامية ، فإننا نجد البنجاب واغلب وادى السند يكاد يكون وقفا على عرقين اثنين، هما العرق التورانى والعرق الآرى ، وعقيدة واحدة هى الإسلام .

ومن بين سكان البنجاب والسند قبائل الميد والجات ( الزط ) الذين عُرفوا بشجاعتهم ، ومهارتهم فى التجارة . وقد قيل ان على بن ابى طالب استخدمهم على حراسة أموال البصرة فى وقعة الجمل ، كما انزلهم الامويون ثغور الشام فشاركوا فى حمايتها [1] .

وهذه القبائل ومعها الكهكر فيهم المسلمون وفيهم الهنادكة ، وتمتد منازلهم حتى صحراء الراجپوتانا .

اما وسط الهند وجنوبها فغالبية سكانه الساحقة من الدراوريين والتمول القدماء . وهم عند البراهمة يعدون من الشودرا والپاريا نهاية البشر ومنبوذيه فى الغالب .

وايّا ما كان من تباين عروق الهند واختلاف اجناسها الشديد فقد عمت البيئة الواحدة طباع وعادات مشتركة ، ولاغرو فللبقاع

---

١ - فتوح البلدان للبلاذرى طبع ليدن ص ٣٧٥

تأثير فى الطباع على حد قول المقدسى جغرافى العرب .

وسكان شبه القارة الهنـــدية الذين يبلغون اليوم اربعمائة مليون ،اى خمس سكان الدنيا باسرها — اذا غضضنا الطرف عن قلة ضئيلة من أهل الفطرة تسكن أماكن منعزله متناثرة ، ولا تزال على عقائدها الطوطمية الأولى فتؤله الافاعى والقردة والنمره ، فضلا عن ممارستها إلى عهد غير بعيد لعـــادة تعدد الازواج من الذكور حيث يبنى بضعة اقارب او اخوة فى العادة بامرأه واحدة ويقيموا أسرة — يمكن ان نكتلهم فى كتلتين كبيرتين على هدى البيئة وأساسها .

وأكبر الكتلتين هى الكتلة الهندوكية التى تقطن غالبيتهـــا جمهورية الهند اليوم . وهى تأتلف ثلاثة ارباع سكان شبه القارة الهند وپاكستانية على كل حال .

وقد ادى معيشة هؤلاء الهنادكة فى بيئة واحدة تخضع لعقائد واحدة منذ القدم ، الى قيـــام صفات عامة مشتركة كثيرة فيما بينهم .

واما الكتلة الثانيـة فهى كتلة المسلمين الذين يجاوز عددهم اليوم المائه مليون من الانفس ، وتضم اغلبيتهم جمهورية پاكستان . وبرغم وفود جموع الغزاة المسلمين من العرب والفرس والاتراك

إلى هذه البلاد فإن غالبية المسلمين هناك هم فى أصولهم الأولى هنادكة خلص . ذلك ان المسلمين فى مدى قرون قليلة حكموا فيها بالهند ، افلحوا فى تغيير معتقدات هذا الفريق الهندوكى الكبير الى دينهم وعقيدتهم. بل لقد بلغوا به كذلك الى تغيير لغته وفنونه الى لغتهم وفنونهم ، وهو ما مارسوه فى كل البلاد التى فتحوها وعجز عنه غيرهم من الامم ورجال الدين . وكان من أهم أسباب انتشار الاسلام فى شبه القارة الهندية خاصة ، بشهادة ثقات المؤرخين حتى فى العصر الحديث ، هو قوله بالمساواة ، فلم تستطع بريطانيا ومن سار فى ركابها ، حين كانت تحتل هـذه البلاد أن تحد من نشاطه فيها ، ذلك النشاط الذى جرف كل ما كان يقام فى طريقه من معوقات وعراقيل [١] .

### معتقدات الهند القديمة

فى شبه القارة الهندية كما قلنا من قبل تمثيل كامل لكافة العقائد التى عرفتها الدنيا ومراحل تطورها من الطوطمية الوثنية الى

---

١ — حضارة الهند لجوستاف لوبون ، تعريب عادل زعيتر — القاهرة ١٩٤٨ ص٦٢٦

التوحيد الكامل ؛ وعليها تقوم النظم الاجتماعية لسكانها جميعا .

ولقد عرفت الهند قبل البرهمية كثيرا من معتقدات الآريين الأسيويين الذين كانوا قد وفدوا اليها قبل الميلاد باكثر من خمسة عشر قرنا ، فاعتنقت الناجا الطوطمية وعبدت الهها الافعوان ، كما عبدت هانومان الإله القرد وناندس الإله الثور ، وقدست الأشجار والموتى من الاسلاف اعتقادا منها بخلود أرواحهم ، وقدمت لهم القرابين ، وصلّت من أجل سعادتهم فى مثواهم الابدى ، واستخدمت الرقى والتعاويذ والسحر لجلب السعادة وإطالة العمر ودفع الارواح الشريرة وايقاع الارتباك بالاعداء . وقد انتقل كثير من ذلك كله إلى الهند فى العصر التاريخى ، ومازال اليوم قلة منقرضة منعزلة تؤله النمرة والقردة والافاعى والآفات .

وقدورد بكتب الويدا ، أقدم اساطير الهند ، تفصيل لآلهه الآريين الكثيرة هذه ومن بينها مايمثل قوى الطبيعة نفسها وعناصرها مثل الإله إندرا الذى ينسب اليه البعض تسمية الهند ، وهو إله العواصف والسماء ، وهو الخالق البارىء الاعلى الذى يجلب الامطار والماء اصل الحياة ، وأغنى إله النار موجب الحياة الكونية والعوالم والآلهة ؛ وشوريا إله الشمس .

ولئن اختلف الرأى فيمن ينسب إليه خلق العالم من

بين هذه الآلهة العاتية ، فقد اجمعوا، على كل حال، على وجوب رد الأمر كله الى خالق واحد قهار [١]

وصار للبراهمة بعد العصر الويدى السلطان والمنعة فثبتوا نظام الطبقات الذى كانوا قد أقاموه من قبل ، ووضع قديسهم الأعظم مينو شرائعه وفقهه الذى غـــدا دستور الهند وقانونها الاساسى فى كافة نواحى الحياة بها . 608026

وظهر فى هذا العصر، قبل الميلاد بقرون اربعة، ملاحم المهابهارتا والراماينا . والأولى تشتمل اليوم على قرابة ربع المليون بيت من الشعر فى حين تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين الف بيت، أى أضعاف أضعاف الياذة هوميروس ، فبذا كانتا اضخم آثار العالم الادبية القديمة على الاطلاق .

ولا يستقيم مع العقل القول بكتابة هذه الاسفار فى بضع سنين. فهى قد تعرضت ، دون ادنى ريبة ، إلى إضافات كثيرة غزيرة على كر القرون حتى بلغت صورتها الأخيرة .

وللمهـا بهارتا على الخصوص قداسة عظمى عند الهنادكة ،

---

(١) ـ ابو الريحان البيروني « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » طبع لندن ١٨٨٧ ص ١٣

كقداسة القرآن عند المسلمين ، والانجيل عند اتباع المسيح ، حتى ليعدّون قراءة ماتيسر منها مجلبة للرحمة والمغفرة .

هذا وتنص شرائع منو على امتيازات للبراهمة لا يرقى اليها الملك نفسه الذى كان عليه الا يقطع أمراً دون الرجوع اليهم فيه أو يصبر حتى على حاجة لهم .

فهذه الشرائع التى رسمت لكل طائفة من الطوائف حدوداً لا تتعداها[1] ، قد اطلقت فى الوقت نفسه ايدى البراهمه من كل قيد وجعلت لهم زعامه الناس جميعا . فالبرهمى لا يدنس بذنب حتى ولو قتل أهل الكون جميعا ، فهم وما يملكون ملك يمينه .

وأباح منو لابناء الطبقات الثلاث الأولى حق المصاهرة فيما بينهم على قدر ، حتى إذا ما تجاوزوه إلى طبقة الشودرا الذين حرم عليهم مخالطتهم ، انقلبوا منبوذين يصيبهم الخزى فى الدنيا والآخرة .

---

١ — نص منو دهرما ساسترا فقيه الهندوس الأكبر على أن البرهمى — سيد الطبقات جميعا — هو العلم والكاهن والقاضى والوزير الأكبر الذى لا يقضى الملك فى أى شأن بدون رأيه ، اما الاكشترى — وكان الملك من بين الاكشترية — فعليه أن يتعلم ويقدم القرابين ويتصدق ويحمل السلاح دفاعا عن الوطن ، واما الويشى فعليه أن يتجر ويجمع المال وينفق على رجال الدين واهل العلم ، وأما الشودرى فعليه ان يخدم هذه الطوائف الثلاثة الشريفة . ( حضارة الهند )

وكم من شودرى نُفى من الأرض لمحاولته التطلع إلى من هم اعلا منه طبقة . وكم منهم مَنْ جرع الحميم من الزيت الفوار أو قطعت يداه لمجرد معارضته للبراهمة .

وإنا ما كان من صرامة شرائع منو بشأن امتزاج الطبقات ، فقد استطاعت المرأة الهندية بفتنتها أن تحطم هذه القيود وتخترق هذه الحواجز فى أحوال كثيرة كافية لأن تنفى اليوم القول ببقاء دماء ابناء الطبقات العليا .

هكذا اتاح منو بشرائعه ذلك السلطان المطلق والنفوذ الواسع لطبقة الكهنة ظل براهما على الأرض - رب الكون الذى يحيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف من عناصر الطبيعة الخمسة - فأخضعوا اتباعهم لنظام مرهوب خشعوا له خشية سوء المصير فى الآخرة .

وضاق الناس ذرعا باطراد سلطان البراهمة واشتداد وطأتهم عليهم . حتى بدت لهم تباشير الخلاص على ايدى مصلحين عظيمين ظهرا من بينهما فى القرن السادس ق . م وهما مهابير صاحب الديانة الجينية وكُوتا ما بُده صاحب البوذية .

ولقد غمضت حياة هذين المصلحين ، اللذين يقدس اسميهما ملايين من البشر اليوم ، اشد الغموض على الذين تصدوا للكتابة

عنهما وعن مبادئهما فلم يجـــدوا ما يعتمدون عليه فى الغالب الا الاساطير .

وعلى حد قول جوستاف لوبون ، الذى طوف بالهند سنوات عشرة باحثـــا ودارسا ومنقبا حتى اخرج كتابه المشهور عن حضارتها ، فباستثناء النبى الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم ، نجد ان مؤسسى الأديان لم تؤلف سيرهم الا بعد وفاتهم بزمن طول مما اعسر الاطلاع على حياتهم اطلاعا صحيحا[١] .

والچينية ، اى عقيدة قهر النفس ، هى اسبق فى الظهور من البوذية . وفيها ينظر نبيها مهابير ( اى البطل العظيم ) إلى الحياة بأنها لعنة على المرء ان يتخلص منهـا بنعمة الانتحار البطىء جوعا ليبلغ سر الوجود ، ويدرك الحقيقة المجردة التى لا تتكشف الا للواصلين . ذلك أن الحقيقة والمعرفة عند اهل الدنيا المتعلقين باهداب الحياة فيها لا تتجاوز النسبى فى الزمان والمكان فيها ، فما هو عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم فى الغالب [٢] .

---

١ ــ حضارة الهند ص ٣٤٤ .

٢ ــ الهند وجيرانها وهى الجزء الثالث من قصة الحضارة لبول ديورانت ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ص ٥٩

وطريق الخلاص عند الجينيين يقتضى الامتناع عن ايذاء اى كائن حى او جماد ، فالمعادن والحجارة والاشجار لهـــا بدورها ارواح كامنة فيها ، حتى امتنعوا عن ممارسة اى عمل من الاعمال وغطوا افواهم بايديهم كى لا تتسرب اليها كائنات من الهواء فتُقتل، وكنسوا الارض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوف القضاء على ما يسرح فيهـــا من هوام حين يمشون وحين يجلسون أو يرقدون . ويفعلون ذلك كله الى ان يتم لهم اعظم انتصار تظفر به الروح على ارادة الحياة وهو الانتحار البطىء جوعا .

هذا وحياة البُـد وعقيدته كما ترويها الاساطير تتفق فى كثير وسيرة المسيح بن مريم وتعاليمه . فبوذا ( البُـد ) قد ولد كعيسى عند جذع شجرة[1] مثمرة، واشرقت السماء بنور ربها عند مولده ، وسمع الأصم ونطق الأبكم ، واقبل الملوك من اقصى الأرض يرحبون بمقدمـه . وهو يماثل عيسى عليه السلام فى الصيام فى البرية ومحاولة الشيطان ان يغويه هذا كما نرى كلتى الديانتين تدعوان الى أن يتغلب المرء على غضبه بالكظم والعفو ، ويزيل الشر بالخير والكراهية بالحب . بل لقد استخدم البوذيون الماء

---

١ ــ يذكر الاستاذ جوستاف لوبون ايضا فى كتابه ص ٣٤٤ نقلا عن الاساطير الهندية ان البد قد ولد من ام عذراء كذلك .

المقدس والبخور واضاءوا معابدهم بالشموع ، كما ابتدعوا الرهبانية فارتدى رجالهـــا مسوحا خاصابهم ، وحملوا المسابح واعتكفوا بالاديرة ، وتقبلوا الأعتراف من المؤمنين ، قيل أن يفعل اتباع عيسى ذلك كله بقرون عدة [1] .

وإذا كان مبلغ علم هؤلاء الكتاب فى ذلك لا يعدو ماوقفوا عليه فى الأساطير الغامضة ، فلا يجوز لنا أن نصل باقوالهم إلى نتائج إيجابية عن مبلغ دينونه أحدى هاتين العقيدتين للأخرى ، وهو ليس من موضوعنا على كل حال .

ويتفق البُـد مع مهابير فى انـــكار وجود خالق للعالم وأن الموجودات كلها ليست إلا وهم وظواهر باطلة فانيـــة ، وأن الحديث عن الكـون وهل هو متناه أو لا مُتناهى ، والروح وامتزاج النفس والبدن أو انفصالها ما هو إلا اسطورة وخرافة من خرافات الفلاسفة . وكذلك أنكر البُـد القضاء والقدر وقال بأن مصير كل حـيّ منوط بسلوكه الذى قد يقوده إما إلى السعادة أو إلى الشقاء ، فلا آخرة ولا جنة بنعيم ولا سقر بحميم .

على أنّه ، أى البُـد ، مايلبث أن يختلف مع سالفة فى مسألة تعذيب النفس الذى أدى به حين مارسة إلى الشعور بالغرور فـــكاد

---

١ — الهند وجيرانها ص ١٩٨ .

يُقصيه عن الطريق لبلوغ المعرفة . وسلم بوجوب الحياة على أن يكبح الإنسان جماح شهواته الذاتية ساعيا إلى الخير المجرد دون سواه، إذ أن كل لذة تحمل فى طياتها سُما هو الألم الذى يرجحها.

وسخر البُدّ من البراهمة سخرية شديدة هز من كيانهم حين أعلن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت مسائل لا تستحق النظر ، وأن القرابين والادْعية والتمائم إن هى الا من صناعة الكهنوت . كما هاجم نظام الطبقات ضمنا حين صرح بأن الناس ، اشرافهم وادنياءهم واغنياءهم ،كلهم سواء .

وقضى على الجينية بقلة الانتشار ماتدعو إليه من تطرف بالغ فى التقشف والزهد حرم على أتباعها التملك والزواج والتدثر بالثياب[1]. فليس لها اليوم بالهند إلا أتباع ، ( دون المليون عداً ) يتناقصون بالتدريج . ولاينبذ الثياب منهم إلا قديسوهم المتقون . والغالب أن ما كان يعمد إليه غاندى زعيم الهنادكة الأكبر من التطهر بالصوم الشاق والسير فى خرقة

١ ــ الناسك الحق هو الذى يقهر جميع مشاعره فلا يشعر بالحر او البرد . والمرء طالما يتذكر أنه عار او أن هناك خير أو شر ، حسن او قبح ، فمعناه انه لا يزال متعلقا بالدنيا وما فيها فلا يفور بالنجاة والشعور بالحياء من العرى يضمن تصور الاثم . فترك اللباس هو ترك الاثم وقد كان آدم وحواء يعيشان فى الجنة عاريين بطهر كامل ، حتى أكلا ، بفعل الشيطان من شجرة العلم بالخير والشر فأخرجا من الجنة .

بسيطة ، لا تستر إلا عورته ، لم يكن إلا أثر من آثار هذه العقيدة .

وفى الوقت الذى لم يأبه البراهمة فيـــه لأمر الجينية التى لم تكن بذات خطر جدى بالنسبة لهم ، انصرفوا انصرافا نشيطا حازما الى العمل على تقويض صرح البوذية المتسامحة التى غدت تناوىء سلطانهم حتى أحدثت تغييرات غير قليلة فى نظم الهند الاجتماعية والسياسية بما صار لها من أتباع كثيرين ؛ فما زالوا بها حتى أفلحوا على كر السنين فى تقويض نفوذها بالهند لتلقى قدرا كبيرا من الرواج فى بورما وبلاد الصين واليابان والتبت من بعد ذلك .

ذلك أن رؤساء البراهمة عمدوا الى ادخال قدر غير يسير من التطور والتسامح فى شعائرهم ، فى الوقت الذى انحرف فيه سدنة البوذية عن مبادئها الأولى المبسطة إلى مستحدثات معقده أقحموها على عقيدتهم ، وراحوا ينشدون لانفسهم ، بغرور ، نظير ما للبراهمة من مجد وسلطان ، حتى وسعوا ، بامتيازاتهم التى أدعوها لانفسهم ، الشقة فيما بينهم وبين اتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسامح البراهمة الطارىء وتدبيرهم المحكم حين أخلوا للبوذ نفسه مكانا بين آلهتهم هو ومهابير ، وأعلنوا لهم قـــد سيتهما ،

فراحوا يعبدونهما وكانوا قد نهوا عن ذلك من قبل .

وهكذا ظهرت برهمية جديدة لا تختلف عن البرهمية القديمة فى كثير. وساعد على استرداد أصحابها لسلطانهم القديم ما وجدوه عند الأمراء الراجپوتيين من مناصرة وتشجيع وتعضيد يسر لهم نشر مدارسهم فى كل مكان ، حتى سادت عقيدتهم الهند كلها لا يضيرها وجود تلك القلة الجينية الضئيلة .

ودين الهنادكة اليوم السائد هذا ، للألوهية فيه ثلاث صور رئيسية هى نيراهما الخالق سيد الآلهة والمسيطر على العالم كله والذى يحيط بجميع الكائنات فتنمو بعد أن تولد ثم تنحل على مايشابه مذهب وحدة الوجود ، ووشنو الحافظ إله الحب الذى أحيا الموتى وابرأ الاكمه والابرص ثم صعد إلى السماء ليعود إلى الناس من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق ، وشيوا المدمر الموكول به قبض أرواح الناس وخلاصها من أبدانهم وإلى جانب هؤلاء الآلهة فهناك ملايين من آلهة آخرين تزدحم بهم الهند بعضها أقرب إلى الشياطين وبعضها أقرب إلى الملائكة ومنها ماهو فى صورة الطير أو الحيوان والهوام. وتجمعها كلها شبكة لا حدود لها تتناسخ الأرواح فيها .

والهندوكية المشتركة، أى البرهمية الجديدة ، والشيوية والوشنوية

وجميعها مستمدة من البرهمية الأولى ، لم يقف الأمر عند تفرعها إلى مذاهب لاحصر لها، هى اليوم فى عددها أشبه باوراق شجرة باسقة كثيفة الأغصان أيام الربيع ، حتى ذهب أتباع كل مذهب منها يتشددون فى أحكامهم فلا يطاعمون غيرهم أو يجالسونهم[1].

لغات الهند .

لم يكن عجبا وفى شبه القارة الهندو باكستانية من المذاهب والعقائد مالا يدخل تحت حصر أن يروج فيها أكثر من مائتين من اللغات وما يتفرع عنها من لهجات توبو على الثلاثمائه .

وتُرد لغات الهند عموما الى اصلين اثنين : الاصل الآرى واليه ترجع اغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط ، والأصل الدراورى واليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقة فى الوسط والشرق .

والسنسكريتية هى اشهر لغات الهند الآرية القديمة واعرقها ، وبها كُتبت اسفار الهند المقدسة القديمة . ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون إستعمالها فيه مقصورا على رجال الدين

---

١ ـ حضارة الهند ص ٦١١

والعلماء ، ثم كُتب لها من بعد ذلك قدرٌ من الرواج بفضل تشجيع بعض سلاطين المسلمين . حتى اذا جاء «أكبر» أعظم سلاطين الدولة المغولية ، ينادى بان الهند للهنود ، هنادكة ومسلمين ، صادفت هذه اللغة بدورها رواجا كبيرا اذ راح هـــذا السلطان النابه يحض الهنادكة على الاشتغال بآدابهم واحيـــاء تراثهم فى نهضته العلمية الكبرى التى لم يعرف العالم لها نظيرا فى عصره . وهى اليوم ، أى السنسكريتية ، لغة جمهورية الهند الحديثة . ويصفها بعض اللغويين الاعلام بأنها فضلا عن اتحادهـــا فى اصولها مع اعلب اللغات الأوربية وإنها أكمل من لغة اليونان واوسع من لغة الرومان ، أى اللاتينية ، وادق من كليهما [١]

وتروج فى الدكن والجنوب لغة تامل وتلنجو وهما من اللغات الدراورية القديمة .

وأعظم لغات شبه القارة الهندو باكستانية انتشارا هى الأوردوية وهى لغة آرية وضع قواعدها ونحـــوها علماء المسلمين . وكلمة أوردو معناها المعسكر . والمقصود هنا معسكر اسرى المغول والترك المسلمين حول دهلى حيث نشأت هذه اللغة فبدأت بالظهور فى

---

١ — Elphinstone, M. The History of India London 1911 p 161.

القرن العاشر الهجرى . والفاظها مزيج من العربية والسنسكريتية والفارسية والتركية. وهى فى قواعدها آرية خالصة ، وتكتب بالحروف العربية مع الاضافات الفارسية[1].

ولايزال للفارسية سوق رائجة فى الاوساط الاسلامية. ومارح المجوس، الذين يعرفون بالپارسيين، محتفظين فى الغالب بلغتهم البهلوية القديمة . وهم فى غرب البلاد على قلتهم يعدون فى بين اصحاب الثراء الواسع. هذا الى جانب بعض اللغات الاسيوية والاوروبية الاخرى التى تسمع هنا وهناك بالهند .

## تاريخ الهند القديمة وحضارتها

كان يشبه القارة الهند وپاكستانيه حضارات مزدهرة ايام كان المصريون يقيمون اهراماتهم قبل ميلاد المسيح بقرون ثلاثين . فقد كشفت بعثة مارشال فى حفرياتها عند « موهنجو دارو » فى غرب السند عام ١٩٢٤ م عن آثار يرجع تاريخها إلى عصر الأهرامات ، لمدنيّة عريقة كانت تسود البلاد اذ ذاك ، وكان اصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببابل فى الغالب . وهذه المدن الاربعة أو الخمسة التى كشفت عنها هذه البعثة ، والتى

١ ـ هى الباء المثلثة اى التى تكتب بنقط ثلاث من تحتها ثم الجيم المثلثة والزاى والكاف الفارسية.

كان يقوم بعضها فوق بعض ، حوت دورا من طبقات عدة قوامها الآجر المتين، والى جوارها الحمامات والآبار ، وفيها آنية من خزف مصقول ، واسلحة دقيقة ، وزخارف رقيقه من الخشب والمعدن، وأدوات للزينة مما لا تروج عادة الا في أرقى المجتمعات [١] .

على أن قلة وثائق الهند القديمة التاريخية عموما ، وصعوبة الاستدلال على ما ضيها من نقوشها وأطلالها ،قد اظهر المؤرخين على أن لا معدى لهم من أن يستشفوا من كتب هذه البلاد الدينية القديمة وملاحمها ، وما حوت من أكداس الأساطير ، ما يكشف عن ، بعض نواحى التاريخ الهندى القديم واحداثه .

وحمد جمهرة المؤرخين لمؤرخى المسلمين ورحالتهم جهدهم العلمى البارز الموفق حمداً جعلهم يقررون بأن أظهر أدوار الهند التاريخية [٢] لم يبـــدأ الا بتدوينات هؤلاء العلماء الذين صحبوا الفتوحات الإسلامية فى الهنـــد ، ونعنى بها تلك الفتوحات التى بدأها محمود الغزنوى وخلفاؤه فأخضعوا أغلب شبـــه القارة الهندية لحكمهم ، بعد أن كان العرب قد أقتصر أمرهم فى القرن الأول الهجرى على احتـــلال بعض ولايات سندية صغيرة .

---

١ – Dunbar, pp 1 - 3, 583

٢ – حضارة الهند ص ٦

وسنتحدث عن ذلك كله تفصيلا فى الصفحات التالية .

وعاون كذلك على استجلاء غوامض تاريخ الهند القديم ما وصلنا من تدوينات بعض الرحالة الذين زاروا الهند فى القديم واطلعوا اطلاعا واسعا على أحوالها ، أمثال ميغاستين ، سفير السلوقيين الاغريق لدى دولة الموريا الهندية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم الحاجين الصينين البوذيين فاهيان وهيون تسيانغ اللذان طوفا بالهند فى القرنين الخامس والسابع الميلادى على التوالى .

ولا نعرف من تاريخ الهند قبل نفاذ الاسكندر المقدونى إلى هذه البلاد إلا استيلاء الفرس على أقليم السند والقسم الشمالى الغربى من هذه البلاد فأقاموا به قرنين من الزمن واستخدموا سكانه وفيولهم فى جيوشهم فحاربوا بهم اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد .

واكتسح الاسكندر بلاد فارس ثم نفذ من أرض كابل إلى السند فدخله عام ٣٢٦ ق . م ، بعد أن عبر الهندكوش ، فطفق يتجول بالپنجاب عام بأكمله . حتى إذا ماعزم على المضى فى الفتح قدما ، بعد ماهزم پورس ملك الهند ، ليبلغ البحر فى ناحية الشرق فيقيم له أمبراطورية هندية ، عارضه رجاله ، الذين

لم يصبروا على احتمال حر هذه البلاد مع ماعاودهم من الحنين إلى بلادهم ، فاستدار بهم عائدا إلى وطنه ، عبر بلوخستان ، فوافاه اجله فى الطريق قبل أن يبلغه .

وكان من أثر فتح الاسكندر هذا إتصال الهند بثقافة الاغريق وحضارتهم اتصالا وثيقا . أما ما أسسه بعض قادته ، ومَن تخلف معهم من رجالهم ، من بعض الامارات بالسند ، فلم يعمر إلا عدد سنين .

وظهر بالهند ، أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، امبراطورية الموريا الهندية التى اتخذت لها الطاووس شعارا . وكانت رقعتها تمتد من البنغال إلى الهندكوش وتضم معها مالوه والكُجُرات وأرض كابل .

هذا وكان چَندراكُبتا ( ٣٢١ — ٢٩٦ ق م ) مؤسس هذه الدولة قد أقام بدوره زمنا بمعسكر الاسكندر ، إذ كان أبوه من زعماء البنجاب الذين وقعوا فى أسر القائد المقدونى ، ثم نكل بالحاميات الاغريقية من بعد ذلك وطفق يوسع من رقعة ملكه متخذا من بتنه حاضرة له .

وذاع صيت هذا الملك الهندى ، حتى بعث إليه نيكاتور السلوقى ، الذى ملك بعد وفاة الاسكندر سوريه وبابل ، سفيره

ميغاستين فاطلع اطلاعا واسعا على أحوال هذه البلاد وطباع أهلها وعاداتها، حتى ليُعَد ماوصل إلينا من مذكراته، من أهم مصادر الهند التاريخية القديمة [١] .

وقد أشاد هذا المبعوث الاغريقي بما كان عليه قصر الملك من الروعة والفخامة وما كان يزينه من نقوش وجواهر وعُمد طليت بالذهب . كما وصف الحضارة الهندية التي كانت قائمة إذ ذاك بأنها تساوي اختها اليونانية مساواة تامة . واثنى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكان عموما ، وانعدام الرق عندهم برغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم [٢] .

وكان من أهداف هـــذا السفير العمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى بلاد الشام ، عبر مملكة السلوقيين ، بدلا من الطريق البحري الذي ينتهي بها إلى مصر فتـــثري من ورائه . ودهمت الهند في أواخر عصر هذا الملك مجاعات شديدة اعتزل الحكم بسببها، فترهب مدى اثني عشر عاما قتل نفسه في آخرها جوعا على مذهب مهابير .

---

١ ـ Cambridge History of India pp. 384,467.

٢ ـ Havell. E. B. The History of Arayan Rule in Indta. pp. 75-83.

ويعتبر المؤرخون حفيده الملك الفليسوف آزوكا (آشوك : ٢٧١ — ٢٣١ ق.م ) أول حاكم واضـــح الشخصية فى تاريخ الهند القديم [١] . وبه يبدأ تاريخ الهند المعمارى ؛ ولا تزال بهذه البلاد حتى اليوم كثير من عُمُدِه التى أقامها فى أنحاء متفرقه بها لتنقش عليها مراسيمه ؛ هذا فضلا عن قصوره التى وصفها الرحالة فاهيان بانها كانت من الاعاجيب .

وتروى الاساطير أنه قتل اخوته الذين ولدوا لأبيه من ست عشر زوجة ليأمن بذلك منافستهم له،فما غدا أن ندم على فعلته ، فوقف حياته من بعد ذلك على التعبد والعناية بأمر الدين حتى صار داعية البوذية الأكبر الذى احيا شعائرها من جديد . فقد أمر عماله فى كافة انحاء بلاده أن ينظروا الى رعاياهم نظرتهم الى ابنائهم فيعاملونهم بالحسنى. كما بنى دورا للشفاء وملاجئ للعجزة من الانسان والحيوان ؛ ثم بعث بمبشرى هذه العقيدة الى خارج الهند فبلغوا مصر واليونان وسوريا وبلاد العرب ، كما انتشروا فى اواسط آسيا وجابوا التبت والصين واليابان . وفى عهد هـذا الملك عرفت الهند النقود كأداة تعامل لأول مرة فى تاريخها .

وانتهى أمر اسرة الموريا هذه عام ١٨٤ ق . م . على أيدى

---

١ — Havell, p 89

أسرة أندهارا التى خلفتها فى بلادها .

وظهرت قبائل السكا على حدود الهند الشمالية الغربية بعد قليل ، وانشأت لها امارات فى الشمال والوسط ، لكن أسرة اندهارا ماعتمت أن تصدت لستار بتهم [1] فانزلت بهم هزائم كثيرة .

كذلك عبرت قبائل كوشان السيثية حدود الهند الغربية وتوغلت فى شمال الهند حتى بنارس . وفى عهد ملكهم كنشكا ضمت دولتهم ارض كابل والپنجاب والراچپوتانا .

ويُعد هذا الملك ثانى حماة البوذية فى الهند بعد آزوكا [2] . فقد جمع مجلسا من كهنة البوذية الكبار عهد اليهم بتدوين سُنن البوذية فبلغت ثلاثمائه الف نص رفعوا فيها البُد الى مصاف الآلهة .

وفى عهد هذا الملك الذى كان على اتصال بالرومان ، راجت الحياة العقلية رواجا كبيرا وازدهرت العمارة والنحت .

وبغيم تاريخ الهند حتى بداية القرن الرابع الميلادى لتظهر اسرة كُبتا الثانية على مسرح الحوادث فى شبه القارة ، فتطرد ، بفضل بطولة ثانى ملوكها بكر ماديت ، السيث أصحاب كنشكا من الهند ،

---

١ ـ الترب ـ هو حاكم الإقليم عند الفرس القدماء ، وعنهم أخذ البابليون والاغريق .

٢ ـ Moreland, W.A short history of India. London 1936. p 76

وتُبعِد عن حدودها ستاربة السكا، ثم تبسط نفوذها من بعد ذلك فى الشمال والوسط والغرب وتخضع لولائها الدكن والبنغال وآسام.

وقد تحدث الرحالة الصينى فاهيان فى مذكراته عن ملوك هذه الأسرة ، ووصف بلاطهم وما كان به من الفلاسفة والشعراء وكُتّاب المسرحيات(١).

وخلب لب هذه الحجاج البوذى ما رأى بالهند إذ ذاك من مدن كبيرة تعج بالحركة والسكان ، وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة ، بل ومدارس وجامعات تزدحم بعلمائها وطلابها ، ومن بينها جامعة تكسيلا السندية ومدرستها الطبية المشهورة . هـــذا فضلا عن شيوع العدل بين الناس ورخاء العيش

وفى عهد هذه الأسرة نعم البراهمة برعاية ردت لهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذى كان آشوكا قد حد منه كثيرا ، فراحوا بالتالى يحيون تقاليدهم الأدبية من جـــديد فكتبوا المهابهارتا والراماينا فى صورتيهما الحاضرة فى الغالب.(٢)

وظلت هذه الأسرة تحكم الهند حتى أقبل الهون من بلاد

---

١ — Dunbar, India, pp 70-72

٢ — الهند وجيرانها ص ١١١

ماوراء النهر فى القرن الخامس الميلادى فقضوا عليها فى الوقت الذى كانت فيه قبائل أخرى منهم تتوغل، بقيادة زعيمهم الأكبر أتيلا، بأوروبا.

وأقام هرشا، وكان من سلالة الكشوبتيين، إمبراطورية واسعة له فى القرن السابع الميلادى شملت آسام والكجرات مع شمال الهند كله. وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه فحد من سلطان البراهمة وأخذ بيد البوذية من جديد. ويروى عنه أنه كان يتنازل لشعبه عن كل ثروته مرة فى كل أربع سنوات. وقد استنفدت هباته فى إحدى هـــذه المرات كل أمواله وأملاكه حتى ذهب يستجدى أختا له رداء قديما ليتدثر به، فما كاد يتناوله منها حتى سجد للبُـد حمداً وشكراً(١)

ويذكر الحاج الصينى الثانى هيـــون تسيانغ الكثير عن فضائل هذا الملك العابد الذى انتزع الملك من الهون، ويشيد بما كانت عليه حاضرته قنّوج من الروعة والفخامة. وهذه المدينة التى كانت حاضرة أسرة كُبتا من قبل، والتى ذكرها بطليموس الجغرافى عام ١٤٠ م باسم قُنتوجيـــا، كما أعجب بهـــا محمود الغزنوى فاتح الهندستان إعجابا شديداً، كانت تقع

---

(١) Ischwari Prasad. Medieval India p xxlx —

إلى الشرق من آكرا الحالية وعلى مسيرة كيلو مترات قليلة من نهر الكنج .

وانفرط مُلك هرشا عقب وفاته مباشرة . ذلك أن خلفاءه ، لم يستطيعوا لضعفهم أن يقفوا فى وجه قبائل الهون التى طفقت تتدفق من جديد على أرض الهند ، فضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد ، وقام بين أمرائها ما يشبه الحرب الأهلية التى أخذ البراهمة يذكون نيرانها طلبا لزيادة نفوذهم ولإخضاع البوذية لسلطانهم .

واستطاعت إمارة قنوج ، برغم انسلاخ الجزء الأكبر من من إمبراطورية هرشا الواسعة عنها ، أن تحتفظ بمركز الصدارة فى الشمال الهندى كله . وظلت تقاوم غزوات أمراء كشمير والبنغال وما حولها حتى نهض بها مهير بهوج فى القرن التاسع الميلادى فاسترد لها كثيراً من أملاك هرشا السابقة فى البنجاب والدوآب وعند كواليار . وبدأت الغزوات الإسلامية تترى على هذه الإمارة منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى فلم يشارف على نهايته حتى دخلت فى حوزة المسلمين .

كذلك بقى بسال ديوا يسيطر هو وأحفاده على إمارة دهلى ، التى كانت تمتد فيما بين الهملايا والوندهايا، حتى اقتحمها الغوريون ،

خلفـــاء الغزنويين ، عليهم وجعلوا من مدينتهم الكبرى حاضرة لملكهم .

أما مالوه فكان قد نهض بها بدروها راجا كرسنا فى القرن التاسع الميلادى . واشتهر خلفه مونكا ، إلى جانب بطولته فى الحرب ، بتشجيعه ورعايته للفنون والآداب السنسكريتية . وقد اعتنق آخر حكام مالوه الهنادكة الإسلام على أيدى الخلجيين فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى .

هذا وقد اشتهر من بين حكام الكجرات «مولراجا» الذى بنى معبد سومنات وخليفته راجا بهيما الذى حاول أن يحمى هـــذا المعبد الشهير بوقوفه فى وجه محمود الغزنوى الذى دمره عن آخره . وقد ضم الخلجيون إلى أملاكهم أيضاً هذه الولاية التى تعد أهم مراكز التجارة الهندية .

وبرغم أن هرشا لم يستطع فتح إقليم كشمير فإنه أفلح فى حمل أصحابه على قبول البوذية فى بلادهم .

وأتيح لهذه الامارة فى القرن الثامن الميلادى أن توسع من رقعتها حتى اشتهر أمرها ، فقامت بينها وبين الصين علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية .

على أن وعورتها وحصانة موقعها الطبيعى لم تمنعها على غزاة

المسلمين ، فاجتاحتها جيوش محمود الغزنوى الذى يرد إليه الفضل فى نشر الإسلام بها .

وسطع نجم بهـــار والبنغال بعد انفصالهما عن ملك هرشا ، فحكمها أسرتا پالا وسنا على التوالى .

وبسطت الأولى منهما نفوذها على أغلب الشمال الهندى بعض الوقت . وكان الخلجيون هم أول غزاة من المسلمين نفذوا إلى هاتين الإمارتين .

أما إقليم السند ، وهو آخر الأقاليم الشمالية التى نتحدث عنها ، فقد خضع طويلا لقبائل السكا الآرية حتى انتزعه منهم الملك البرهمى داهر ، وهو الذى وجده العرب المسلمون على هـــذا الإقليم عند غزوهم له .

ويشير الرحالة الصينى هيون تسيانغ إلى حـــكم الأمراء الراچپوتيين فى الدكن . وقد اشتهر من بينهم أسرة الشليوكيين ، إذ استطاع پليكسين الثانى ، أحد ملوكها . أن يقف فى وجه هرشا سالف الذكر ويغزو الكجرات ومالوه والراچپوتانا ، كما أنشأ علاقات ود وصداقة مع ملوك الفرس الساسانيين وتعد النقوش التى ظهرت فى عهده من أعظم آثار الهند الفنية حتى اليوم .

وخلف الشليوكيين على عرش الدكن أسرة راشتراكوتا فى

القرن الثامن الميلادى ، وقد قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية(١) قوية ، وكان تجارهم حين يفدون إلى بلاد الدكن يقابلون بالحفاوة والترحيب .

وبقيت الدكن تستعصى على غزاة المسلمين حتى اجتاحها الخلجيون الذين بلغوا بفتوحاتهم شبه القارة الهندية جنوباً .

والأمراء الراجپوتيون الذين حكموا فى إمارات الشمال والدكن ، والذين ذاعت شهرتهم وبطولتهم فى التاريخ الهندى والأساطير على السواء ، لم يصل الباحثون حتى اليوم إلى حقيقة أصلهم . والرأى الغالب أنهم من أصلاب الأبطال الآريين الذين سبقوا الهون إلى أرض الهند فحكموها . وقد احتموا من وجه الغزاة المسلمين آخر الأمر بالمنطقة الصحراوية الوعرة بصحراء الثار التى عُرفت باسمهم كما تعرف كذلك براجاستان أى أرض الملوك . وترد الأساطير الهندية نشأتهم إلى تزواج القمر بالشمس .

على أن بطولة هؤلاء الأمراء هذه لم تمنعهم من الانغماس فى تيار المنازعات الداخلية ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الإقطاعيين

---

١ — Prasad. India pp 30,31

فى كل زمان ومكان ، فآثروا فى الغالب الاندفاع وراء أطماعهم على الاتحاد والتآزر لدفع الغزاة والفاتحين عن الهند وطنهم الأكبر .

وتاريخ جنوب الهند أشد غموضا من تاريخ شمالها الذى لم يرتبط به إلا عرضا. ولا تشير كتب الشمال وملاحمه ، بل ونقوشه وآثاره ، إلى الجنوب إلا إشارات قليلة ، وجدت فى مخلفات عصر آشوكا وبعض مخلفات اخرى ، تفيد قيام ممالك بهذا القسم الهندى قبل الميلاد بقرون قليلة . وما وجد من كتابات التمول والتلنجو عن هذا الجنوب لا يسبق القرن الثامن الميلادى فى القدم ، ولا يجاوز ما به من نقوش وآثار القرن الخامس .

ويرجع ظهور ممالك الجنوب الكبرى، وهى پنديا وكولا وجيرا، إلى ما قبل ميلاد المسيح بقليل . وكانت الأولى تقع بأقصى الجنوب ، وكانت على قدر كبير من الثراء وعلى اتصال اقتصادى وثيق بالمصريين والرومان كما كانت عاصمتها مادورا من أجمل مدن الهند إذذاك . وإلى الشمال منها والشرق كانت تقوم إمارة كولا ، فى حين كانت جيرا تقع الى الشمال من الأولى والى الغرب من الثانية .

وتمكن حكام كولا من الاستيلاء على پنديا وبسط سلطانهم على جزيرة سيلان جنوبا، فى حين امتد نفوذهم فى الشمال حتى البنغال وأوده وإن لم يعمر طويلا هناك .

وبلغت جيرا بدورها شأوا عظيما فى القرنين الرابع والخامس، فلم يهل الثامن الميلادى حتى تجاوز نفوذها نهر نربدا .

واخذ وسط الهند وجنوبها يتعرض للغزو الإسلامى ابتداء من أيام الخلجيين حتى استقل امراء من المسلمين بسلطنة بهمنى الدكنية فى القرن الرابع عشر الميلادى ليقوم من ورائهم بالجنوب ، على انقاض إماراته الثلاثة سالفة الذكر ، إمارة ڤيايا نكر الهندوكية اعظم الامارات التى عرفها الجنوب . ومنع من القضاء عليها ما كان من اقتتال خلفاء سلطنة بهمنى فيما بينهم ، فلبثت وبعض دويلات هندوكية فى الجنوب تنعم بالنفوذ والاستقلال حتى بسط اورنك زيب المغولى سلطانه على شبه القارة الهندية بأكمله .

هذا وقد كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ومدنية رفيعة بلغت من الرقى درجة عالية ، فلم تكن أقل شأنا من نظائرها عند اليونان ومصر فى القديم .

وتشير كتب الهند القديمة الى قيام النظام الجمهورى ، وتتحدث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والإدارة حديثا ديموقراطيا ؛ وتصف الملك الهندى بأنه فى حقيقته خادم لقومه

يحصل على اجره ، وكان السدس السنوى من الحاصلات ، ليعمل به على رفاهيتهم [١]

هـــذا ولما كانت مساحة البلاد الواسعة لاتمكن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكان فى كل مكان ، فقد أدى ذلك تلقائيا إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة بالقرى ترعى شئون نفسها بنفسها فى وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة .

فكانت القريه منذ القدم، بنظامها السياسى والاجتماعى هذا ، وطن الهندوكى الذى يقوم على كافة شئونه الدنيوية والدينيه . ففيه حكومته وقاضيه وكاهنه وطبيبه وشاعره ، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرونه بأنه واحد منهم : فهو يشترك معهم فى العمل بأرض القرية التى هى فى الغالب مشاع بينهم . وله من بعد ذلك نصيب من ثمارها أو دخلها ، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث .

ولم يتعرض الغزاة وحكوماتهم فى الغالب لهذا النظام ، فلم يكن يعنيهم إلا دفع الضرائب لهم ، وهو ما كان يهون على الفلاح الهندوكى أمره من بعد ذلك [٢] . وكانت حالة الفلاح الهندوكى عموما تتراوح بين الميسرة والمعسرة وفقالما يطالب به من ضرائب .

---

١ ـ Prasad, India pp XXIII, XXXIV.

٢ ـ Le Bon. pp 637,38

والمرأة الهندية كان لها فى مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم، فشاركت فى الاشتغال بفنون المعرفة، حتى لا تزال الهند تتغنى بذكرى جارجى التى كان لها شرف الانخراط فى سلك الفلاسفة القدماء[1] وشاركت الهندية كذلك فى الدفاع عن بلادها فحاربت غير مرة بجانب صناديد الهند. وصعدت فوق المواقد مفضلة الموت حرقا على الوقوع فى أيدى الأعداء.

والمرأة الهندوكية لا تتوانى فى الغالب، ما أتيحت لها الفرصة حتى اليوم، فى أن تحرق نفسها مع جثمان زوجها عن إيمان وشعور بالزهو والشرف بين دعاء القوم وهتافهم. ولعل مما ساعد على ممارسة عادة الساتى هذه، ما كان ينتظر الأرملة التى ليس لها ولد، على الخصوص، من بؤس وشقاء، إذ تصير منبوذة محتقرة من الناس جميعا؛ فلم يكن لها مناص إذن من سلوك طريق الساتى التى لا تزال تمارس حتى اليوم ما أفلت الناس من الرقابة.

هذا وقد وصل فن العمارة فى الهند القديمة إلى ذروة الرقى والجمال الذى تجلى فى معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة فبهر أعين الرحالة والمؤرخين من الأغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا هذه البلاد واطلعوا على أحوالها.

١ - الهند وجيرانها ص ٢٨، ٤٢

أما الصناعات الهندية ، من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية ، فقد بلغت شأوا كبيرا من الازدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة . وكان لكل طائفة من أبناء الحرف فى الغالب نقابة قوية تنظم شئونهم وتدافع عن حقوقهم .

وحملت قوافل الهند ، ما بين برية وبحرية ، منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى كافة نواحى العالم القديم مباشرة أو بواسطة بلاد الشرق الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، فتبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة ، وتعطرت النساء بعطورها ورفلن فى حريرها وازين بلآلئها ، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلها فى المعترك .[1] .

وكانت الهند إذ ذاك تتداول ما يشبه خطابات الاعتماد والضمان المتعارف عليها فى عالم الاقتصاد اليوم ، وتتعامل بالنقود قبل الميلاد بزمان طويل .

ويذكر الرحالة الصينى هيوين تسيانغ الكثير عن انتشار الجامعات بالهند القديمة ومنها جامعة تاكسيلا التى كانت تشتهر

١ — Havell, pp 14 75, 130

بالبحث العلمى أيام الاسكندر وجامعة يوجين الفلكية وأجانتا الطبيّة وبنارس البرهمية ونالاندا البوذية ؛ ويفيض فى حديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون بهذه البلاد. والواقع أن اشتغال الهنود بالعلوم وتقدمهم فيه قديم جداً. فعالمهم آريه بهت ، الذى ترجم العرب كتبه أيام العباسيين ، هو الذى سبق إلى اثبات دوران الأرض حول محورها وأعلن عن كرويتها وعلل أسباب الكسوف والخسوف [٢] والانقلابين والاعتداليين فى الفصول الاربعة ؛ كما تحدث عن قيمة النسبة التقريبية المستعملة فى حساب مساحة الدائرة ، ووضع كثيراً من قوانين حساب المثلثات والجيب .

وخلف هذا العالم رياضى آخر يدعى براهما كوبتا وطائفة من الفلكيين قسموا العالم إلى أثنى عشر شهر ، وكل شهر إلى ثلاثين يوما ، وحسبوا بدقه بالغة مواقع النجوم فى أفلاكها وبحثوا فى قوانين الجاذبية ، كما أبتكروا فكرة السالبية فى الجبر ، وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق .

وكذلك نبغ الهنود فى الكيمياء فصهروا الحديد وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غيرهم ، حتى اعتبر

---

١ - Dunbar, pp 80,81

الإسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا فآثرها على الذهب والفضة [١] . ولعل ذلك كان هو مرد شهرة أسلحتهم وسيوفهم . هذا كما تفننوا فى الصباغة والدباغة وصناعة الزجاج والصابون ، وكلسوا وقطروا وحضروا الأمـــلاح على اختلاف أنواعها .

وكما بذ الهنود القدماء الإغريق فى نواح من الرياضيات كثيرة ، كذلك فاقوهم فى العلوم الطبيـة حتى رأينا ديوسقورس الطبيب، الذى عاش بالإسكندرية قبل الميلاد بقرن ، يستخدم كثيرا من المصطلحات الطبية الهندية [٢] . فقد كانوا على إحاطة تامة بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والعضلات والأنسجة وتركيبها وخواصها : كما استنبطوا ضروبا من المخدر استعانوا بها على إجراء الجراحات الكثيرة التى كانوا يحذقونها ؛ وضبطوا النسل على طريقة لا يعارضها رجال الدين ؛ واهتـــدوا إلى لقاح الجدرى قبل الميلاد بخمسه قرون ؛ وتمكنوا من تشخيص المرض بمجرد النظر فى بول المريض .

---

١ ـ الهند وجيرانها ص ٢٤٠

٢ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، ترجمة المرحوم حمزه طاهر ص ٤٦

ولا نعدو الحق حين نقول كذلك إن الفلسفة الهندية قد ذاع صيتها قبل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمان طويل . والمعروف أن فيثاغورس الفيلسوف اليونانى ، الذى عاصر بوذا ، قد شغل بعلوم الهند فى القرن السادس قبل الميلاد ، أى قبل أن يغزوا الإسكندر الهند بأكثر من قرنين . ويُروى أن فلاسفة من الهنود زاروا أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد وناظروا سقراط فسخروا منه . (٢)

ومن بين فلاسفة الهند القدامى ، فيما قبل عصر الإسكندر ، الفيلسوف كابيلا ، أول من قال بمقدرة العقل الإنسانى واستقلاله وحريته الكاملتين (٣) .

هذا ولم يكن اشتغال الهنود بالآداب السنسكريتية وغيرها من الآداب الهندية الأخرى وسموهم بها ليقل عما فعلوه بالفلسفة . وفى أكداس تراثهم من القصص والملاحم والتمثيليات والشعر ما يشهد بطول باعهم فى هذا المضمار .

ولقد انفرد أبو الريحان البيرونى فى العربية بأول وأكبر حديث عن قدماء الهنود وحضارتهم ومدنيتهم ، وأثبت وجود

---

١ ـ Garratt. The legacy of India p 8

٢ ـ الهند وجيرانها ص ٢٥٢

مبدأ التوحيد عندهم (١) . وجاء معه ومن قبله ومن بعده ، إلى هذه البلاد طائفة من مؤرخي المسلمين ورحالتهم ، من أمثال العُتبي والبيهقي والمسعودي والاصطخري والإدريسي وابن بطوطه وابن حوقل ، فطوّفوا بها واسهبوا في الحديث عنها وعن أحوالها .

على أن توفر مقامات الحضارة والمدنية الكثيرة عند الهنود لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحر أمرائهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفاتحين .

وطفق المسلمون منذ أواخر القرن الأول الهجري ينفذون إلى هذه البلاد فاتحين . ولم يبدأ الغزو الإسلامي الجدي لشبه القارة الهندية الا على أيدي الغزنويين في أواخر القرن الرابع الهجري ، فدخل تاريخ هذه البلاد في عهد جديد وبدأ في أرضها الصراع بين القديم والحديث .

---

١ ـ انظر كتابه : ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » ، وقد تداولته طبعات كثيرة في الشرق والغرب ، ص ١٣ من طبعة زاخاو بلندن ١٨٨٧ « واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء . . . »

ولقد وهم كثير من أهل الرأى فى الهند ، حين أقبل عليهم المسلمون فاتحين ، أن هؤلاء الغزاة سينتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه مصير من سبقهم من اليونان والهون وغيرهم من الأمم التى وفدت إلى هذه البلاد فانصهرت جميعها فى بوتقة شبه القارة .

فما لبث هؤلاء المسلمون أن بلغ نفوذهم بالهند نفس الأثر العميق الذى وصله فى جميع الأقطار التى فتحوها ، وهو مالم يرق إليه اليونان أو الرومان من قبل أو يبلغوه . فتم لهم بهذه البلاد نظير ماتم لهم بوادى النيل حيث حولوا شعبا ، كانت له أقدم الحضارات ، عن دينه ولغته وفنونه وثقافته إلى دينهم ولغتهم وثقافتهم وفنونهم .

وآية ذلك أنه يشبه القارة الهندية اليوم مايزيد على مائة المليون من المسلمين هندوكي الأصل فى الغالب . هذا كما نجد كثرة بالغة من السكان جميعاً تتحدث الأوردوية التى هى من مشتقـــات لغات المسلمين .

وكان مما ساعد على إقبال هذه الكثرة الغالبة من الهنادكة على الدخول فى دين الإسلام ما وجدوه فيه من تقيدة فطرة لا طبقات عندها ولا تفاضل بين أفرادها إلا بالتقوى(١)

---

١ — Havell. p 257

والفتح الإسلامى للهند ، باعتراف جمهور المؤرخين العدول ومن بينهم علماء الهنادكة ، كان فيه الكثير من الخير . هذا كما تُرد صفوة تقاليد المجتمع الحديث بشبه القارة الهندية كلها إلى هؤلاء الفاتحين(١) الذين دفعوا بعجلة الحضارة والمدنية الهندية إلى السير من جديد ، ونقلوا إليها كثيرا من فنون المعرفة عند المسلمين ، وأقاموا من أنفسهم رعاة على ذلك كله(٢) .

وبلغت الشخصية الهندية الإسلامية أوجها أيام الدولة المغولية التى حكمت الهند قرابة قرون ثلاثة إبتداء من القرن العاشر الهجرى الموافق للسادس عشر الميلادى . وفى عهدها وُحّدت شبه القارة كلها تحت الراية الإسلامية .

ولقد خضع أهل الهند قرونا طويلة للحكم الإسلامى فلم يجدوا عنده عنتا ولا رهقا ، كما لم يصادفوا فى الغالب تقييدا لحريتهم الدينيـــة فعاشوا ، هنادكة ومسلمين ، متحابين فى كثير من الأحيان ، فى ظل سلاطين المسلمين .

والحكام المسلمون هم الذين قادوا الثورة التى نشبت بالهند فى

١ — Prasad. pp XXXVI XXXVII

٢ — Le Bon. pp 420 et seq

منتصف القرن التاسع عشر الميلادى لطرد المستعمرين البريطانيين من شبه القارة .

ويطلق البريطانيون اسم فتنة الغدر والعصيان على هذه الثورة التى تزعمها بهادر خان آخر امراء البيت المغولى ، بتعضيد ومعاونة الأفغان ، للقضاء على شرور شركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت تبسط يدها على أجزاء كبيرة من هذه البلاد، وبمعنى أوضح ، كان الإنجليز يحكمون هناك باسمها . وقد أفلح البريطانيون، بمعاونة فريق من الهنادكة السِّك، فى القضاء على الثوار الوطنيين الذين كانوا قد أنزلوا بهؤلاء المستعمرين ضربات شديدة حتى خلصوا من أيديهم أقاليم كثيرة لا سيما فى البنجاب وبهار .

ومن ثم نفى البريطانيون الأمير المغولى من البلاد بعد أن قتلوا كثيرين من أبناء أسرته وذويه ، وفيهم أطفال دون السادسة . وأعلنوا من فورهم ضم شبه القارة الهندية لتاج ملكتهم ڤكتوريا .

ولم يكن البريطانيون هم أول من جاء الهند من جماعات الأوربيين ، فقد سبقهم البرتغاليون إليها ثم جاء من بعدهم الهولنديون . ولحق الفرنسيون بالبريطانيين من بعد ذلك ، لكن الأخيرين استطاعوا بدسائسهم ، فى أوروبا على الخصوص،

أن يحملوا لويس الخامس عشر ملك فرنسا على إخلاء أملاكه الهندية الواسعة .

وطفق الإنجليز، حين أخلى لهم الجو من منافسة الأوربيين بالهند ، ينفخون فى نار الخلاف بين أمرائها ويثيرون النزاع بينهم بالدس والوقيعة ، حتى انهكت قواهم فسقطوا فريسة سهلة .

وتم للبريطانيين السيطرة التامة على شبه القارة الهندية بمعاونة جنود من الهنود أنفسهم جذبتهم أموال المستعمرين الذين كانوا قد ابتزوها بدورهم من أمراء البلاد حين كانوا ينشدون عونهم على مناوئيهم . وهكذا فتح الإنجليز الهند بأموالها ورجالهـــا ، وامتصوا خيراتها وبركاتها قرابة القرنين من الزمان . وبدعوى المحافظة على مواصلاتهم بالهند ، دخل هؤلاء المستعمرون مصر ثم احتلوا وادى النيل كله واغتصبوا فلسطين التى تركوها أخيرا لليهود ، كما اكتسبوا مزايا سياسية بالعراق ومشارف كثيرة بالشواطئ العربية . وداوموا ، إبان ذلك كله ، على إشعال نيران فتن متلاحقة بإيران بأمل أن يكون لهم الشرق كله فيما بين البحر الأبيض المتوسط والهند ، على اختلاف دروبه ومسالكه .

واستيقظت الهند وغيرها من أمم الشرق التى بُليت بالبريطانيين ، وطفق الوعى القومى فيها ينمو ويقوى ، وأخذ أهلها يشعرون

بما فى السكوت على وجود المستعمر ببلادهم من خزى وعار .
وأخلى البريطانيون شبه القارة الهندية آخر الأمر عام١٩٤٦م وقد اتفق سكانها فيما بينهم على تقسيمها إلى جمهوريتين كبيرتين هما جمهورية پاكستان الإسلامية وجمهورية الهند الهندوكية .

# الفتوحات الإسلامية في شبه القارة الهندية

# فتوح العرب بالسند

كان العرب وحدهم، فيما قبل الإسلام، واسطة مقايضات التجارة الهندية ماورد منها برا، عن طريق بلاد فارس، فتولاه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانىء الشام، أو بحراً، عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر، فحمله اليمنيون من أبناء سبا القديمة، فمنه ما كان من نصيب القرشيين فى رحلة الشتاء، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، ليسيروا بدورهم بأكثره فى رحلة الصيف الى بلاد الشام، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير.

هكذا كان العرب فى القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد فى غربها فاختلطوا بأهلها ولقوا فى الغالب حفاوة وعناية عند حكامها، ليعودوا إلى بلادهم فى كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات، ويبهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلىء الهند ونفيس معادنهـــا ومنسوجاتها

وعطورها وثمارها ثم سيوفها التى اشتهرت بها .

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية فى أرض الفراتين ، مهد الحضارات القديمة وبجمعها ، التى كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماؤها . وقد تخرج على أيدى الهنود بمدرسة جنديسابور الساسانية فريق من العرب ، منهم الحارث بن كلدة الثقفى ، طبيب العرب قبل الاسلام الذى قام على علاج الناس بفارس ، وطبَّ بعض سراتها فأعطاه مالا وجارية هى سُمية أم زياد بن أبيه . (١)

وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، وتخطت جيوشهم شمال إفريقية إلى بلاد الأندلس ، كما توغلوا فى بلاد فارس المترامية الأطراف وطرقوا أبواب بلاد ماوراء النهر ، فعظم شأن الدولة الإسلامية بهذه الفتوحات الكثيرة المهمة وقويت دعائم الخلافة الأموية بها .

وعهد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك ، بأمر القسم الشرقى من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان محبا للفتح ميالا إلى التوسع . فوجه جند المسلمين إلى بلاد ماوراء النهر فدخلت بخارى

١ ـ ضحى الاسلام لأحمد أمين . القاهرة ١٩٣٨ أول ص ٢٦٦

وسمرقند وخُجند وفرغانة حتى وصلت إلى قشغر على حدود الصين.

وكان من الطبيعى ألا يهمل الحجاج أمر إقليم السند، باب الهند ذات الثراء الطائل، الذى أصبح يجاور آخر حدوده الشرقية.

هذا وكان العرب، أيام عمر، قد خرجوا، قبل فتحهم لفارس، فى حملات خفيفة من البحرين وعمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراچى الحالية وبمباى، ولكن ثانى الخلفاء الراشدين نهى عامله بالبحرين، الحَكَم بن أبى العاصى، عن المضى فى هذا الأمر، إذ كان يخاف البحر على جند المسلمين شديد الحذر من «حمل الدود على العود» على حد قوله.

على أن الحكم شجعه ما غنمه فى غزواته على الإغضاء عن أوامر خليفته طلبا للمزيد من الأسلاب وللتمكن من الاطلاع على أحوال تلك النواحى، فبعث بأخيه المغيرة هذه المرة إلى ديبل عند مصب السند فى حين قصد هو بروج.

فلما فتح المسلمون العراق وفارس، طلب عثمان بن عفان إلى عامله على العراق، عبد الله بن عامر، أن يوجه إلى ثغور الهند مَن يُسعله عنها، فوجه إليها حكيم بن جبله العبدى الذى بعث مخاوف الخليفة بحديثه عنها فصرف المسلمين عن غزوها[1].

---

١ ــ فتوح البلدان للبلاذرى، ص ٤٣٢، ٤٣٨

ولم تنته خلافة عثمان على كل حال حتى كان المسلمون قد فتحوا كابل وانتشروا على حدود السند يستطلعون أخباره وأحواله جنوبا حتى البحر .

وغزا المسلمون من بعد ذلك إقليم قيقان السندى ليجيء المهلب ابن أبي صفرة من بعدهم أيام معاوية فيغزو بنه والأهوار (لاهور) بين الملتان وكانه. وعدل الذين خلفوا المهلب هناك عن الاهتمام بالمناطق الشمالية لوعورتها، فعادوا إلى حصر جهودهم فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ .

وبعث الحجاج، حين ولى العراق، بسعيد بن أسلم إلى مكران فخرج إليه معاوية ومحمد بن الحارث العلافى فقتلاه ؛ إذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين فى هذه الجهات. وكانا قد لقيا عند داهر، ملك السند البرهمى، كل ترحيب حين لجآ إليه برجالهما الخمسمائة ، وما لبثا حين نصراه فى بعض حروبه أن صارا من أصحاب الحظوة عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الوليد الإذن بتسيير حملة إلى السند التى غدت ملجأ للخارجين على الدولة ، لكن الخليفة لم يجبه الى طلبه. حتى إذا ما تعرض قراصنة من ميد الديبُل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت ( سيلان ) وفيها بنات وأرامل لتجار من

المسلمين وافاهم الأجل هناك ومعهم هدية من ملك هذه الجزيرة للخليفة، فاعتذر داهر ملك السند للحجاج، حين ألح عليه فى تخليص نساء المسلمين من الأسر، بعدم قدرته على لصوص البحر هؤلاء، سيّر الحاكم الثقفى من فوره إلى دَيْبُل، عبيدالله بن نبهان فى قوة انتهى أمرها إلى الهزيمة والقتل. ولقى بُديْل بن طهفة البجلى نفس المصير حين خرج من عمان بأمر الحجاج للغرض ذاته.

هنالك تبدى للحجاج مدى الإهانة التى تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فما زال بالخليفة حتى أذن له بتسيير الجند لفتح السند، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل بالأندلس وجهتها بلاد الفرنجة.

واختار الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى أميرا للحملة السندية وطفق قائد هذه الحملة، وكان يقيم إذ ذاك بشيراز، يعد لها العدة طوال شهور سنة. وعُنى الحجاج بالإشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ماقد يحتاجون إليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمسال بل وكذلك بالخل (١).

وأقبل محمد بن القاسم، وهو دون العشرين من عمره، يغزو

١ ــ كان الخل يعالج بأن ينقع فيه القطن المحلوج فى الظل حتى يتشربه ويجف، فاذا، اريد استخراج ما به من الخل ثانية نقع فى الماء من جديد فيتحلل فيه.

بلادا مترامية الأطراف متسعة الأرجاء، اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء وأصحاب حضارة ومدنية عريضة، وهو فى قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم، وضآلة من الموارد بالقياس إلى ما كان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم.

وسار المسلمون من مكران وجههم ديبل فى اثنى عشر ألفا من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم. أما عتادهم الحربى، وكان قد قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران، فقد اتخذ طريقه بحرا، فالتقى الجيش بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام ٨٩ هـ / ٧٠٧ م

وانضم إلى جيش المسلمين عند ديبل جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط)، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لضرب ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية، إذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنؤها.

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط. إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم فيها، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى القتال.

ورابط الغزاة بجنادقهم بظاهر ديبل خلف أسوارها ، فأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم . حتى إذا ما نصب محمد بن القاسم منجانيقه الكبير «العروس» ، وحوله خمسمائة من الرجال الأكفاء يقومون عليه ، فدق بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر بالمدينة فهدمه ، استولى الرعب والفزع على السكان وشاعت الفوضى بينهم ليقتحم المسلمون المدينة عليهم من بعد ذلك . واستعر القتال بين الفريقين المتحاربين فى عنف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وفلوله من الميدان.

وبنى القائد الثقفى بالمدينة مسجدا ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ، وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل زحفه فبلغ مدينة نيرون(١) على الضفة الغربية للسند . فما عتم أهلها ، وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عن إراقه الدماء ، أن أبرزوا له عهدا بالأمان كانوا قد حصلوا عليه من الحجاج ، يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند ، فأكده لهم بدوره .

---

١ — تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ ميلا من مكران وتعرف ايضا باسم نيرانكوت وموقعها حيدر آباد السند الحالية . ويخلط بعض الكتاب فيكتبون نون الكلمة الأولى باءا وينسبون اليها على ذلك العلامة البيروني ، وهو خطأ شنيع ، فمدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هى باقليم خوارزم .

وفيما كان الغزاة على أهبة التقدم بجموعهم صوب الشمال ، ورد على قائدهم كتاب من الحجاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطىء السند الشرقى حيث يرابط عدوّه فى جموعه .

هنالك رجع ابن القاسم عن موقع سيوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ، ليفاجىء عدوّه بعبور النهر اليه ليلا ، فلم يملك داهر إلا أن يرتدّ كرة أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان فى قتال عنيف ، انتصر فيه المسلمون ، برغم مواجهتهم فيلة الحرب لأول مرة ، وقُتل داهر ، وكان يمتطى فيلا اشتدبه العطش فثار على فيّاله واندفع إلى النهر ، فترجّل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلا (١) .

وبلغ الخبر رانى باى ، وكانت أختا لداهر بَنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفا من الجند ، أخذوا يقذفون العرب بوابل من سهامهم ومن النفط المشتعل وقطع الصخر ، فلم يجدهم ذلك كله نفعا . هنالك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليلقين بأنفسهن فى

---

١ — تاريخ اليعقوبى طبع ليدن عام ١٨٨٣ — ثان ص ٢٤٦

الميران فلا يقعن بأيدى الغزاة(١) .

واستولى محمد بن القاسم فى راور على الكثير من أموال داهر وكنوزه . ووقع فى أسره خلق كثير كان من بينه نفر من الأميرات بعث بهم جميعا إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرفين حتى بلغوا مدينة برهمآباد ، وكان قد فر إليها ابن لداهر ، يدعى چاى سنك ، بعد سقوط راور فأحكم من تحصينها وسد منافذها . وافتحم الغزاة المدينة على أهلها بغتة وعنوة فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالا مستجيرا بملك كشمير ، فى حين سقط فى الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لادهى وبعض بناته . إذ أذهلهم المفاجأة عن سلوك السبيل الذى سلكته رانى باى وصويحباتها فى راور من قبل .

وأقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين هناك وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا ما يفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر (٢) .

---

١ - Prasad. Med. India pp 42,43

٢ - « « Muslim Rule in India 1938 pp 29.30

وبلغ الجيش العربى الرور (١)، عاصمة داهر، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد وراح، فى سبيل حث قومه على المقاومة، يلقى فى روعهم أن ملكهم إنما قـــد اختفى ليعود إليهم فى القريب بجند وسلاح كثير. واستمات الهنادكة فعلا فى مقاومة الغزاة ودفعهم دفعا شديدا. حتى إذا ما فطن محمد بن القاسم لخدعة خصمه بعث بلادى أرملة داهر، وكان قد بنى بها، فنادت فى قومها بأدنى الأسوار تؤكد لهم موت ملكهم، فانهارت قواهم على أثر ذلك بعد ماعانوا طويلا من انقطاع الماء عنهم وطول الحصار من حولهم.

وعبر الغزاة من بعد ذلك بياس، رافد السند، إلى مدينة الملتان، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه، فامتنعت عليهم شهورا ستة نفدت فيها مؤنهم فطعموا الحُمر. حتى أتاهم رجل مستأمن دلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه السكان، فقطعوه عليهم، فنزلوا إلى قتالهم فى معركة شديدة استمرت اياما سبعة اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها واستولوا على المدينة كلها.

وفى الملتان، آخر حصون السنديين الكبرى، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار، وأصحاب الحرف فى عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات، الذين كانوا يعانون من ظلم

١ — تعرف هذه المدينة أيضا باسم آلولى.

البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربى وكرمه وكفه لأيدى رجاله عن السلب والنهب ، فأعلنوا جميعا ولاءهم له فأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقربا منه ، على مكان خفى بأحد المعابد القريبة كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرُد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بادىء الأمر ، فحُمل إلى دمشق عشرون ومائة ألف ألف درهم دون أن يضار الأهلون فى أموالهم أو يُفرض عليهم من الغرم مالا يطيقونه[1] .

وهكذا كان لحميد مسلك ابن القاسم مع الأهلين، فى حسن معاملته لهم وتأمينهم على اموالهم وانفسهم ، واطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر فى نفوس القوم مما ساعد كثيرا على توطيد مركز المسلمين هناك[2] .

وكتب الفاتح العربى من بعد ذلك إلى الحجاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى

---

١ — تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى طبع بولاق ١٣٠٣ هـ مجلد ٤ ص ٢٠٩

٢ — Dunbar, India p 89.

البنغال ، فأجابه الى طلبه وشجّعه على المضى فى خطته .

هنا لك بدأ محمد بن القاسم ، أولا ، بإيفاد بَعْثة من رجاله إلى صاحب قنوّج تدعوه إلى الإسلام أو الجزية . حتى إذا ماردّ الملك الوفد ردّا غير كريم ، أخذ الفاتح العربى يعُدّ العدّة لغزو عدوّه ، فجهز لذلك جيشا فيه عشرة آلاف من الفرسان وعليه قائده أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من إعداد حملته هذه حتى وافته الرُّسل تنبئه بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبدالملك من بعده وانتقال الخلافة إلى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للقدوم إليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج وينقم عليه لتأييده الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا . ولم يمنع موت الوليد، قبل أن يتم هذا الأمر ، سليمان من إنزال نقمته، فى عنف ، بكل من كان يتصل بالحجاج خاصة بسبب .

ولقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة ، بل ويرفض المسير إليه مستقلا بما فتح من بلدان وما استولى عليه من اراض،وهو الذى أمكن له أن يخضع السند لراية الخلافة فى مدة لا تتجاوز سنوات ثلاثا ، صار من بعدها يتمتع بمحبة الأهلين وولائهم له هناك ، ولكنه آثر ألا يشق عصا

الطاعة على خليفة المسلمين برغم توجّسه الشر منه .

فحُمل مقيدا بالأغلال حتى بلغ باسط فلقى بها من العذاب النُّكْر ، على أيدى أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب ، حتى لقى حتفه ، فبعثوا برأسه إلى دمشق .

وترُد بعض الروايات غضب الخليفة الأموى على محمد بن القاسم إلى عبثة بسبى الهند إلى دار الخلافة ، وكان فيه ابنتان لداهر هما بارمل ديوا وسوراج ديوا . فإن اختلتا بسليمان حتى صرحتا له باعتداء الفاتح العربى عليهما قبل مسيرهما إلى دمشق ، فهاج للخبر وأمر بقتل ابن القاسم وأن يُحمل إليه فى جلد ثور محشو بالتبن . وتقول الرواية من بعد ذلك إن الأميرتين حين عُرض عليهما رأس القائد الثقفى ، عدلتا عن قولهما السابق واعتذرتا عنه بما يحملانه من ضغينة وحقد لقاتل أبيهما ، فسبقتا إلى حتفهما بافترائهما وغدرهما .

وليس لهذه القصة سند عند ثقات المؤرخين على كل حال .

وفتراهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح فى شبه القارة الهندية ، إذ كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر فى الدولة الأموية . فى حين حرصت الدولة العباسية من بعدها على عدم التوسع الكثير فى الفتح بعد أن عظمت رقعة الدولة الإسلامية

وترامت أطرافها . يضاف إلى ذلك أن الولايات السندية ، فضلا عن جدبها النسبي وضعف خراجها ، كانت لاتزال محوطة فى الشمال والشرق بإمارات قوية يحكمها الهنادكة ، كما كان سكان البلاد أنفسهم قد طفقوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم من العرب الذين حادوا فى الغالب عما استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم .

وهكذا شُغل أكثر الولاة المسلمين فى السند بإقرار الأمن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها ، فانصرفوا عن التفكير الجدّى فى المضى فيما بدأه محمد بن القاسم من الفتوح . وأخذت الاضطرابات تنتشر فى السند حتى قامت بين القبائل العربية نفسها هناك من البزارية واليمنية الذين لم يتركوا أى بقعة حلوا بها فى اراضى الدولة الإسلامية الواسعة ، سواء فى أرض الشام أو بلاد الأندلس أو السند ، إلا واعتركوا فيما بينهم بها . وزاد من تفاقم الأحوال بالسند نفاذ الخوارج والشيعة والقرامطة إليه ، فانكمشت أملاك المسلمين هناك من جراء ذلك كله فلم يبق لهم إلا المنصورة والملتان .

وتفصيل ذلك كله أنه قد خلف محمد بن القاسم على ولاية السند يزيد بن أبى كبشة السكسكى من قِبل سليمان بن عبد الملك ،

ولكنه ما لبث أن قضى على أثر وصوله بأيام قليلة . وأدى اضطراب الأحوال على أثر هذا الحادث إلى أن انتهز جاى سنك ابن داهر المقتول هـــذه الفرصة فانقض على مدينة برهمنا باد فاستخلصها لنفسه، فلم يستطع حبيب بن المهلب حين ولى السند أن يستردها منه . حتى إذا ما بعث الخليفة عمر بن عبد العزيز بعامله عمرو بن مسلم الباهلى أخى قتيبة إلى هذه البلاد فأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الدخول فى الإسلام دون إكراه أو قسر ، صادفه التوفيق والنجاح فيما نُدب له حتى أقبل ولد داهر نفسه على اعتناق الإسلام فأقره على إمارته .

وحاول فريق من آل المهلب ، عقب وفاة عمر بن عبد العزيز الذى كان قد ألقى بهم فى السجن لطغيانهم وتبديدهم لأموال المسلمين ، أن يشيعوا الفتن فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية حتى بلغوا بها السند التى لاذوا بها ، لكنهم باءوا آخر أمرهم بالفشل وقضى عليهم .

وصار أمر السند فى عهـــد هشام بن عبد الملك إلى جُنيد ابن عبدالرحمن المرى . وكان حاكما حازما استرد إمارة برهمناباد من أيدى جاى سنك بعد أن قتله ، كما سيّر جنده فى غزوات ناجحة بلغت يوجين ومالوه والكجرات عند شرقى السند وجنوبه

الشرقى . حتى إذا ما خلفه تميم بن زيد العتبى أضاع بتردده وضعفه كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السند من بعد ذلك الحـــكم بن عوانة وفى صحبته عمرو بن محمد بن القاسم ، الذى انفرد بالحكم من بعده . وفى عهدهما بُنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة على شاطئ السند ، غير بعيد من برهمنا باد . وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين فيما بعد ، وموقعها اليوم مشارف حيدر آباد السند هذا وقد نهج عمرو خاصة نهج أبيه محمد بن القاسم فى الحزم والعدل وأحيا سيرته فى التسامح الدينى وإطلاق حرية العبادة للهنادكة .

واقتحم السند على يزيد بن غرار ، خليفة عمرو هناك ، ثائر من الخارجين على سلطان الخلافة الأموية يدعى منصور بن جمهور الكلبى فاغتصب هذه الإمارة عام ١٣٠ هـ لنفسه .

وقضى العباسيون على الخلافة الأموية ، فعهد السفاح أول خلفائهم بأمر الأقاليم الإسلامية إلى نصيره أبى مسلم الخراسانى الذى بعث بدوره إلى السند بعبد الرحمن بن أبى مسلم العبدى ، ليفشل فى طرد جمهور بن منصور الكلبى منها ويلاقى حتفه على يديه . حتى وفد موسى بن كعب التميمى فما زال بالثائر الكلبى يطارده إلى أن هلك فى الصحراء عطشا ، فى حين لقى أخوه نزار

مقتله على يديه . وطفق موسى من بعد ذلك يستميل قلوب الناس إلى دعوة بنى العباس ويعمل على التفافهم حوله، فجدد بناء المنصورة وأقام بها مسجدا جديدا . وبلغ بجنده بعض غزوات موفقة .

وخلف المنصور السفاح فبعث إلى السند بعمر بن حفص . وكان هذا الوالى الجديد ، الذى عرف بحسن تدبيره وحزمه ، على تشييع وثيق للعلويين دون الجهر ، حتى رحب فى بلاده بأحد زعمائهم حين جاء إليها هربا من وجه العباسيين . فكان عهـــده هـــذا هو بداية انتشار التشيع بالسند . ذلك أن عبدالله ابن محمد الأشتر الحسنى العلوى كان قد ورد السند مستترا فى هيئة التجار(١) ، فما إن عرف بميل أميره إلى أهل البيت حتى كشف له عن أمره فنال عنده كل حظوة ورعاية . ولكن كان أن خاف عمر بطش الخليفة فأنزل العلوى مع أتباعة عند أمير هندوكى فى أحد البلاد المجاورة ، موليا رعايتهم والعناية بأمرهم فى الخفاء . ومضت سنوات عشرة على هذا الحال حتى علم الخليفة بالأمر ، فكتب إلى عامله السندى يأمره بغزو بلاد الأمير الهندوكى ومطاردة الشريف العلوى . وما إن أحس الخليفة بما طلة عمر فى

١ ــ تاريخ الطبرى طبع القاهرة ١٣٢٣ هـ المجلد التاسع حوادث سنة ١٥١ ص ٢٧٩ ــ ٨٠

تنفيذ ما أمره به حتى نقله إلى شمال إفريقية ، بعد أن كاد يفتك به ، وبعث مكانه بهشام بن عمرو التغلبي .

كذلك قصد السند أيام ابن حفص داعيـــة من الخوارج يدعى حسان بن مجاهد الهمدانى ، لكنه لم يجد لدعوته سوقا رائجة ، فقد لحظ شدة ميل الأهلين إلى التشيع فرجع من حيث أتى :

على أنّ ، فإن الدعوة الشيعية بالسند لم يظهر أثرها قويا إلا بعد مضى زمن طويل على هذا الحادث ، فقامت لهم دولة إسماعيلية حكمت هناك سنين عدة حتى قضى عليها محمود الغزنوى حين فتح هذه البلاد .

وحرّض الخليفة العباسى عامله الجديد على القضاء على الشيعة وأنصارها بالسند ، ولم يكن يدرى ميل هشام بدوره خفية إليهم . ولكن حدث لسوء حظ العلويين أن خرج السفيّح أخو هاشم إلى الحدود فصادف عبدالله ورهطه ، فقتل العلوى وفريقا من أتباعه ، وبعث برأسه إلى الخليفة ، فأسقط فى يد هشام ولم يسعه بدوره إلا التظاهر بتدبير هـــذا الأمر اتقاء لنقمة مولاه وعقابه .

هذا وقد سكتت المصادر التاريخية كلها عن ذكر اسم الأمير الهندوكى ، الذى كان العلوى قد لجأ إليه ، أو اسم إمارته .

واتجهت همة هشام إلى توسيع رقعة إمارته ، فغزا إقليم الكجرات واستولى على بروج ميناء بحر العرب ، وكان بها جالية إسلامية كبيرة ، كما أخضع الملتان كله ، وبلغت جنده كابل وكشمير . وكلف هذا الأمير بالأدب حتى قصده فريق من الشعراء منهم مطيع بن إياس

وتولى المهدى الخلافة ببغداد فعنى بنشر الإسلام بالسند عناية كبيرة صادفه التوفيق فيها ، إلا أن اشتداد النزاع بين القبائل العربية التى كانت قدمها جرت إلى هناك منذ بداية الفتح العربى ، أخذ يضعف من سلطان الحكومة السندية ويحد من قوتها ونفوذها . فكان من جراء انشغال الولاة بالقضاء على فتن هذه القبائل فى الداخل أن طفق الأمراء الهنادكة بظاهرها يغتنمون كل ما يلوح لهم من الفرص لاقتطاع أراض من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى أمارتهم . حتى جاء السند بعد وفاة المهدى العباسى ، الليث بن ظريف فسلك طريق الشدة معهم والعنف فأمكن له أن يؤمن أحوال البلاد ويقضى على ثورات هذه القبائل العربية ولكن إلى حين . ذلك أن داود بن يزيد بن حاتم المهلبى حين آلت إليه إمارة السند عام ١٨٤ هـ مال إلى التخلف ببغداد فأوفد أخاه المغيرة نائبا له هناك — وهى سنة ابتدعها كبار الحكام

وراجت على الخصوص إبان ضعف الدولة ، أعنى بقاء الأمراء ببغداد تربصا بالحظوة والنفوذ وزيادة فى الترف وإرسال نواب عنهم إلى ما يتقلدونه من الامارات — فإذا بهذه القبائل تطالبه بتقسيم البلاد إلى ولايات ثلاثة فقسم لقريش وثان لربيعة وثالث لقيس . فلم يتمكن المغيرة من كبح جماح هذه القبائل إلا بعد أن استعان عليهم بعساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد فحاصروا المنصورة عاصمة السند ، عشرين يوما استسلم لهم الثائرون من بعدها .

ولبث داود بن يزيد يحكم السند عشرين عاما مرض فى أثنائها الرشيد ، فأوفد لعلاجه بعض أطباء الهنود . وكان شفاء الخليفة العباسى على أيديهم من أسباب مضاعفة العناية بعلوم الهند وطبها . وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ثبت لأسماء الأطباء والصيادلة الهنود الذين نزحوا إلى بغداد فأفاد الناس منهم .

وخلف بشر أباه داود فسار سيرته فى الحزم . حتى إذا ولى السند موسى بن يحيى بن خالد البرمكى عمد إلى محاسنة زعماء العرب هناك ومحاولة فض ما بينهم من المنازعات بالمودة ، ثم صرف همته من بعد ذلك إلى تعمير البلاد فشق كثيرا من الطرق وأقام دور الشفاء . وخلفه ابنه عمران فبنى مدينة البيضاء بإقليم قيقان ، بعد

أن انتزعه من الزط، كما قضى على ثورات الميد وقتل بضعة آلاف منهم. وانتهز النزاريون فرصة انشغال عمران بإطفاء فتن الميد والزط، فثاروا عليه واتهموه بتحيزه لليمنيين وتفضيله لهم عليهم. وانتهت منازعتهم معه إلى مقتله على أيدى زعيمهم عمر بن عبد العزيز الهبارى[1]

وهكذا استولى زعيم القرشيين على المنصورة ليكتب منها عام ٢٤٠ هـ الى المتوكل العباسى معلنا ولاءه له وإخلاصه فيثبته بذلك على إمارة السند.

والملحوظ أن ولاء أغلب حكام الولايات الإسلامية للخليفة، لاسيما ما كان منها على مبعدة من بغداد، غدا، قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى، مجرد مسألة شكلية اسمية.

وبلغ من إهمال الخلافة لشأن السند أن رأينا الخليفة الضعيف المعتمد العباسى يقطعها للصفاريين هى وبلخ وطخارستان وسيستان وكرمان علّه بذلك يخفف من شدة ضغطهم على العراق.

وولى أمر السند أمراء ضعاف من أبناء عمر بن عبد العزيز الهبارى لم يحالفهم التوفيق فى تأمين الأحوال ببلادهم. وما عتموا

---

١ ـ كان جد هذا الامير قد قدم السند مع الحكم بن عوانة الكلبي. البلاذرى ص ٤٤٦.

أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قريش ، حتى اقتصر سلطانهم على ولاية المنصورة التى كانت أرضها تنحصر بين الرور وشاطىء البحر. فى حين حكم إقليم الملتان أسرة قرشية أخرى من بنى منبه،[1] بقيت فيه حتى انتزعه الإسماعيليون الشيعة منها .

ذلك انه كان قد قدم السند فى بداية القرن الرابع الهجرى دُعاة للفاطميين وعلى رأسهم من يدعى الهيثم رسول عبد الله المهدى . ثم توالى دعاة الاسماعيلية على هذه البلاد حتى جاءها قائد قدير من قوادهم وداعية من خير دعاتهم يدعى جلم بن شيبان. فما غدا حين قدم الملتان ، فالتف حوله القرامطة ، الذين كانوا قد نفذوا إليها قادمين من البحرين وبلاد فارس ؛ — أن استغل ما كان فيها من اضطرابات حتى تمكن آخر الأمر من الاستيلاء على مقاليد الحكم فيها . فكانت حكومته هذه أول دولة إسماعيلية عرفتها شبه القارة الهندية كلها .

وسلك جلم سبيل العنف مع سكان البلاد ، مسلمين وهنادكة

---

١ — المسعودى ، مروج الذهب طبع القاهرة ١٣٤٦ هـ اول ص ٩٥ « أدرك المسعودى عام ٣٠٣ هـ بالمنصورة عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهبارى أبو المنذر القرشى ، وأدرك بالملتان أبا الاباب المنبه بن الأسد القرشى وهو من ولد أسامة بن لؤى بن غالب »

على السواء ، فأغلق المسجد الجامع الذى كان قد أقامه محمد بن القاسم كما هدم المعبد الهندوكى بها وكان المسلمون يبقون عليه ضمانا لتجنب مهاجمة الهنادكة المدينة .

وتولى حكومة الإسماعيلية ، من بعد جلم ، الشيخ حُمَيْد وهو الذى وجده سبكتكين الغزنوى بالملتان فهزمه ليخلفه أبو الفتح داود القرمطى حفيده . وما زال محمود الغزنوى يطارد داود وقومه حتى قضى على حكومتهم .

وقد انتهى أمر بلاد السند كلها إلى استيلاء الغزنويين عليها حين أقبلوا على الهندستان فاتحين أواخر القرن الرابع الهجرى ، فكانت فتوحاتهم بداية حقبة جديدة فى تاريخ شبه القارة الهندية كلها . أصحابها من المجاهدين المسلمين ولكن ليسوا من العرب .

## نتائج الفتح العربى للسند .

لقد وفد على السند أفخاذ من القبائل العربية ، التى كان قوام جيش الفتوح فى الغالب منهم ، فاستوطنوا هذه البلاد ثم أصهروا إلى أهلها بعد قليل على مافعل أفخاذ أخرى لهم بأغلب البلاد التى فتحوها . كذلك كانت لهم مشاركة ناجحة فى نشر تعاليم الدعوة الإسلامية ، والعربية ، لغة وكتابة ، بين السنديين بفضل ممن

صـــاحب حكامهم وأمراءهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث . فلم يمض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طفقت أفواج من اهله تترى تشارك فى بناء الثقافة الإسلامية العربية وتبرز فى ميادينها . فكان منهم علماء فى الحديث واللغة والأدب مثل أبى معشر نجيح السندى المحدث صاحب المغازى ، وابن الأعرابى اللغوى ، أستاذ ثعلب وابن السكيت ، وأبى عطاء السندى المخضرم الشاعر[1] ثم أبو على السندى وأبو اليزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتصوف.

وغنى عن البيان أن العرب كانوا فى أول عهدهم بالفتوح يكلون إلى أبناء البلاد المفتوحة أعمال الدواوين ، لقلة دراية بتهم بها إذ ذاك ، تحت إشرافهم ، وينفردون وحدهم فى الغالب بالقضاء وشئون الجزية والخراج على مقتضيات الكتاب والسُنة .

ولئن قيل إن الفتح العربى للسند كان من الناحية السياسية حدثا لا اهمية له فى التاريخ الإسلامى إلا أنه صير هذه البلاد جزءا من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليه أحكامها، لئن قيل كذلك إن العرب لم يكن لهم من آثار بارزة هناك إلا نشر تعاليم دينهم بهذه البلاد وتسرب إلسانهم إليها، فقد كان لهم الفضل، أكبر الفضل، فى

---

١ ـ ضحى الاسلام ص ٢٤٢ ـ ٤٤٢

إعادة الاتصال الثقافى بين شبه القارة الهندية وبلاد الشرقين الأوسط والأدنى .

وقد جى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسبا عظيما للثقافة الإسلامية . ذلك أنهم حين قدموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها ، وجـــدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة مابهرهم . فالفلسفة الهندية، وفروعهامن الفـلك والطب والرياضيات،كانت قد بلغت من الرقى والتقدم شأوا بعيدا وغدت تزخر بنظرياتها وقوانينها ومبادئها ، وكذلك الفنـــون على اختلاف ضروبها ، والدراسات الدينية لاسيما ماكان منها خاصا بعلم الكلام والتصوف .

ويقول Havell « إن المسلمين مدينون للهنادكة أولا[1] . لا لليونان ، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة فى فجر حياتهم سواء فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو الفلك أو الطب ، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم واشتد شغفهم بها » . ويؤيد رأيه هذا أن أول كتب فى الفلك والرياضيات حُملت الى بلاط الخلافة ، وكان ذلك أيام المنصور العباسى ، هى كتاب براهما سِدْهانتا لمؤلفه العالم برهمكيت ، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب السِّند هند

١ — Havell. pp 254-56

وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه الى عام ٤٢٥ ق . م ، وكتاب كهند كهاديكا المعروف باسم ارْ كنْد ، ثم كتاب آريه بهُت المعروف باسم أرجبَهَذْ أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود . ومن أول هذه الكتب يُظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسابية والنظام العشرى . وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام[1] .

وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد فى منتصف القرن الثانى الهجرى بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال إبراهيم ابن حبيب الفزارى وأبى الحسن الأهوازى ويعقوب بن طارق .

عرف العرب هـــذا كله عند الهنادكة قبل أن تصل أيديهم إلى كتاب المجسطى ، لبطليموس ، وإلى علوم الرياضة البحتة التى برّ فى أغلبها اليونان الهنادكة وغيرهم[2] .

---

١ — الهند وجيرانها ص ٢٣٦ ، ٣٧ .

٢ — تاريخ الفلسفة الاسلامية لدى بور ترجمة الدكتور أبو ريدة القاهرة ١٩٣٨ ص ١٣ ، ١٤

ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سدنة بوذيين فى الغالب [١] فعنوا بأمر الهند فى دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكماءها على حد قول صاحب الفهرست . فجلبوا منكة الطبيب الهندى الذى نجح فى علاج الرشيد فنال الحظوة عنده وبقى يشرف على نقل الكتب من السنسكريتية إلى العربية بدار الخلافة هو وابن دهن الذى عُهد اليه بادارة دار الشفاء . ثم ابن بهلة الذى تولى علاج ابراهيم بن صالح عم الرشيد فشفى بعد أن كان ابن بختيشوع، طبيب الخليفة، قد جزم باستحالة برئه .

هذا إلى جانب عنايتهم وتشجيعهم لدراسة علوم الهند الأخرى وعقائدها وأحوالها ، تلك الدراسة التى وصلت إلى أكمل صورها فيما بعد عند أبى الريحان البيرونى فيما تركه من كتب ورسائل عن هذه البلاد .

ويشيد الجاحظ، علامة العرب، بذكر الهند فى بيانه فيقول: « إنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم »

---

١ ـ بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند ـ للدكتور السيد محمد يوسف الهندى ، ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٢ ج ١ سنة ١٩٥٠ ص ١٠٤ ومابعدها.

# الغزنويون وخلفاؤهم

لم يكن فتح العرب للسند، أواخر القرن الأول الهجرى، إلا احتلالاً لولاية واحدة فى أقصى الغرب، لاهى بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة.

وبدأ الغزو الاسلامى لهذه البلاد فى اوسع مداه حين شرع الغزنويون الأتراك، أواخر القرن الرابع الهجرى، يطرقون أبواب شبه القارة الهندية ويتوغلون فيها، بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت غزنة وسيستان ولمغان وخراسان واغلب بلاد ما وراء النهر.

ولقد وقعت فى الفترة ما بين الفتحين العربى والتركى للهند أحداث خطيرة متنوعة فى العالم الإسلامى. فقد زالت الدولة الأموية التى عرفت بتعصبها للعنصر العربى، وكان مما عجل بسقوطها اشتداد النزاع القبلى بين العرب أنفسهم من جهة، واستعلاء هؤلاء العرب على غيرهم من المسلمين من جهة أخرى، الأمر الذى نتج عنه ظهور الشعوبية واشتداد ساعدها. وخلفهم العباسيون فنقلوا

العاصمة من دمشق إلى الكوفة ثم بغداد، وأخذوا ينفضون أيديهم من العناصر العربية فى وظائف الدولة ومناصبها ويستعيضون عنهم بالعناصر الفارسية فى المناصب المدنية على الأخص، وبالأتراك فى الجيش والحرس الخاص.

وهكذا أخذ المغلوبون يستردون سالف سلطانهم بالتدريج، بل ويفرضونه على الغالبين، حتى دب الانحلال فى أوصال الدولة نفسها وطفق فريق من القواد يستقلون بأجزاء منها مع ولائهم الأسمى لخليفة بغداد، فظهرت الدولة الطاهرية ثم الصفارية والسامانية وغيرها.

واشتد نفوذ العنصر التركى بالبلاط العباسى، فما غدا أن طغى على ما كان للعناصر الفارسية من سلطان. فصار الخليفة العباسى آلة فى أيدى رجال بلاطه من الترك، يرضون عن أمير فيولونه الخلافة ثم يغضبون عليه وينقمون فيسملون عينيه ويعزلونه. ولم يقصروا نفوذهم بطبيعة الحال على دار الخلافة فحسب، فقد صار كثير منهم حكاما فى ولايات الخلافة فيما بين مصر وبلادما وراء النهر.

وعظم شأن الأتراك فى شرقى الإمبراطورية الإسلامية فورث الغزنويون والقرخانيون[1] دولة بنى سامان الفارسية.

---

١ ــ وهم الايلكخانيون قوم بغرا خان قشغر الذى دخل وقومه الإسلام فى

ودفع بالأولين طموحهم إلى التطلع للفتح والغزو فولوا وجوههم قبل شبه القارة الهندية .

وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية غزو المسلمين الحقيق لشبه القارة الهندية ، ذلك الغزو الذى سرعان ما انتهى بالفاتحين إلى اتخاذهم من هذه البلاد مقاما دائما لهم .

ومؤسس الدولة الغزنوية التى اقتحم أصحابها الهند هو سبكتكين، وكان غلاما لألبتكين صاحب غزنة ، جلب من تركستان إلى بخارى فنيسابور(١) ، ثم خلف سيده عليها عام ٣٦٧هـ / ٩٦٦ م

واتصف سبكتكين هذا بالطموح وقوة العزيمة ، فأفلح فى توحيد صفوف الأتراك والأفغان فى إمارته وسيرهم لفتح لمغان

---

= القرن الرابع الهجرى وتسمى باسم هرون بن سليمان. مقال للاستاذ حمزة طاهر عن السلاجقة مجلة الثقافة عدد ٩٦٩/١٩٤٧

Barthold, W. Histoire des Turcs d'Asie Centrale. Paris 1943. p 80

١ ـ يذكر بعض المؤرخين ان سبكتكين هو من أحفاد يزدكرد شهريار آخر ملوك فارس قبل الاسلام ، وأن أسرته كانت بالتركستان فى عهد عثمان بن عفان لاجئة فاختلطت بأهلها ، فلم يمض جيلان حتى تتركت . وهو قول مرفوض ، ذلك أن أغلب الموالى الذين بلغوا رتبة الامارة قد ادعوا بدورهم لأنفسهم مثل هذا الادعاء طلبا لعراقة النسب وفى تاريخ البيهقى ـ نقله الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت ـ ص ٢١٦ ـ ٢١٨ بيان شامل عن أصله

وسيستان وخراسان ثم استدار بهم من بعد ذلك واندفع عبر مسالك الهندكوش الوعرة يبغى الجهاد بغزو بلاد الهنادكة .

وحين التقت جنده بجيش چيپال ، راجا بها تنده ، الذى كان يحكم مملكة واسعة تمتد من سر هند إلى لمغان ، أى من الكنج إلى الأفغان ، ومن كشمير إلى الملتان ، روّع الهنادكة ، فأرسل أميرهم من فوره ، بظاهر لمغان ، يعرض الصلح على جزية كبيرة مع اعترافه بسيادة أمير الأمراء الغزنوى . لكن الأمير محمود مازال بأبيه حتى صرفه عن قبول عرض الهندوكى فلا يشترى به مثوبة الجهاد فى سبيل الحق .

ولم ييأس چيپال حين بلغه هذا النبأ ، فكتب إلى سكتكين من جديدة يهدده بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذا ما ألمت بهم نازلة ، فهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بايديهم ثم يعرضون انفسهم على سيوفهم ورماحهم فيزهقون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا خرائب ورمما .

هنالك قبل صاحب غزنة الهدنة على جزية مقدارها ألف ألف درهم ، وخمسون فيلا من فيول الحرب ، وقدر من الحصون والبلدان .

ونكث الأمير الهندوكى عهده ، حين زج فى السجن بفريق من رجال غزنة الذين كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ ما صالح عليه سيدهم ، فجعلهم عنده عوضا عن رهائنه لدى سبكتكين. وأثارت أخبار الخيانة والغدر ثائرة الأمير الغزنوى فانطلق من فوره إلى أرض عدوه .

وبرغم التفاف أصحاب آجمير ودهلى وكالنجر وقنوج حول چيپال ، وما تهيأ لهم جميعاً من جند كثيف نيف على مائة ألف من المقاتلة ، فقد أنزل سبكتكين بعصبة الأمراء الراچپوتيين هذه هزيمة حاسمة ، اضطروا من بعدها إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيول وعشرة آلاف من رءوس الخيل سيقت كلها إلى بشاور[1] .

هذا وقد أدار صاحب غزنة دفة القتال فى مهارة فائقة . ذلك إذ عبأ جنده القليل فى وحدات قوام كل منها خمسمائة من المقاتلين طفقوا يتبادلون مراكزهم فى الجبهة حتى أرهقوا عدوهم فأجهزوا عليه .

وكان من أثر انتصارات سبكتكين الباهرة هذه أن رجعت

---

١ ــ تاريخ العتبى على هامش الفتح الوهبى القاهرة ١٢٨٦ هـ أول ص ٨١ ــ ٨٦

قبائل الأفغان والخلج عن عصيانها ولزمت طاعته والولاء له .

ولئن لم تكن حروب سبكتكين الهندية هـــذه إلا مجرد غزوات ، فهى التى مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما بعد على كل حال .

## محمود الغزنوى

ومات سبكتكين فى شعبان من عام ٣٨٧ هـ/٩٩٧م بعد أن حكم بلاده عشرين عاما ، تاركا من ورائه مملكة واسعة الرقعة مرهوبة الجانب .

ولأمر ما ، كان الأمير الغزنوى قد عهد قبل وفاته إلى ابنه الضعيف إسماعيل برغم ماعُرف عنه من اعتداده بأبنه الأكبر ، يمين الدولة محمود ، اعتدادا شديدا حتى كان يروى للناس أنه تمثل له فى الرؤيا قبل مولده شجرة نبتت فجأة فى بستان داره فأخذت أغصانها تمتد فى كل اتجاه حتى أظلت العالم أجمع .

على أن محمودا استطاع بعد أشهر قلائل من وفاة أبيه أن ينزع الملك من أخيه على كل حال وينفرد بالأمر .

وما لبث محمود أن ورث ملك السامانيين كله فى خراسان وبلاد ما وراء النهر . كما قضى على سلطان البويهيين فى الرى وهزم

السلاجقة والقره خانيين وتوغل فى بلاد فارس وملك إقليم قزوين . هـــذا كما فتح بلاد الغور فى الهندكوش ، فيما بين غزنه وهراة ، ونشر الاسلام بين أهلها على نطاق واسع أول مرة .

ولقد راح محمود يعلن،من بادىء الأمر،أنه قد أخذ على عاتقه الجهاد بسيفه فى سبيل نشر تعاليم الإسلام الصحيحه والقضاء على الفرق المضللة من رافضة وقرامطة وغيرهم . وكان يكتب فى أثر كل نصر يحرزه إلى الخليفة العباسى ببغداد يزف إليه النبأ فيصل إليه منه التشجيع والتعضيد والدعاء .

وهكذا امتد سلطان محمود إلى آفاق بعيدة ، وذاع صيته فى أنحاء بلاد المسلمين . وما لبث هذا الأمير المحارب أن ولى وجهه شطر الهندستان التى رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر فغزاها سبع عشرة مرة فى مدى سبعة وعشرين عاما ، فيما بين عامى ٣٩١ هـ/١٠٠٠ م و ٤١٧ هـ/١٠٢٦م ، حتى خضع له شمال شبه القارة الهنديه من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن .

هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شارك أباه فى غزواته لها من قبل مما يسر له الاطلاع على أحوالها والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها .

ولم تعد وأولى غزوات محمود الهندية تملكه بعض الحصون عند الحدود فولاها بعض رجاله . ثم رجع إلى الهند من جديد فى شوال من العام التالى ٣٩١ هـ / ٠٠٠ م على راس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو أبيه السابق ، چيپال راجا بها تنده ، عند بشاور ، وكان الأخير فى اثنى عشر ألفا من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيول .

واستعر القتال بين الفريقين فى المحرم من العام التالى حتى أبيد من الهنادكة خمسة عشر ألفا وسقط أميرهم نفسه وفريق من حلفائه فى أسر السلطان الغزنوى .

ورضى محمود آخر الأمر أن يفك إسار خصومه على أموال طائلة وعدد كبير من فيلة الحرب ، ورهائن كان من بينها ابن چيپال صاحب لاهور وواحد من حفدائه .

ولم يقنع الأمير الهندوكى على احتمال ما لحقه من عار الانهزام ، فما لبث حين آب إلى دياره أن عرض نفسه على النار ، وفق رسوم قومه ، تكفيرا له عما ناله من هزائم متكررة على أيدى غزاة بلاده .

واتجه السلطان الغزنوى فى غزوته الثالثة عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ — ١٠٠٥ م إلى بهيرة ، على جهلم أحد روافد السند ، فضمها إلى ملكه ، ثم تركها إلى الملتان مقام أبى الفتح القرمطى

الذى مالبث على أثر علمه بهزيمة حليفه أمير لاهور ، أن سعى إلى محمود يعرض عليه توبته مع طاعته ، على جزية سنوية مقدارها عشرون ألف درهم من الذهب .

وبلغ محمودا وهو بالهند أخبار مهاجمة أمير قشغر لأملاكه ، فأسرع بالعودة إلى بلاده بعد أن عهد بأملاكه هناك الى حفيد لچيپال كان قد انضم إليه وأسلم على يديه. وهو الذى تعرفه الكتب العربية باسم نواسه شاه حفيد السنسكريتى .

على أن صاحب غزنة لم يكد يستقر فى عاصمته بعض الوقت، بعد أن أمن حدوده ، حتى بلغه خروج نائبه بالهند على سلطانه فسارع إليه من فوره ، فلم يرجع عنه حتى افتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم.

وتحالف دواد صاحب الملتان مع آنندپالا صاحب لاهور وابن چيپال سالف الذكر على خلع طاعة محمود من جديد ، واستنهض الأخير لشد أزره همم الامراء الراچپوتيين ، أشجع من عرفتهم الهند ، وفيهم راجاوات أوچين وكواليار وكالنجر وقنوج ودهلى وآجمير . ولم يكن أمراء الهنادكة هؤلاء ليتقاعسوا بطبيعة الحال عن نجدة واحد منهم ، وقد تكشف لهم مدى مايتهددهم من أخطار على أيدى السلطان الغزنوى .

وزحفت جيوش الهند مجتمعة للقاء جند المسلمين بارض

البنجاب ومن ورائها الشعب الهندوكى يتفانى أفراده فى مدها بالزاد والعتاد فى حماس بالغ دفع بالنساء إلى تقديم حليهن فى سبيل الدفاع عن الوطن . وبرغم كثرة من هلك من جند المسلمين ، فقد واصل محمود القتال برجاله الستة الآلاف فى عنف بالغ وجلد زائد. حتى اذا مالوى آنجپالا زمام فيله طلبا للهرب ، أفزع الرعب صفوف الهنادكة الكثيفة فراحت الجند بدورها تلتمس الفرار . وهكذا قضى صاحب غزنة آخر الأمر القضاء التام على جيوش الهند المتحدة واستولى على ما كان معها من عتاد طائل وكنوز . انطلق من بعد ذلك قائداه عبد الله وأرسلان يطاردان فلول العدو المنهزم يومين كاملين .

واندفع محمود إثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن نكركُت ، الذى يعرف أيضا باسم بهيمنكر ، وكان يقوم على تل فى منطقة السهول الفنية بسفوح الهملايا ، وبه كانت تكدس الأموال الكثيرة مما كان يتقرب به الهنادكة إلى آلهتهم . وما ليث حراس هذا الحصن ، وكانوا كهنة مسالمين ينكرون الحرب وإراقة الدماء، أن استسلموا للغزاة دون قتال .وقد وصف العتبى مؤرخ السلطان محمود، ما كانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال: «نقل

منها ( أى محمود ) ما أقلته ظهور رحاله واستحمل سائرها أعيان رجاله [1] » .

هذا والواقع أن الهند كانت ومازالت إلى قرون قليلة تزخر دور أعيانها وحصون أمرائها بثروات وكنوز طائلة مما لاتكاد الأذن تصدقه . وقد رجع محمود من إحدى غزواته ذات مرة ومعه أربعة آلاف بعير تكاد تنوء بأحمالها من الأموال والغنائم . بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها اكتفاءا بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر . ومن المعروف المشهور أن أدوات المعابد الهندية وأكثر الآنية التى كان يزخر بها دور الأغنياء ، لم تكن فى الغالب إلا من الذهب الخالص ، وكذلك السكة المتداولة بين الناس .

ولئن كانت فكرة الجهاد التى تسلطت على محمود ورجاله وأشربت بها نفوسهم ، هى التى دفعت بهم إلى توالى غزوهم للهند ، هذا بالإضافة إلى ما كان لكنوز هذه البلاد وثرائها الطائل من إغراء ، فقد كان من العوامل البارزة التى ساعدت على انتصارهم كذلك ما كان يغلب على الأمراء الهنادكة من تحلل اجتماعى جعلهم ابدا يقدمون مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كل شىء

---

١ — العتبى ثان ص ٩٩

فلا يبغون عنها حولا ، ولو حتى بقدر ضئيل، فى سبيل الهند أمهم الكبرى . وهكذا كانت الثقة والتماسك والتعاون لاوجود لها بينهم ، فلم تغن بذلك كثرتهم البالغة عنهم شيئا أمام الغزاة الذين كانوا على قلة عددهم مجتمعين على إخلاص تام لهدفهم فى تعاون ونظام وثيق محكم .

وضاق محمود آخر الأمر ذرعا بمؤامرات داود القرمطى ، صاحب الملتان ، فخرج إليه من جديد عام ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م بعد أن قضى على فتن بلاد الغور ، فما زال به حتى أوقعه فى أسره فحبسه فى حصن جوراك ، فلم يرجع عن الهند حتى قضى على دولته قضاء تاما وخرب المنصورة قاعدته .

هذا كما طارد جند غزنة راجا بهيمپال ، حفيد چيپال ، حتى كشمير . وإلى محمود يُرد الفضل فى نشر الإسلام بهذا الإقليم الجبلى الواسع .

كذلك تمكن السلطان الغزنوى من انتزاع حصن ثنيسر من جموع الهنادكة الحربية التى استماتت فى الدفاع عنه ، فحطم ما كان به من اصنام واستولى على ما وجده به من أموال ونفائس كثيرة .

وهكذا دان للغزاة إقليم البنجاب كله وماحوله ، فأصبح الطريق إلى سهول الهند نفسها ممهدا أمامهم . وهاهم أولاء يتضاعف عددهم

يوما بعد يوم بفضل ما كان يفد إليهم من محاربي خراسان والتركستان وبلاد ما وراء النهر الذين استهوتهم انتصارات محمود الكثيرة وغنائمه التي لا تدخل تحت حصر فسار بهم وجهته قنوج ، درّة ولايات الهند الشمالية واقدمها . فما إن عبرت جند المسلمين چمنه حتى برز اليهم هار دانا ، راجا باران التي تعرف اليوم ببُلند شهر ، ومعه عشرة آلاف من رجاله طفقوا ، على حد قول ابن الأثير ، ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

وما لبث حصن مهاون على چمنه أن سقط بدوره في ايدي الغزاة بعد أن هلك من حُماته خمسون الفا ابتلعهم النهر . ولم يطق صاحبه الأمير الهندوكي كلچند وقع الهزيمة على نفسه فقتل زوجه ونفسه حزنا على ما أصابه .

كذلك لم تُغن فتيلا مقاومة أصحاب متِرا فسقطت مدينة الهنادكة المقدسة هذه وما بها من أموال في ايدي محمود .

وأشرف محمود آخر الأمر على قنوج عام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م وكانت اخبار انتصاراته قد سبقته إليها ، فاستسلم له صاحبها راجا پياله من فورة دون ادنى مقاومة وفتح له خزائن كنوزه .

على أن الأمراء الراچپوتيين الذين ملكهم الغيظ لحنقوا على زعيمهم لاستسلامه لجند المسلمين ؛ ما لبثوا ، غداة رحيل محمود

عنهم ، ان ندبوا ڤيديا هار بن چندله راجا كلنجر يعاونه راجا كَـوالبار ، فما زالا براجا پباله حتى اوقعاه فى الأسر فقُتل صبرا

وأثار الخبر ثائرة السلطان الغزنوى فارتد من فوره إلى الهند ليعاقب هؤلاء الأمراء فعلتهم . ولقد همّ محمود حين رأى حشود الهنادكة الكثيفة أن يرجع عن قتالها ، لولا أن مجرد ظهوره فى الميدان ألقى الرعب فى قلوب أعدائه فانفرط عقدهم لساعتهم وانطلقوا هاربين لا يلوون على شىء .

وعادمحمود إلى الهند من جديد فى عام ٤١٢هـ/١٠٢١/١٠٢٢م فاخضع كوالبار لسلطانه ، كما صالح راجا چندله على أموال طائلة مع لزوم طاعته .

ولئن كان غزو قنوج يُعد من بين وقائع محمود الحربية الباهرة ، فإن فتح الكُجرات وسومنات هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعا . فقد فاق مالاقاه محمود مصاعب ومتاعب فى هذه الغزوة ، ماعاناه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد وفيهم الاسكندر المقدونى نفسه .

وقد انتهت هذه الواقعة التى تعد آخر غزوات محمود الهندية الكبرى ، الى انزال أكبر ضربة بالأمراء الراچپوتيين ، فضاع من بعدها كل أمل لهم فى استرداد سابق هيبتهم بالهند . وما لبث

خلفاء محمود آخر الأمر أن اضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التى تعرف البـــوم باسمهم حيث أفلح فريق منهم فى الاحتفاظ باستقلاله هناك إلى حين .

ولقد اقتحم محمود فى طريقه إلى الكُجرات عام ٤١٦ — ٤١٧ هـ / ١٠٢٥ — ٢٦ م ، مفازة جرداء قاحلة مترامية الاطراف واسعة المسالك هى صحراء الثار أكبر صحراوات الهند ، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله وشدة بأسهم مثار الدهشة والعجب .

واستولى محمود ، وهو فى طريقه إلى هدفه ، على آجمير ونهرواله ، ثم ظهر آخر الأمر أمام سومنات فوجد الأمراء الراجپوتيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكة ، الاكبر بها ، وعليهم بهيم ديو صاحب الكَجرات ومعه راجا نهرواله وامراء بهاتى . والتحم الفريقان فى قتال عنيف انتهى إلى مذبحة دامية سقط فيها خمسون ألفا من الهنادكة مرّ الغزاة على أشلائهم إلى داخل الحصون .

هذا ولمعبد سومنات قداسة عظمى عند الهنادكة ، حتى إنهم بادروا من فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة ، أى بعد مضى أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له .

ويصف المؤرخون مصلى الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا

ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر ، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطة بهيكله ، وذا صنم ضخم قائم فى وسطـــه وقد رصع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة .

ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عنده ، فهو الذى ينشئها فى الأبدان كيف يشاء ، وأن المدّ والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها لصنمهم الأكبر هناك . هذا وقد كان الناس يحجون إليه فى جموع زاخرة لا سيما عند خوف القمر[1]

وكان فيه من السدنة الفان من البراهمة ، ومن الراقصات المنشدات خمسمائة. وكان على هؤلاء جميعا أن يقوموا عند الدُجى ، على جلجلة سلسله غليظة من الذهب ، فيقضوا مناسكهم لمعبودهم الأكبر .

ومن البديهى أن محموداً لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء الثار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكى من أموال. فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى طُرا ، كما كان يُتخذ فى الوقت نفسه مثابة للأموال التى كان يُنفق منها على الأعمال الحربية .

---

١ — ابن الاثير تاسع ص ١٤٢ : ١٤٣ حوادث سنة ٤١٦ ، Havell P. 288

ولم يغفر محمود لراجا نهرواله وأمراء بهاتى معـــاونتهم لراجاكوالیار فى الدفاع عن سومنات فهاجم بلادهم وهـــو فى طريقه إلى عاصمته عائدا من سومنات واستولى عليها .

وكان آخر غزوات صاحب غزنة الهندية حملة نهرية لتأديب قبائل الزط عند الحاجز الملحى بالپنجاب ، وكانت هذه القبائل قد اشتد نشاطها بعد انفراط عقد إمارة لاهور الهندية فاخذت تعيث فى الأرض فسادا حتى هاجمت أطراف جيوش غزنة مرات متكررة إبان زحفها بأرض الهند .

هذا ولوكانت غاية محمود من غزواته الهندية عموماهى مجرد جمع الأموال فحسب ، كما يقول بذلك بعض المؤرخين ، إذن لقبل ماعرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة ، ولما ردّ عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان .

وفى هذا يتحدث عنه المؤرخ الهندوكى براساد فيقول [١] « إن محمودا ليُعَدّ فى نظر المسلمين حتى اليوم غازيا ومجاهـــدا كبيرا أخذا على نفسه القضاء على الشرك فى مهاد الوثنية . وهو فى نفس الوقت عند الهنادكة طاغية مخرب حطم مقدساتهم ودمّر

---

١ — Prasad, Medieval India. 71,77

معابدهم وآذى شعورهم الدينى فى كثير . ولكن المؤرخ المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه ، وسماته واعتباراته ، لا يسعه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من اخيرة القادة والزعماء وحاكما حازما وجنديا عبقريا من الطراز الاول ، اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم فهـــو جدير بأن يُعد من بين أعاظم الملوك طرا(١) .

والحق أن محمود الغزنوى كان من أعظم سلاطين المسلمين ، وقد وسع ملكه الأول إلى سلطنة مترامية الأطراف امتدت من بهار فى شرق الهند إلى فارس . وكان مما ساعد على انطلاق عبقريته الحربية اطمئنانه إلى تأمين مؤخرته حين أقبل على الهند غازيا ، فضلا عن شيوع الخلاف بين امراء الهنادكة انفسهم . وقـــد تيسر لمحمود ، إلى جانب ذلك كله ، عون رجال أكفاء تمكنت عقيدة الجهاد من أنفسهم فتفانوا فى خدمته ، وإن خلوا ، مع الأسف من الخبرة الكافية فى الإدارة والحكومة .

وقد شغف محمود بالهندستان شغفا زائدا وأعجبه جو الكجرات

---

١ ــ كذلك يشيد المؤرخ لين بول بمحمود فيقول «إن ذلك السلطان الذى اقام تلك المنشأت الفخمة بغزنة وأقام دور العلم ودعى العلماء حتى كان يجود عليهم بما لا يقل عما يعادل مائتى الفا من الجنيهات كل عام ، فضلا عما كان يجرى على طلبة العلم من الأرزاق ، لا يمكن أن يسلك فى زمرة الطغاة العابرة» Med. India pp 81, 2.

خاصة فمال إلى الإقامة الدائمة هناك ، على أن ينيب ابنه عنه بغزنة. لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومراعى بلادهم الخضراء وبساتينها ، كما ضايقهم حر الهند وعجزوا عن احتماله .

هذا وقد عُرف محمود ، إلى جانب شهرته الحربية ، برعايته للعلوم والآداب وعظيم بذله لاربابها والمشتغلين بها ، حتى قصدوا بلاطه من مختلف الاقاليم الإسلامية. وكان من بين علماء محمود، البيرونى العلامة الرياضى والفيلسوف الفلكى العالم بلغات الهند وثقافاتها وحضارتها ، والذى تُعد كتبه أعظم ماعرف المسلمون عن حياة الهنادكة الاجتماعية والسياسية والعقلية على السواء ، ثم العتبى الوزير صاحب تاريخ اليمينى والبيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين ، والفارابى الموسيقى الفليسوف.[1]

اما الشعراء فكان على رأسهم العنصرى الفارسى الذى بايعه بالزعامة أربعمائة منهم ببلاط محمود ، ثم الفرخى والعسجدى . كما نزل فى بلاطه ،وعاش فى كنفه فترة من الزمن، الفردوسى صاحب الشاهنامة وأبعد شعراء الفرس صيتا وأخلدهم ذكرا . وإن كان محمود قد خيب رجاء الشاعر فيه فَضَنّ ، من أثر الوشاة، بما كان

---

١ ــ تاريخ فرشته للامحمد قاسم هندوشاه ــ طبع لكنو ١٣٢٣ هـ جلد اول ص ٣٩.

يأمله عنده[1].

ومن أسف أن البناء العظيم الذى أقامه محمود سرعان ما أخذ ينهار بين ايدى خلفائه الذين أبطرهم ما تركه سلطانهم بخزائن ملكه من ثروات طائلة . فانصرفوا ورجالهم فى الغالب عن إتمام مابدأه عاهلهم العظيم، أو المحافظة عليه ، إلى الجدل و حياة الترف .

## خلفاء محمود

توفى السلطان محمود الغزنوى عام ٤٢١ هـ / ١٠٣١م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الاكبر مسعود .

وإذبلغ مسعود الخبر كتب من فوره إلى أخيـــه السلطان الجديد يطلب إليه أن يقره على البلاد التى كان قد تولى أمر فتحها، وهى طبرستان وأصبهان وماحولها ، على أن يقدمه على نفسه فى الخطبة . فلم يكن من محمد إلا أن أغلظ فى الرد على اخيه وقد عزم على الخروج لقتاله برغم نصح خلصائه له بالجنوح إلى المهادنة

---

١ ــ قيل إن محمودا كان قد ندم على ضنه بمكافأة الفردوسى حين قدم له الشاهنامه، فأمر بارسال هداياه اليه. فدخلت العير باحمالها من باب رودبار فى طبران حيث كان يقيم الشاعر، فى الوقت الذي كانت جنازة الفردوسى تخرج فيه من باب رزان بنفسها لمدينة. ( جهار مقاله لنظامى السمرقندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ــ القاهرة ١٩٤٩ ص ٥٩ )

والسلم[1].

ومالبث جند غزنة أن غدرت بأميرها الجديد فى الطريق فألقت به فى الحبس وهو فى سُكره وسملت عينيه، ثم كتب قوادهم الى مسعود يستدعونه اليهم، وكانوا يؤثرونه على أخيه لشجاعته وطموحـــه.

هذا والواقع أن السلطان محمودا كان قد عهد لابنه الأكبر أول الأمر عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م ثم ولاه هراة وبعث به لمحاربة الغوريين. وبرغم حسن بلاء مسعود، فإن أباه مالبث بفعل الوشاة أن غضب عليه وعزله من ولاية العهد، ثم طابت نفسه من جديد فعفا عن ولده ورده إلى هراة دون ولاية العهد.

وكانت صفات مسعود العالية كفيلة بأن تسير به فى طريق المجد الذى سلكه أبوه من قبل لولا ماكان من سرعة استجابته، فى الغالب، لدسائس الدساسين فى بلاطه وإعراضه مرات كثيرة عن الاستماع لنصح وزيريه المجربين، خواجه أبى القاسم بن الحسن الميمندى وخواجة احمد عبدالصمد، فأدى ذلك كله آخر الأمر إلى التعجيل بنهاية الدولة الغزنوية، المترامية الأطراف، وتقويض أركانها.

---

١ ــ تاريخ البيهقى. القاهرة ١٩٥٦ ص ٨١ وما بعدها

فلقد بعث السلطان بقائده أحمد بن ينا لتكين نائبا له على أملاكه الهندية ، فكان من جراء استيلاء هذا القائد على بنارس وماغنمه فيها من كنوز وأموال كثيرة أن دب الحقد والحسد فى نفس عبد الله قاضى شيراز الذى كان يشاركه الحكومة الهندية ، فطفق يبعث برسائله تترى إلى بلاط غزنة طافحة بالتهم لقائد مسعود بالهند . حتى أفلح منافسوا ابن ينالتكين هناك فى أن يلقوا فى روع السلطان . آخر الأمر ، أن نائبه يهم بالاستئثار بالأمر كله بالهند واستخلاصها لنفسه. [1]

والحق أن مسعودا قد اصطنع التريث طويلا هذه المرة قبل أن يقطع برأى فى شأن قائده بالهند. حتى إذ خرج من غزنة للقضاء على القلاقل التى نشبت فى ختلان وخراسان وبخارى فبلغ العراق من بعد ذلك ، وافته الأخبار باشتباك قوات ابن ينالتكين مع جند قاضى شيراز عند لاهور ، وكان الأخير قد أفلح فى تأليب سكان البنجاب على منافسه . فخشى السلطان استفحال شأن نائبه بالهندستان فسير إليه هندوكيا من رجاله، يدعى تلك كان على قدر

---

١ ـ كان الوزير الميمندى يكن للقاضى كراهية شديدة منذ أن رشح للوزارة بدله أيام محمود. البيهقى ص ٢٩٤

كبير من الشجاعة وعلو الهمة[١].

وما إن ظهر مبعوث السلطان بقواته عند لاهور حتى انتشر الفزع بين صفوف عدوه ، فانفض أغلب الجند من حول ابن ينالتكين الذى ظل يحارب فى شجاعة خارقة مع قلة ثبتت معه ، حتى نالته غيلة سهام فريق من الزط وسيوفهم طمعا فى مكافأة مالية كان قد جعلها تلك لمن يأتيه برأس غريمه.[٢]

وأيا ما كان الحال . فلو أن مسعودا لم يسىء الظن بقائده وسلك معه سبيل المودة واللين، دون الاستجابة آخر الأمر لدسائس قاضى شيراز وعصبته ، لما احتاج الى تسييره الجيوش لقتال ذلك القائد الحازم الذين كان كفيلا بتدعيم سلطان الغزنويين فى الهند والوقوف فى وجه السلاجقة الذين كانوا قد طفقوا يهددون بلاد السلطان.

واستبد بمسعود الفرح بانتصارات تلك فعقد العزم على الخروج إلى الهند ، غير ملتفت إلى تحذيرات وزيره الشيخ له من حرج الحالة عند حدوده الغربية بسبب الخطر السلجوقى[٣].

وهكذا بارح السلطان الغزنوى عاصمته مستهل عام ٤٢٩ / ١٠٣٧م

---

١ ـ تاريخ البيهقى ص ٤٣٠

٢ ـ تاريخ البيهقى ص ٤٦٠ ، ٦١

٣ ـ تاريخ البيهقى ص ٥٧٥ وما بعدها .

لتحقيق حلمه القديم بالاستيلاء على حصن هانسى الهندوكى الكبير فلم يبلغه إلا أواخر ربيع الأول . ذلك أن الداء أقعده أسبوعين بأكملهما عند جهلم احد روافد السند حتى نذر إن رُزق الشفاء أن يقلع عن تناول الشراب ويحرمه على رجاله وأهل بلاطه. وقدبرّ فعلا بعهده .

وما إن فرغ مسعود من أمر هذا الحصن ، بعد قتال عنيف ، حتى واصل زحفه إلى سنُبات عند الشمال القريب من دهلى ، فإذا بأهلها تنطلق منها إلى الغابات القريبة فرارا من وجه الغزاة الذين أصابوا فيها مغانم كثيرة.

وانتهز السلاجقة فرصة غياب صاحب غزنة بالهند ، فهاجم بهم زعيمهم طُغرل بك بلاد السلطان حتى استولوا على نيسابور وبسطوا سلطانهم على خراسان ضاربين عرض الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من مواثيق التزموا بها بعد هزيمة جنده لهم عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م (١)

وحين خرج مسعود لملاقاة هؤلاء الغزاة فى رجب من عام

١ ـ كان السلاجقة اول أمرهم جند مرتزقة عرفوا بالجرأه والكبرياء والاستهانة بمن سواهم ، حتى اضطر محمود الى سلوك سبيل العنف معهم . حتى اذا ما استعان بهم مسعود لتقوية جيشه فسلك معهم سياسية غير رشيدة، تفاقم خطرهم لينتهى امرهم بالاستيلاء على ملك الغزنويين - البيهقى (المقدمة) ص ٣٤ ، ٣٥

٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م فالتحم بهم عند دندانقان بالقرب من مرو ، ومُنى بهزيمة حاسمة تقرر على أثرها مصير الدولة الغزنوية في خارج الهند وداخلها .

ذلك أن مسعودا أصر بعد هذه الواقعة على الهجرة إلى الهند برغم الحاح وزيره أحمد عبد الصمد عليه بالبقاء في غزنة . فخرج في ركب كبير ، شمل أهل بيته وخلصائه مع كنوزه وأمواله ، وفي خاطره أن يتهيأ له بالهند جمع جيش قوي كبير يدحر به السلاجقه . فلم يكد يعبر السند فيبلغ قلعة ماريكله بين أتوك وروالبندي ، حتى وثب عليـــه غلمانه من الأتراك والهنود ، طمعا في خزائنه ، فخلعوه وزجوا به في القلعة ، ثم نادوا مكانه بأخيه محمد ، وكان ناظراه قد سُملا كما ذكرنا من قبل . وحُبس مسعود في حصن كيري فلبث به حتى قتله الأمير أحمد ابن أخيه في عام ٤٣٣ هـ .

وبموت مسعود طُويت صفحة حاكم مسلم نابه رعى العلم والعلماء والتفت التفاتا كبيرا إلى الإنشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والرباطات التي أقامها .

ولقد استطاع هذا السلطان الكبير أن يحتفظ مدة غير قصيرة برقعة ملكه التي امتدت وقتا ما من العراق حتى حدود الهند الشرقية . لكن القدر ، على حد قول مؤرخه البيهقي ، دفعه إلى

ارتكاب الخطإ الأكبر الذى قرر مصير دولته، وذلك حين أصم أذنيه عن الاستماع إلى مشورة رجاله فقرر الرحيل إلى الهند بعد واقعة دندانقان بدلا من التحصن فى غزنة ومحاولة دفع خطر السلاجقة عن حدوده[1]. ذلك أن الحوادث قد برهنت على قيام مخاوفه على غير أساس، إذ كان هم السلاجقة الأكبر فى التوسع منصرفا فى الواقع صوب فارس، دون التفات جدى كبير نحو غزنة والشرق عموما. فمراعى خراسان كانت أحب إليهم وآثر من تلال الأفغان وما وراءها، وناهيك ببلاد فارس الغنية التى كانوا قد استولوا عليها ثم طفقوا يوسعون فى فتوحاتهم حتى بلغوا شواطئ بحر الروم.

ولم يطل الأمر بمحمد على عرش غزنه، فقدم برز إليه من خراسان، مودود بن مسعود يطالب بدم أبيه. فالتقى به عند الدينور، على طريق كابل وبشاور، فهزمه، ودخل غزنة حيث انتقم لمقتل أبيه من عمه وأولاده وجميع من خانوا عهد مسعود.

وقوى انتصار مودود من عزيمة الأهلين فى الأقاليم الغزنوية التى كان السلاجقة قد دخلوها، فثاروا فى وجه المحتلين وأجلوهم عن أغلبها.

---

١ ــ البيهقى (المقدمة) ص ٣٧، ٣٨

ومالبث السلطان الجديد أن بوغت بعصيان أخيه مجدود، وكان أبوه قد ولاه البنجاب فأعلن استقلاله به ثم سار على رأس قواته نحو غزنة ولكن الأجل وافاه بلاهور بعد قليل.

وكان من جراء ثورة مجدود هـــذه أن ركن بعض أمراء الهنادكة بدورهم إلى الثورة حتى بلغوا لاهور نفسها وحاصروها. لكن جند الغزنويين ردتهم آخر الأمر عنها وثبتت ما تزعزع من نفوذ المسلمين وهيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية كله.

ووافى مودود أجله عام ٤٤١هـ/١٠٤٩م، وهو يعُدالعدّه لحرب السلاجقة الذين كانوا قد غدوا يرهبون جانبه، بعد أن أتيح له الوقوف فى وجههم واســـترداد جزء كبير مما بأيديهم من أملاك الغزنويين.

وخلف مودود طائفة من الأمراء الضعاف، استطاع السلاجقة فى عهدهم اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضى الدولة. حتى رقى العرش إبراهيم بن مسعود فأفلح بحزمه فى تنظيم شئون الدولة، كما ألزم قبائل الترك والأفغان طاعته، وهادن السلاجقة، واقر الأمور فى الهند ستان.

وعنّ لخليفته علاء الدين مسعود أن يكفى نفسه شر السلاجقة

فأصهر إلى سلطانهم سنجر ، ففتح بصنيعه هـــذا الباب على مصراعية لتدخل السلاجقة فى شئون الدولة حتى قضوا على استقلالها .

ذلك أن السلطان السلجوقى سرعان ماظهر بجنده فى غزنة على أثر وفاة علاءالدين فأنزل عن عرشها الأمير أرسلان ، تلبية لدعوة أخته أرملة السلطان الغزنوى ، وكانت على شقاق مع هذا الأمير الجديد الذى اضطر من بعد ذلك إلى النزوح إلى الهنـد حيث وافاه أجله هناك عام ٥١١هـ / ١١١٧ م .

وارتقى الأمير بهرام عرش غزنة فى ظل السلاجقة ، فعمل على أن يفيد من تحولهم صوب فارس بالنهضة بدولته من جديد . وجهد فى إقرار الأمور فى الهند ستان ، خصوصا ، فقضى على فتن البنجاب والملتان ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور ، وكانت الآمال قد بُعثت فى أنفسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم .

وهـكذا كاد بهرام أن يستعيد للغزنويين ما ضاع منهم من أراض ونفوذ ، وقد انجلى عنهم خطر السلاجقة وثبتت أقدامهم بالهند من جديد ، لولا ما كان من قيام النزاع بينه وبين ملوك الغور الذين كانوا ينزلون فيمابين غزنة وهراة .

وكان هؤلاء الغزاة المحاربون من خيرة جند محمود الذين نصروه فى أغلب حروبه وغزواته ، ولكنهم حين بدا لهم الضعف فى خلفائه لم يترددوا فى الجهر بالخروج عليهم .

وبلغ التوتر بين الفريقين غايته حين سيق إلى القتل، بأمر من بهرام، زعيم غورى يدعى الأمير سورى . هنالك والى الغوريون هجومهم على غزنة حتى أفلح زعيمهم علاء الدين حسين فى دخولها، ليستردها بهرام منهم ثانية بفضل قواته الهندية .

ومات بهرام عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م فخلفه ابنه خسرو الذى ما لبث أن فر إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركمان لعاصمته بعد هزيمتهم للسلطان سنجر السلجوقى . وانتهز الغوريون فرصة الفوضى التى عمت البلاد أثر الغزو التركمانى فأنقضوا على غزنة فأعملوا فيها التخريب والنهب والتدمير حتى نبشوا قبور السلاطين الغزنويين جميعا إلا مثوى السلطان محمود .

هـــذا وقد قصد خسرو عاصمته من جديد ولكنه ما إن أحيط بمقتل السلطان سنجر على أيدى التركمان وضياع ملكه حتى ارتد ثانية إلى الهند حيث قضى بلا هور عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٢ م

وتفاقم خطر الغوريين واشتد ساعدهم فحارب زعيمهم، غياث الدين

ابن سام ، الغُز التركمان ، وبسط سلطانه على غزنة التى عهد بها وإقليم كابل إلى أخيه مُعِز الدين بن سام الذى تذكره كتب التاريخ باسم محمد الغورى .

ومازال الغوريون بخسرو وابنه بهرام شاه الثانى آخر سلاطين الغزنويين يطاردونهما بالهند ستان حتى قتلوهما . وبذلك انتهت سيرة دولة عمرت قرنين من الزمان ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد اقدام المسلمين فى أرض الهند .

ولئن كان ظهور الدولة الغزنوية يمثل أول انتصار كبير للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى على سيادة العالم الاسلامى الشرقى على الخصوص اذ ذاك ، فإن هذه الدولة لم تستطع ، على كل حال ، الا ان تترسم فى الحكم نظم ماسبقها من الدويلات الفارسية كالصفارية والسامانيه . بل إن اصحابها بذلوا جهدا مشكورا فى تشجيع الثقافة الفارسية ، فقربوا اليهم كل من استطاعوا دعوته اليهم من شعراء الفرس وعلمائهم إلى جانب غيرهم من أعلام البلاد الاسلامية الأخرى .

على أن اعتماد السلاطين الغزنويين على قوة السيف وحده فى المحافظة على ملكهم ، دون النظر ، فى الغالب إلى إقامه الحكومة الادارة على أساس صالح ونظام سليم ، قد أدى الى تداعى بناء

الدولة كله حين تراخت الأيدى التى كانت تقبض على هذا السيف .

هذا إلى جانب تهالك أغلب الحكام ورجال الدولة أنفسهم على حياة البذخ والترف بسبب ما أصابوه من ثروات الهند وكنوزها الطائلة ، حتى تمكن منهم السلاجقة ثم التركمان وأخيراً الغوريون الذين ورثوهم .

# الغُورِيّون

ما إن انهارت الدولة الغزنوية على أيدى السلاجقة والغُز ، فأخذت الاضطرابات والفتن تجتاح غزنة وكابل وكافة أملاك المسلمين فى الهند ستان ، حتى ظهر أمراء الغور الأفغان وعلى رأسهم زعيمهم معز الدين بن سام المعروف باسم محمد الغورى . وكانوا رجال حرب مبرزين ، فسيطروا على غزنه وما حولها ثم انطلقوا بجندهم إلى أرض الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين هناك من الضياع .

ذلك أن أمراء الهند الراجپوتيين كانوا ، منذ أن لمسوا ضعف الدوله الغزنوية ، قد طفقوا هم وبقايا القرامطة الإسماعيلية يتخطفون املاكها ويثيرون الفتن والاضطرابات بين سكانها ؛

ولقد جاب السلطان الغورى الهندستان غازيا من البنجاب إلى البنغال فى فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاما بدأها باستخلاص الملتان من أيدى القرامطة عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م ثم استولى على بشاور وأخضع السند جميعه لسلطانه حتى البحر برغم ما تعرضت

له جيوشه من خسائر فادحة على أيدى بهيم ديوا راجا نهروالة .

واستعصى حصن لاهور ، أول الأمر ، على صاحب غزنة الجديد فهادن صاحبه الأمير خسرو ملك الغزنوى ثم قفل راجعا إلى عاصمته .

وزينت قبائل الكهكر الهندية ، على أثر ذلك لخسرو أن يزحف على حصن سيالكوت ويستولى عليه . فما إن علم بذلك السلطان الغورى حتى خرج إليه من فوره ، فلم يزل فى زحفه حتى استولى على لاهور نفسها وأوقع فى أسره الأمير الغزنوى الذى سيق إلى قلعة فيروز ببلاد الغور حيث أورد الردى عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م .

وقد لاقى ابنه بهرام شاة الثانى نفس المصير من بعد ذلك بقليل . وبموت هذين الأميرين قُضى على كل سلطان لآل سبكتكين ، وانتقلت أملاكهم ، سواء فى داخل الهند أو فى خارجها ، إلى أيدى الغوريين .

ولئن كان صاحب غزنة الجديد قد أصبح وله السلطان المطلق على البنجاب والسند ، فقد كان عليه أن يقطع شوطا بعيدا حتى يسترد كافة الأراضى الهندية الغزنوية التى سقط على كثير منها الامراء الراجپوتيون ، وكانوا قد عقدوا فيما بينهم حلفا حربيا لمدافعة من يقدم عليهم من غزاة المسلمين .

على أن هؤلاء الأمراء ، على شدة مراسهم فى الحروب وكثافة جندهم ، كانت طباعهم الإقطاعية ومصالحهم الفردية غالبا ما تطغى ،

حتى فى أوقات المحن ، على مصلحة الوطن الهندى العليا . هذا كما كان نظام الطبقات الهندوكى وقيوده الصارمة من أخطر العوامل التى كانت تحطم معنويات عامة المحاربين فتزعزع كيان النظام الحربى كله بالتالى . ذلك أن المحارب الهندوكى العادى، مهما أوتى من الجرأة والبسالة فى القتال ، لم يكن له أن يتطلع إلى مناصب القيادة التى كانت وقفا على أبناء الطبقات العليا ، بغض النظر عن كفاءتهم الحربية . على نقيض الأمر فى جيوش المسلمين حيث الباب مفتوح أمام كل جندى للوصول إلى أعلى مراتب القيادة ما اظهر من شجاعة وتمرس بالقتال وكفاءة فى الحرب .

وإلى هـــذه النقائص مجتمعة يُرد أغلب السبب فى تقاعس جحافل الهنادكة أمام جند المسلمين الذين كانت عقيدة الجهاد تتمكن من نفوسهم تمكنا ثابتا بعيد الغور .

هذا وكان اشهر الامراء الراجپوتيين هم أصحاب قنوج ودهلى ، ويليهم فى المكانة أمراء آجمير وبهار والبنغال والكجرات وبندلخاند. وجميع هذه الإمارات تقع فى شمـــال شبه القارة الهندية ، وهو القسم الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالهندستان . وفيه تقع أعظم أنهـــار هذه البلاد واخصب أراضيها ، واكثف مناطقها السكنية بالتالى .

وخرج السلطان الغورى إلى الهند عام ٥٩١ هـ/ ١١٩٤ م فى قوات كبيرة . فما إن بلغ سر هند ، عند حدود البنجاب الشرقية ، حتى علم بحشود الهندوس التى بلغت مائتى الفامن المحاربين وثلاثة آلاف من الفيول .

والتقى الجمعان عند ترين ، على مقربة من ثنيسر ، فلم يستطع جند المسلمين الثبات أمام عنف حملات الهنادكة وتدفق قواتهم. ودق مركز السلطان نفسه حتى أصيب بجراح شديدة وهو يقاتل بنفسه . وكاد يضيع فى الميدان من فرط ما بذل من جهود خارقة ، لولا أن بصر به أحد الجند الخلجيين فانطلق به حتى أبلغه مأمنه . ولم يستطع جند غزنة أن يلم شمله من جديد إلا بعد ارتداد طويل بلغ الاربعين من الأميال ، فثبتوا فى مراكزهم ، ودفعوا عنهم كل هجوم شُن عليهم .

ولم يكن محمد الغورى ليسكت عن هذه الصدمة العنيفة التى لم يتلق المسلمون مثيلاها بأرض الهند من قبل ، فعاد إلى إعدائه فى العام التالى على رأس مائه وعشرين ألفا من المقاتلين الأشداء، من أتراك وأفغان وغيرهم ، كان عليهم أن ينازلوا ثلاثمائة ألف من فرسان الهنادكة ، مع ثلاثة آلاف من فيلة الحرب ، استعدوا للقائهم يقودهم بربتى راجا صاحب دهلى وقنوج .

ولم يفت تفوق الهنادكة الساحق فى عضد صاحب غزنة ، فرسم خطته على أن ينطلق من بين صفوفه أربع فرق . قوام كل واحدة منها عشرة آلاف رجل ، فتوالى مهاجمة العدو من كل جانب ثم يرتد أفرادها متفرقين على أثر كل هجوم بهيئة من يفر من الميدان .

وإذ أدى نجاح هذه الخطة إلى إرهاق قوى العدو ارهاقا شديدا وتشتيت جموعه ، برز السلطان بنفسه على رأس اثنى عشر الفا من فرسانه راحوا يشيعون الموت والدمار فى صفوف اعدائهم حتى هلك من الهنادكة ألوف كثيرة وفيهم جملة من الامراء . أما زعيمهم بربتى راجا فقد اتخذ سبيلة إلى عاصمته هربا . ولكنه لم يكد يبلغ سرسوتى بإقليم سنهل حتى لحق به مطاردوه فقضوا عليه .

هذا وتعد هذه الواقعة البداية الحقيقية لانهيار سلطان الأمراء الراجپوتيين التام ونهايته الحاسمة فى شمال الهند . وقد استولى المسلمون على اثرها على سرسوتى وسمنه وكهرام وهنسى ثم آجمير التى أمر السلطان بتحطيم ما بمعابدها من أوثان ، ثم هدم هذه المعابد نفسها واستخدم اعمدتها وأحجارها فى إقامة مساجد ومدارس للمسلمين .

وعهد محمد الغورى ، قبل أوبته إلى عاصمته ، بإدارة أملاكه إلى قائده قطب الدين أيبك الذى وصل فى فترة قصيرة بفتوحاته إلى دهلى فاتخذها قاعدة لحكومته .

هذا وكان يقع بقلب الدوآب ، فيما وراء دهلى حتى حدود بنارس ، إمارة قنوج اعظم امارات الهند التى ذاع صيتها فى اساطير هذه البلاد وفى تاريخها على السواء .

وبدا لصاحبها چايا چندرا أن يجمع حوله شمل الامراء الراچپوتين من جديد ، بعد هلاك بريتى راجا دهلى ، فى أمل أن يصير بهم سيد الهندستان كلها بعد طرد المسلمين منها .

على أن السلطان الغورى مالبث أن فطن لتدبير عدوه ، فأيقن أن حكومته الهندية لن يُكتب لها الاستقرار إلا بالقضاء على سلطان هؤلاء الأمراء ، فخرج إليهم فى جيش كثيف التقى بهم عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م فى السهل المنبسط بين چندوار واتاوه .

وفضلا عن هزيمة الهنادكة الساحقة ومقتل زعيمهم راجا قنوج . فقد كان أخطر أثر لهذه المعركة هو انسحاب كبار الأمراء الراچپوتيين جميعا من وجه المسلمين والهجرة إلى صحراء الراچپوتانا التى حملت اسمهم فيما بعد .

وواصل السلطان الغورى الظافر زحفه بعد فتح قنوج حتى

بنارس فأقام بها مسجدا كبيرا ثم آب الى حاضرته .

ولم يتردد قطب الدين أيبك نائب الغوريين بالهند فى استغلال ما أشاعته انتصارات المسلمين القوية هذه من رهبة وفزع فى نفوس محاربى الهند فغزا آچمير من جديد كما فتح نهرواله واستولى على بيانه وكنوالیار وما حولها ، فى الوقت الذى انطلق فيه محمد ابن بختيار الخلجى ثانى قواد الغوريين بالهند صوب الشرق ففتح بهار ونفذ إلى البنغال . ومن عجب أن تجمع الروايات على أن جند الأمير الخلجى لم تكن تعدو فى هذه الفتوح بضع مئات .

هذا وكان إقليم بهار ( ڤهار ) ، الذى استولى عليه محمد بن بختيار ، هو الإقليم الهندى الوحيد الذى صادفت البوذية فيه ازدهارا كبيرا بفضل الرعاية العظيمة التى كان يحبوها بها ملوك أسرة پالا الهندوكية . وظلت هذه العقيدة رائجة فى هذه الإمارة حتى اقتحمها القائد الخلجى فخرب معابدها واستولى على ما كان بها من أموال وكنوز .

وتابع هذا القائد زحفه من بعد فتح هذه الإمارة فى ثمانية عشر رجلا من رجاله ، ليس غير ، بلغ بهم ناديه عاصمة البنغال عام ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م ، وكان عليها ملك شيخ من اسرة سِنا[1]

١ ـ Prasad India pp 118 — 20

يُدعى لكشمن سنا عرف برعايته العظيمة للفنون والآداب .

وفتح الحراس بوابة المدينة للوافدين وقد خُيِّل إليهم أنهم من تجار الخيول فلم تخالجهم أدنى ريبة فى أمرهم . هنالك اتجهت العصبة الغازية من فورها إلى قصر الراجا ، فما إن بلغ أذنى لكشمن العجوز صريخُ الضحايا من رجاله بخارج إيوانه ، وكان يتناول غذاءه ، حتى هب لوقته فاتخذ سبيله إلى دكّنا هاربا .

ولم يغادر محمد بن بختيار المدينة إلا بعد أن خربها تخريبا تاما ، ومن ثم تركها إلى لكهناوتى فاتخذها قاعدة له ، وصلى فيها بالناس ودعى فى الخطبة للسلطان الغورى ، وضرب السكة باسمه .

كذلك خرج قطب الدين أيبك عام ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م لحرب برمردى ، أمير بُندلخند ، فانتزع منه حصن كلنجر ، امنع قلاع الهند اذ ذاك واشدّها بأسا . ثم اردف ذلك بالاستيلاء على بداون وكالبى .

وبهذا خضع شمال الهندستان كله ومعه اقليم كَوالبار لسلطان الغوريين خضوعا تاما[1] .

واطمأن محمد الغورى إلى ترك أملاكه بالهند فى أيدى قواده الأمناء الأقوياء ، فأخذ يتطلع إلى بلاد ما وراء النهر ومدن

---

١ — تاريخ فرشته أول ص ٥٦ ، ٥٧

إيران الزاهرة . فاندفع يغزو خوارزم عام ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م، ولكنه أصيب هناك بهزيمة شديدة أخذ على أثرها كثير من الولايات والقبائل الخاضعة لنفوذه تعلن الخروج عليه ، حتى أقفلت غزنة نفسها أبوابها فى وجهه .

ولم يقف الأمر عند استيلاء تاج الدين يلدز ، أحد قواده الذين خرجوا عليه ، على غزنة والاستقلال بها ، بل سار أحد القواد الغزنويين بدوره ، ببراءة مزيفة ، إلى الملتان حاكما عليها ، كما انقلبت قبائل الكَكَر بالپنجاب تعيث فى الأرض فسادا .

على أن محمد الغورى ما لبث بمضاء عزيمته أن استرد غزنه والملتان بعد قليل ، كما أفلح قواده بالهندستان فى إخضاع الخارجين عليه من جديد .

وراودت السلطان الغورى ، كرة ثانية ، أحلامه بالتوسع غربا برغم ما أصابه من خسائر فادحة كادت تقضى القضاء التام على سلطانه . وفيما كان يمهد لهذا الأمر ويعد له عدته ، اغتاله أحد الهنادكة، عند نهر جهلم وهو فى طريقه من لاهور إلى غزنة، فقضى فى شعبان ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م[1] .

١ — طبقات ناصرى لتهاج السراج أبى عمرو عثمان ( الترجمة الانجليزية لرافرتي ) ص ٤٨٤ ، ٨٥ .

ولئن كان محمود الغزنوى قد مهد بغزواته الهندية الطريق أمام خلفائه من السلاطين وجعل لجند المسلمين المهابة والرهبة أينما زحفوا وحيثما حلوا ، فإن محمدا الغورى هو الذى ثبت أقدام المسلمين كذلك فى شمال الهند بأكمله ، وأقام الحكم الإسلامى هناك ، بفضل رجاله ، على أساس ثابت وطيد . وهو أمر لم يتح لمحمود من قبله . إذ كان الغزنويون عموما ، فضلا عن خلو رجالهم من كفاءة الإدارة والتمرس بالحكم ، عجلين على إثر كل فتح بالعودة إلى منازلهم ومعهم من كنوز الهند مايبهرهم وسحر البابهم

وعلى أيدى رجال الغورى بدأ الحكم الحقيقى للمسلمين بالهند. فقد تحول الغزاة إلى الاستقرار والإقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها ، وبهذا احتفظت الهند بأموالها وثرواتها فى نطاق شبه القارة نفسها ، فلم يعدو الأمر انتقال أجزاء منها من أيدى الهنادكة إلى أيدى المسلمين الذين صار لهم هناك دولة قوية مرهوبة الجانب وسيعة الرقعة عظيمة السلطان .

# دولة المماليك

لم يترك السلطان معز الدين محمد بن سام الغورى وريثا للعرش من بعده ، إذ يذكر عنه المؤرخ منهاج السراج أبو عمرو عثمان ، صاحب طبقات ناصرى ، أنه كان يقول ، بأن الله قد عوضه عن الأبناء بمواليه المخلصين من الأتراك يحافظون على ملكه ويجرون الخطبة بذكره فى كافة أنحاء سلطنته .

ونصب قطب الدين أيبك نفسه سلطانا على الهندستان فى عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م عقب وفاة مولاه محمد الغورى[١] .

وكان أيبك هذا فى طفولته مملوكا لقاضى نيسابور الذى ضمه فى الدرس إلى أولاده ، فقرأ معهم علوم الكتاب والسنة ، كما نبغ فى الفروسية وركوب الخيل ، واشتهر بالشجاعة والمروءة .

وحين مات القاضى بيع المملوك إلى أحد التجار الذى عرضه بدوره على السلطان محمد الغورى . وكفلت لأيبك خصاله الحميدة أن ينال الحظوة عند سيده الجديد حتى بلغ مرتبة القيادة . وزاد من

---

١ــ تاريخ فرشته أول ص ٦٣

قدره عند السلطان عظم وفائه وإخلاصه حين بادر من فوره لنجدته على أثر الكارثة التى نزلت بجيوش الغوريين عند أبواب خوارزم وما نتج عنها من انتقاض أمراء وقبائل كثيرة على صاحب غزنة . وعرف له سيده فضله هذا كله فكافأه عليه بتثبيته نائبا له على أملاكه الهندية التى كان له اليد الطولى فى توسيع رقعتها حتى صارت تمتد من البنغال شرقا إلى آخر حدود البنجاب غربا .

وبادر سلطان الهندستان الجديد من فوره، إلى إقامة علاقات طيبة مع زملائه من الأمراء والقواد المماليك ، فبنى ، فى سبيل تحقيق ذلك ، بأخت تاج الدين يلدز ، وكان أيبك قد استرد غزنة منه ثم عاد فردها إليه كرما منه . كما زف ابنته إلى التتمش وأصهر كذلك إلى قباچه ، وكان كلاهما من زعماء المماليك الغوريين .

واشتهر قطب الدين فى حكمه بإقرار الأمن فى كافة نواحى بلاده ، وحرصه على قيام العدل بين الناس مع حسن معاملته للهنادكة خاصة .

وقد بنى بالهند مسجدين كبيرين أحدهما بدهلى والآخر بآچمير .

وسقط به جواده سقطة قاتلة عام ٦٠٧ هـ/١٢١٠ م فخلفه شمس الدين التمش أحد قواده، وكان من مماليكه وأصهاره كما ذكرنا من قبل ، فى حين استقل قائده قباچة بالملتان والسند ، كما تولى

الخلجيون الأمر فى بهار والبنغال ، وكانوا هم أيضا بدورهم من رجال السلطان محمد الغورى .

على أن أمراء آخرين من رجال الغورى ، ومعهم طائفة من أتباع السلطان الراحل قطب الدين أيبك ، لم يتقبلوا هذا الوضع الجديد بقبول حسن ، فلم يرضوا بأن ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك .

وإلى جانب هؤلاء الناقمين ، كان هناك جملة من أقيال الهنادكة ، الذين اغتصب المسلمون أراضيهم ، مازالوا يرون فى سيادة المسلمين بلادهم مجرد محنة عابرة ، عليهم ألا يغفلوا أبدا عن انتهاز أى فرصة تلوح لهم للخلاص منها .

لكن التمش بدوره عرف كيف يواجه جميع ماصادفه من مشاكل وصعاب فى حزم وقوة . فما إن أقر الأمور فى سلطنة دهلى وتوابعها ببداون وأوده وبهارس وسوالك ، حتى خرج إلى الپنجاب الذى أغار عليه يلدز ، فهزمه وناصر الدين قباچه حاكم السند واستولى على الإقليم كله .

ذلك أن يلدز هذا كان قد خرج من غزنة ، التى ثبت ملكه بها ، فى غزوات ناجحة فيما وراء الهندكوش حتى بلاد خوارزم التى استعصت عليه ، ومن ثم استدار إلى الهند . على أن التمش مازال

يطارده حتى أسره ثم قتله ، كما رد قباچه إلى إمارته المسلوبة بعد أن تعهد بالولاء له

كذلك أفلح التمش فى القضاء على جميع الفتن التى أثارها بعض أمراء الهنادكة على إثر وفاة السلطان ايبك سالف الذكر .

ولم يكن جميع ما تعرض له التمش من متاعب ، ليقعد شيئا مذكورا بالقياس إلى الخطر الداهم الذى أقبل على الهند فى ركاب المغول حين ظهروا عند حدودها عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م يقودهم الخان الأعظم چنكيز . وكان هؤلاء قد خرجوا من ديارهم بصحراء جوبى فاكتسحوا فيما اكتسحوا بلاد ما وراء النهر وخربوا أغلب مدنه الزاهرة وقتلوا كثيرا من أهله .

ولقد اجتاحوا ، فيما اجتاحوا ببلاد ما وراء النهر ، مملكة خوارزم التى كانت تمتد إذ ذاك من خيوه إلى سمرقند وبخارى ويدخل فى دائرة نفوذها هراة وأصفهان . هذا وكان خصام أميرها مع المغول من أسباب تعجيل الأخيرين بزحفهم على البلاد الإسلامية .

ولجأ جلال الدين ، آخر سلاطين خوارزم ، إلى الهندستان هربا من وجه هؤلاء الغزاة ، فتعقبوه وساروا فى أثره حتى أنزلوا به

هزيمة حاسمة على ضفاف السند (١) .

هذا وكان جلال الدين، حال وصوله السند، قد بادر بالكتابة إلى التمش يسأله الالتجاء عنده بدهلى بعض الوقت . لكن الأخير خاف مغبة ما قد يؤدى إليه نزول شاه خوارزم عنده من التفاف الجند الأتراك حوله ، وكانوا فى دهلى كثيرين ، فبعث يعتذر إليه متعللا بما قد يجلبه له حر الهند من متاعب صحية لاقبل له باحتمالها .

هنالك لم يجد جلال الدين بُدا من منازلة المغول . وحالفه التوفيق أول الأمر فأشاع الاضطراب فى صفوف عدوه . لكن جموعهم المتدفقة سرعان ما عاودت حملاتها العنيفة فلم تكتب النجاة إلا لسبعة آلاف من الجند الخوارزمى من بين الثلاثين ألفا الذين كانوا يحاربون تحت لوائه .

واستطاع السلطان ، فى فريق من رجاله ، أن يعبر السند تحت وابل من سهام العدو فى شجاعة وجرأة ، فانقض من فوره على قباچه ، والى السند من قبل دهلى ، فأسره وحبسه فى حصن الملتان ثم أخذ ورجاله يعملون السلب والنهب فى الإقليم كله .

على أن الأجل لم يمتد من بعد ذلك بجلال الدين . فقد أنبئ باستعداد جند العراق لشد أزره وعونه ، فسار ، على هـــدى

---

١ — تاريخ المغول لعباس اقبال . طهران ١٩٣٤ . جلد اول ص ٦٣

أمله الجديد ، إلى إيران ليقع فى الطريق بأيدى بعض الناقمين فيقتلوه .

وكان من حسن طالع الهند أن جيوش المغول لم تطق حرها فاستدارت صوب الغرب من جديد لتنجو هـــذه البلاد من جحافلهم وشرورهم .

هنالك تنفس التمش الصعداء ، فراح يعمل على إخضاع الخارجين على حكمه . ذلك أن الأمير غياث الدين الخلجى ، وكان من أحسن الأمراء المسلمين سيرة بالهند ستان ، كان قد بسط نفوذه على چاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلى وأعلن استقلاله بها . وقبل هذا الأمير مهادنة التمش أول الأمر على جزية كبيرة دفعها له ، كما أعاد قراءة الخطبة باسمه . لكن جند دهلى ما كادت ترجع عنه حتى انقض على إقليم بهار فاستولى عليه وسرعان ماسار إليه ناصر الدين محمد شاه ، حاكم أوده من قبل دهلى ، فهزمه وقتله ، كما أوقع فى أسره جميع أعوانه من الخلجيين ، وأخضع كافة الأراضى الممتدة حتى لكهناوتى ورنتنبهور ومندوار .

هذا وكان قباچه بدوره قد استطاع ، بعد زوال الخطر المغولى ، أن يسترد الملتان لنفسه من جديد . ومالبثت قواته أن تضاعفت

على أثر هزيمتـــه لجند الخوارزميين والخلجيين الذين كانوا يطمعون فى أراضيه وطردهم منها . حتى أوجس صاحب دهلى خيفة منه ، فأوعز إلى نائبه فى لاهور بالزحف على الملتان ، فى حين خرج هو بنفسه على رأس جيش قوى إلى أوكا مقام خصمه . هنالك لجأ قباچه بجنده وأمواله، إلى قلعة بهكر فتحصن بها . وما لبث أن قضى غرقا فى السند بعد قليل وهو يحاول عبوره هربا من وجه عدوه .

وكان أن أعلن الخليفة العباسى المستنصر بالله عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م تثبيته لالتمش على عرش الهند ولقبه بناصر أمير المؤمنين ، فكان من أثر هذا الإعلان أن قوى مركز صاحب دهلى بين مسلمى الهند قوة عظيمة ومكن من نفوذه بينهم . وقد قابل التمش صنيع الخليفة هذا بتقديمه فى الخطبة عليه وضرب السكة باسمه .

واغتنم التمش فرصة تأييد الخليفة له فخرج يبغى القضاء على خصومه وتوسيع رقعة ملكه . فهزم الخلجيين فى المناطق الشرقية مرة أخرى ، وكانوا قد سارعوا باسترداد نفوذهم القديم عقب وفاة ناصر الدين محمد شاه فى البنغال . هذا كما خرج إلى كواليار فاستردها من الأمير الهندوكى منجال ديوا وأرغمه على الفرار منها.

كذلك استولى التمش على مالوه ، فدخل حصن بهيلسا ثم رحل

نه إلى أويان عاصمة فكر ماديتا القديمة فحطم ما كان بمعابدها ن أصنام مشهورة ثم آب إلى عاصمته .

وكان من أثر هذه الحروب ، التى ظل هذا السلطان يمارسها مدى بع قرن من الزمان ، أن أنهكت صحته . فقضى بدهلى فى شعبان ن عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٥ م بعد أن أرسخ نفوذه فى كافة الأقاليم لتى فتحها سلفه وسيده قطب الدين أيبك .

هذا والمعروف أن حروب التمش على كثرتها لم تمنعه من أن بمد رعايته إلى المشتغلين بالعلوم والفنون . وقد لاقى فى عهده فن لعمارة بالهند ازدهاراً كبيرا . ومن آثاره الباهرة منارة القطب دهلى التى يبلغ ارتفاعها ٢٤٢ قدما والتى تعد من أروع العمائر لإسلامية بالهند قاطبة . وينسبها بعض المؤرخين خطأ إلى قطب لدين أيبك . وحقيقة الأمر أن التمش قد أطلق عليها هذ الاسم سبة إلى ولى بغدادى ، يدعى قطب الدين ، تبركا .

وقد أفاض صاحب طبقات ناصرى فى ذكر فضـــائل هذا لسلطان ، وكان معاصراً له ، وذكر الكثير عن شدة تقواه عدله وبره برعاياه . وأوصى التمش قبل موته بالملك لابنته رَضِيّة ون أبنائه من الذكور الذين لم ير من بينهم من هو جدير بحكم لهند . لكن رجال البلاط ما لبثوا أن عهدوا بالملك إلى الأمير

رُكن الدين فيروز شاه أحد أبنائه ، لتنتهز شـــاة تركان فرصة انصراف ابنها السلطان الجديد إلى الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها فتستأثر بتصريف شئون البلاد فى استبداد أدى إلى إثارة ثائرة الأمراء فى أوده وهنسى وبداون والملتان ولاهور . وجرى فى خاطر أم السلطان المستبدة أن تكون الأميرة رضية من وراء هؤلاء الأمراء فى خروجهم عليها ، فحاولت ، فى وسط هذه الاضطرابات ، أن توقع بها ، لكن تآمرها باء بالفشل فقضى عليها وعلى ابنها .

هنالك التف الأمراء حول السلطانة رضية من جديد وأجلسوها على عرش أبيها ، فاستطاعت بما أوتيت من حسن السياسة والحزم أن ترغم على طاعتها جميع الأمراء ببلادها . ومن غرائب المفارقات أن صادف حكمها بالهند تولى شجرة الدر ، قاهرة الصليبيين ، الأمر بدورها فى مصر .

على أن هذه السيدة التى قادت بنفسها حملات عديدة ناجحة للقضاء على عصيان الأمراء من مسلمين وهنادكة ، والتى كانت تجوب الأسواق فى ملابس الرجال وتجلس إلى الناس تستمع إلى شكاواهم ، غلبتها أنوثتها آخر الأمر فتعلق قلبها بأمير الخيل فى بلاطها ، وكان عبدا حبشيا يدعى جمال الدين ياقوت[١] ، فأثارت

١ — Lane-Poole India, p. 75.

بذلك عليها حفيظة الأمراء جميعا ، فقتلوا ياقوت ثم انقلبوا يحاربونها بزعامة أخيها بهرام شاه .

وبرغم توصلها بدهائها إلى كسب بعض القواد إلى صفّها ، إلا أنها أصيبت آخر الأمر بالهزيمة . وفيما كانت تهيم على وجهها فرارا وقعت فى أيدى عصبة من الهنادكة فقضوا عليها .

على أن بهرام شاه ما لبث بدوره أن سلك سبيل الشدة فى حكمه . حتى إذا ما أقبل المغول عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م على البنجاب استطاعوا أن يخرّبوا لاهور ، دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وذلك بسبب نفور القواد المسلمين بالهند من سلطانهم واستبداده وطغيانه حتى اجتمعوا عليه آخر الأمر فقتلوه .

وولى الأمر من بعده علاء الدين مسعود شاه حفيد التمش . وفى عهده دخل المغول الهند من جديد ، عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥ م ، بقيادة مانكو وتوغلوا فى السند حتى تصدى لهم بَلْبَنْ قائده ، فردهم عن سلطنة دهلى بعد أن أنزل بهم خسائر فادحة . وإلى هذا القائد يُرد أيضاً الفضل فى القضاء على ثورات الحكام المسلمين فى كواليار وچندرى ومالوة ونروا .

وبرغم أعمال هذا القائد الباهرة فقد أفلحت الوشايات فى إقصائه عن بلاط دهلى بضع سنين .

وخلف ناصر الدين محمود شاه أصغر أبنـــاء التمش أخاه علاء الدين بعد عزله ، فانصرف إلى مصاحبة العلماء والدراويش تاركا عبء الحكم كله على أكتاف وزيره القائد بلبن الذى اضطلع به فى قدوة وكفاءة تامة . وحين وافى السلطان أجله عام ٦٦٤ هـ/١٢٦٦م رَقى الوزير العرش مكانه .

ينتسب غياث الدين بلبن هذا إلى قبيلة إلبارى التركية التى كان من أبنائها التمش نفسه ، وكان أبوه من بين زعمائها وشيوخها المقدّمين .

ولكن حدث ان سقط بلبن بأيدى المغول فى إحدى غزواتهم ، وكان إذ ذاك فى صدر شبابه ، فبيع بالبصرة إلى مَن يدعى خواجه جمال الدين ، فأحسن مثواه ثم صحبه معه إلى دهلى حيث باعه بدوره إلى شمس الدين التمش سلطانها إذ ذاك ، فلم يزل يرقى بجده واجتهاده حتى غدا من خاصة حرسه المقربين .

وبلغ بلبن مرتبة أمير الصيد عند الملكة رضية . حتى اذا ما ثار أمراء الدولة فى وجهها لما شاع من أمر كلفها بأمير خيلها ياقوت الحبشى ؛ — بادر من فوره بالانضمام إليهم وبذل الجهد لنُصرتهم .

واعترف له السلطان بهرام ، حين خلف أختـه رضية ،

بصادق عونه وإخلاصه فولاّه رِواری وضمّ إليها بعد قليل ولاية هنسى ، فانصرف إلى إدارة هاتين الإمارتين إدارة حكيمة استقام معها حال الأهلين وتقدمت الزراعة عندهم وراجت أحوالهم الاقتصادية .

وأقبل المغول بقيادة مانكو على الهند عام ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م فغزوا السند وحاصروا حصن أوكا ، فكان بلبن ، دون سائر الأمراء الآخرين، هو الذى انبرى لهم وحده حتى أوقع بهم هزيمة قاصمة، ارتدوا على أثرها من الهند سراعا تاركين وراءهم ما كان بأيديهم من أسرى كثيرين ما بين مسلمين وهنادكة .

وقُلّد هذا القائد القدير الوزارة فى عهد السلطان ناصر الدين محمود ، الذى عرف بانصرافه إلى أهل التصوف والأدب ، فطفق ينظّم شئون الدولة فى حزم بالغ . حتى إذا ما تم له ذلك ، انطلق يبغى تأمين سلطان دهلى ويثبت من هيبتها ، فعبر على رأس قواته نهر راوى ، أحد روافد السند ، إلى منازل الكَهكر وغيرها من القبائل الثائرة فاقتحمها عليهم . كما خرج كذلك مرات عديدة إلى الدوآب فقمع الفتن التى كان يثيرها أمراء الهنادكة بها ، واستولى على حصن تلْسَنده فى قنوج ، وأخضع رانا ملكى مع كافة الأراضى الواقعة بين كالنجر وكرّه .

هذا كما استخلص كذلك مِوات ورنتنبهور من أيدى هنادكة الراجپوتانا ، فى حين أوقع قائده شيرشاه فى أسره عز الدين زعيم الثوار عند أوكا . فلم ترجع جيوش دهلى إلى قواعدها فى ربيع الأول من عام ٦٥٠ هـ/١٢٥٢ م حتى كانت كَوالیار ، جندرى ومالوه ونارورَ قد دانت جميعها للسلطان وناله منها أسلاب وأموال طائلة .

وتنفّس فريق من الأمراء والقواد على بلبن أعماله الباهرة هذه فانتهزوا فرصة خروج السلطان الى الملتان وأوكا دون قائده الأكبر فاقبلوا ، بزعامة القائد عماد الدين ريحان ينصبون شباك الدس له عند سيدهم حتى بلغوا غايتهم فأبعد بلبن إلى إقطاعه عند سولك وهنسى ، واستُبدل به الوزير محمد جنيدى ، فى حين رقى القائد ريحان إلى منصب الحجابة .

ولم يكن أمراء الترك وقادتهم ببلاط دهلى ليقبلوا ، فى بساطة ، الخضوع لهندوكى قريب العهد بالإسلام مثل القائد ريحان . فسرى التذمر بينهم إلى كافة أرجاء البلاد ، وانهالت رسائل الحكام والأمراء على مقام السلطان بطلب إقصاء هذا القائد عن شئون الدولة.

وتفاقم الحال بالتفاف أمراء كره وما نيكپور وأوده وترهوت وبداون وسمانه وكوهرام وسونام وتبار هنداه وإقليم سوالك حول الوزير المعزول . وما عتم أن انضم إليهم من الأمراء الكبار

ألُغ خان وجلال الدين مسعود شاه فزحفوا جميعا على رأس قواتهم إلى العاصمة .

ولقد كان حريّا بالقائد ريحان أن يبادر من فوره بالتخلى عن منصبه حقنا للدماء ، لكنّه ركب رأسه وحمل السلطان على الخروج بجيشه حيث دارت الدائرة عليه عند تبار هنداه فأرغم على إبعاد حاجبه إلى بداون .

ورُد الوزير القديم إلى منصبه ، فاستقبلته العاصمة ، فى ذى الحجة من عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ، استقبال الغزاة والفاتحين بعد غياب استغرق عامين من الزمان .

وشمّر بلبن عن ساعد جِده المعهود فقضى على فتن الدوآب المتكررة وأقر الأمور فى أوده والسند حيث كان قُتلُغ خان زوج أم السلطان ومعه القائد عز الدين بلبن قشلوخان وفريق من أمراء الهنادكة قد جنحوا هناك إلى نبذ طاعة السلطان وإعلان العصيان .

وأقبل المغول على السند من جديد ، عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م يقودهم نوبين ساري ، فما إن أحيطوا بتدبير الوزير القائد لنزالهم حتى ارتدوا على أعقابهم من حيث أتوا .

وكان آخر وقعة كبيرة ذات خطر خاضها الوزير بلبن هى التى

خرج فيها عام ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م للقضاء على ثوار الهنادكة الذين راحوا بزعامة أميرهم مَلكا يعملون السلب والنهب فى قرى سوالك وبيانه وهريا، إلى جانب إنتهابهم لأملاك المسلمين فى موات، فلم يردهم عن غيهم مانزل بهم من ضربات شديد قبل ذلك بسنوات ثلاثة على أيدى ألغ بك أحد قواد دهلى . وأفلح الوزير فى تطهير المنطقة كلها ثم عاد إلى العاصمة ليقف إلى جانب سلطانه فى استقبال مبعوث من لدن هولاكو خان المغولى حفيد چنكيزخان .

وهكذا أظهر بلبن فى الفترتين اللتين ولى فيهما الوزارة جدارة فائقة فى تصريف أمور الدولة وإقرار النظام فيها والأمن والقضاء على كل ما كان يتهددها من أخطار سواء فى الداخل ، حيث قضى على عصيان الأمراء فى الدوآب والسند، أو فى الخارج حيث دفع عنها عدوان المغول وحصن حدودها الشمالية الغربية فى وجههم.

ورقى غياث الدين بَلبن عرش الهند على أثر وفاة السلطان ناصر الدين كما ذكرنا من قبل ، فعمل على أن يسترجع لمنصب السلطنة سابق هيبته ونفوذه الذى زعزعه ضعف السلاطين من أبناء التمش من جهة وازدياد سطوة المماليك الشمسين أتباع التمش من جهة أخرى ؛ هذا إلى جانب الخطر المغولى الذى مابرح يطل على السند من آن لآخر .

وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض جميعها أعاد بلبن تنظيم قواته وتدعيمها حتى تمكن بها من إقرار الأمن فيما حول عاصمته وفى الدوآب والپنجاب . ومن ثم وجهها لدفع خطر المواتيين ، وكانت عصاباتهم قد تفاقم أمرها بدرجة مخيفة حتى طفقت تهدد دهلى نفسها، فلم يزل جنده تطاردهم وتتعقبهم فى الأدغال والغابات حتى طهرتها منهم تماما . كذلك عمل بلبن على تأمين الطرق والمسالك فى انحاء بلاده من عبث اللصوص وقطاع الطرق وكانوا من الكثرة بدرجة مخيفة ، لاسيما فى الدوآب ، حتى كان يستحيل فى أغلب الأحيان نقل المؤن والبضائع من موضع إلى آخر بأمان .

ودعم السلطان عملياته الكثيرة هذه بإقامة كثير من المعاقل والحصون فى مختلف أنحاء البلاد وتعميرها بالجند والسلاح ، كما أمر بشق كثير من الطرق عبر الأدغال والأحراش .

هذا وقد استعان بلبن على ضبط الأمور ، فى مملكته المترامية الأطراف ، بشبكة محكمة من الجواسيس كانت توافيه بكل ما كان يجرى فى البلاد من حوادث وما كان ينزع إليه عماله من تصرفات فى دقة وسرعة وتفصيل تام .

وبلغ من حرص صاحب دهلى على إلزام عماله جادة الصواب والعدل أنه لم يتردد فى الاقتصاص من أكثر من واحد منهم فى

عنف وشدة حين بلغه قتلهم بعض السكان ظلما .

على أن بلبن ، برغم ما كان له من جند كثيف عالى التدريب ، فقد لبث فى هم مقيم خوف قدوم المغول . فلزم عاصمته موجها كل جهوده إلى تأمين حدوده بإزاء غزوات جحافل هؤلاء البدو الآسيويين غلاظ الأكباد ، الذين أنزلوا الخراب والدمار بأغلب بلاد المسلمين . فهاهم أولاء قداقتحم بهم خانهم هولاكو ، حفيد چنكيز ، بغداد مدينة الخلافة فدكوها على أهلها وقتلوا المستعصم أمير المؤمنين بها شر قتلة . وهاهم بالهند قد احتلوا إقليم لاهور ثم راحوا فى غاراتهم تترى يكتسحون أرض السند والپنجاب .

وبلغ من فرط تحوط سلطان دهلى وشدة حذره أن أبعد عن بلاطه كل من كان يخالجه أدنى شك فى إخلاصه له ، حتى عزل فى سبيل ذلك جميع الهنادكة عن مناصبهم . واصبحت موارد الدولة كلها وجهودها وقفا على تحصين البلاد ووقايتها من خطر المغول .

وكان من ذلك أيضا أن عهد إلى ابنيه ، محمد و بُغراخان ، بالمرابطة فى الملتان وسمنه أقرب مراكز الحدود الشمالية تعرضا للخطر ، وأمدهما بجيوش قوية حسنة التدريب .

وجرّ على بلبن لزومه عاصمته ، دون الخروج منها للغزو والجهاد على سنة أسلافه ، كثيرا من المتاعب فى مختلف ولايات

الدولة لاسيما ما كان منها على مبعدة من مقره . بل أن هيبته بدأت تقل فى أعين سكان دهلى نفسها الذين لم تَعُدْ تهز أسماعهم أنباء الانتصارات السلطانية أو يشاهد واعساكر المسلمين خارجة للغزو والجهـــاد .

وأرغمت اضطرابات البنغال بلبن آخر الأمر على الخروج من عاصمته . ذلك أن أميرها طُغرُل كان قد جهر باستقلاله بعد أن أوقع بحملات دهلى إليه مرات متكررة (١) .

هذا والواقع أن نفوذ دهلى فى البنغال كان قد طفق يتضاءل عموما منذ حكم الخلجيين هناك . وساعد أمراء هـــذا الإقليم على نبذ طاعة دهلى بُعـــد بلادهم الشاسع عنها مع سوء المواصلات معها ورداءة الطرق إليها ، فضلا عن انتشار الملاريا بها انتشارا وبائيا شديدا.

ولقد أتيح لألتمش من قبل أن يقر الأمور فى هـذا الإقليم قتاً ما حتى نصب عليه ابنه . لكن الأحوال مالبثت بعد موته أن عادت هناك إلى سيرتها الأولى نتيجة للاضطراب والتفكك الذى دب إلى الحكومة المركزية فى دهلى بما فصلناه من قبل .

---

١ ـ رياض السلاطين اوتاريخ بنكالة ـ لغلام حسين سليم . كلكته ١٨٩٠م ص ٧٧ ـ ٨١

وزين لطغرل خان نائب بلبن على هذا الإقليم ، مستشاروه خلع طاعة دهلى ، وقد خيل إليهم أن السلطان قد شارف على الهلاك لشيخوخته ، فى حين شُغل ولداه بقتال المغول فلا قبل إذن لأحد بالمسير إليهم .

ودفعت بهذا الأمير أطماعه إلى مهاجمة چاچنكر ، فانتهبها واستولى فيها على أسلاب ثمينة طائلة . ومن ثم راح يجهر باستقلاله فاتخذ لنفسه لقب السلطان مغيث الدين وأمر بضرب السكة وقراءة الخطبة باسمه ، ثم راح يفيض على رجاله مما استحوذ عليه من الغنائم جلبا لولائهم ورضائهم .

وبعث بلبن، أول الأمر، بقائده آبتكين المعروف بأمير خان إلى البنغال فأصيب بهزيمة شديدة انفرط على أثرها عقد الجند ، فمنهم من بادر بالانضمام إلى صفوف المنتصر ومنهم من ركب طريق الفرار . وبلغ من شدة انفعال بلبن وفرط غضبه ، حين بلغه خبر هذه الهزيمة ، أن أمر بقائده أمير خان فشُنق على أسوار أوده ، مركز إقطاعه ، فجاءت قسوة هذا الإجراء مذهلة لرجال الدولة مثيرة لقلقهم .

وسيّر بلبن حملة ثانية إلى البنغال لم يكن نصيبها بأفضل من نصيب سابقتها . ذلك أن طغرل كان على أثر انتصاره قد زحف

خارج حدود بلاده حتى بلغ لكهناوتى فانقض على جيش دهلى فأباده .

هنالك بلغ ارتياع السلطان أشده ، فقرر لوقته الخروج بنفسه إلى البنغال . فعهد بشئون الدولة إلى ملك فخر الدين ثم قصد إلى سمانه وسنام فطلب إلى ابنه بُغْراخان أن يصحبه فيما اعتزم عليه من حرب ، فى حين أوصى ابنه الآخر محمدا بمزيد الالتفات إلى ما يليه من أقاليم ، وأن يرقب الحدود بعين ساهرة حذر المغول .

وبرغم عنف موسم الأمطار وكثافة الوحل وكثرة المستنقعات فقد جدّ السلطان السير . حتى إذا بلغ حاضرة البنغال وجد أن طُغرل قد غادرها فرارا إلى چاچنكر وقد صحب معه كنوزه وصفوة من رجاله الأشداء . هذا كما اختفى من لكهنا وتى كذلك أغلب أعيانها خوف بطش السلطان ونقمته عليهم لتقاعسهم فى الحد من نفوذ الأمير البنغالى .

وأقسم السلطان ألاّ يبرح البنغال إلى دهلى قبل أن يوقع بطغرل ، ولو اقتضاه ذلك ركوب البحر وراءه . واستطاع رجال المخابرات السلطانية آخر الأمر الاهتداء الى معسكر الأمير الثائر فى مخبإ يتوسط الغابات ، فسقطوا عليه فى غفلة من الحرس . وأصاب أحد الجند طُغرل بسهامه وهو يحاول عبور أحد المجارى

المائية هربا ، فقطع رأسه وأسرع بها إلى مقام السلطان .

ولم يرجع بَلبَن إلى حاضرته إلاّ بعد أن أنزل بسكان لكهناوتى مذبحة قاسية لم تعرف الهند لها نظيرا فى تاريخها إلا القليل . وأوصى ابنه بغراخان، بعد أن ولاه البنغال، بسلوك طريق العنف والحزم معهم .

وظل هذا الأمير وخلفاؤه من بعده يحكمون البنغال ماينوف على نصف قرن،فى حين لم تستطع أسرة بلبن نفسهـــا أن تحتفظ بعرش دهلى بعد وفاة عميدها أكثر من سنوات ثلاث .

ولم يكتف السلطان بمـا أراق من دماء غزيرة فى الأقاليم الشرقية ، فبادر حال وصوله حاضرته إلى القصاص من كل من ثبت عليه أدنى اتصال بالثائر طغرل ورجاله .

هذا وكان بلبن قد وكل بابنه الأكبر محمد أمر الجبهة الغربية كما قلنا من قبل ، وكان بها حاميتان قويتان إحداهما بالملتان والأخرى بسمانة أقرب المراكز إلى المناطق التى كان يحتلها المغول .

وخرج هذا الأمير عام ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م لدفع خطر المغول عن لاهور ودبپالپور فنالته رماحهم . وقد حزن أبوه عليه حزنا شديدا عجل فى نهايته بعد قليل .

ويُذكر عن هذا الأمير ميله الشديد إلى مجالسة العلماء

والأدباء . وكانت ندواتهم عنده تدور على دراسة كتب الشعر والتاريخ والفلسفة كالشاهنامة وديوان سنائى والخاقانى وخمسه نظامى . وكان من بين كبار رواد هذا الأمير شاعر الهند الكبير خسرو الدهلوى تلميذ نظام الدين أوليا .

وبعث بلبن على أثر هذه الكارثة إلى ابنه الآخر بُغراخان يدعوه إليه ليوليه عهده ، لكنه آثر البقاء بالبنغال بعيدا عن مشاكل الملك بالعاصمة . ومن ثَم أوصى السلطان بالملك من بعده لحفيده كيخسرُو ابن الأمير الشهيد محمد .

ولقد وَلِى بلبن عرش الهند أربعين عاما حكم فيها البلاد بحزم ومقدرة عظيمة ، فدفع جحافل المغول عن حدودها كما قضى على كل ما شاع فى ملكه من فتن واضطرابات كثيرة .

وأضفى هذا السلطان على بلاطه تقاليد راقية رفيعة فألزم حاشيته ورجال دولته بمراسم معينة فى لباسهم وفى سلوكهم ومناصبهم على السواء . كما ألزم نفسه ورجاله بالتمسك الشديد بآداب الإسلام وفضائله ، ونشّأ أولاده عليها ، ودفع بنى قومه على التحلى بها ، حتى ليرُد المؤرخون صفوة عادات المجتمع الهندى اليوم وتقاليده الرفيعة إلى ما استنه منها هذا الأمير وخلفاؤه من بعده[1] . وشُهر بلبن ،

---

١ – Prasad. Med. India. pp 171,2

إلى جانب ذلك كلّه، برعايته للعلماء والأدباء مع برّه الشديد بالناس جميعا لا فرق عنده بين مسلم وهندوكى، وإن كانت ظروف البلاد فى حربها مع المغول قد دفعته اعتباراتها إلى إبعاد الأخيرين عن مناصب الدولة.

وضرب رجال البلاط فى دهلى صفحا عن مشيئة سلطانهم الراحل ووصيته لهم، فأجلسوا على العرش الأمير كيقُباذ بن بغُراخان، فكان اختيارا غير موفق حمل فى ثناياه نهاية هذه الأسرة.

ذلك أن السلطان الجديد لم يكن له من الجدارة ما يليق بسد الفراغ الكبير الذى تركه جده العظيم بعد موته.

ولئن كان هذا الأمير قد نُشّىء فى الواقع تنشئة طيبة منذ حداثته، وجهد القائمون على تربيته فى تثقيفه تثقيفا عاليا وبث الفضائل وحميد الخصال فى نفسه؛ إلا أن توليه العرش فى سن المراهقة، اذْ لم يكن يعدو السابعة عشرة، دون وجود نصحاء مخلصين له من حوله، قد أسّاس قياده لزمرة من أصحاب الأهواء أخذوا يزينون له الاستماع بمباهج الحياة وعبثها، حتى استجاب لهم وانصرف عن شئون الملك بكُليّته إليهم.

واستطاع رجل من أصحاب الطموح والأطماع بالبلاط، يدعى

نظام الدين ، أن يستأثر بتصريف الأمور بتعضيد ختنه فخر الدين أمير الجند بالعاصمة ، فراح ينتقص من حقوق الأمراء ويقصى عن مراكز الحكم أكفاءهم ، وفيهم أولئك الذين كانوا يخدمون الدولة بوفاء وجد وإخلاص منذ أمد طويل .

ومالبث نظام الدين أن تطلع إلى العرش نفسه. فهاهم أولاء الأمراء والقادة قد ألزمهم طاعته والخضوع لمشيئته. وهاهو ذا بُغراخان، اقوى ابناء بلبن، يقيم بالبنغال التى تبعد عن العاصمة مئات الأميال فلا سبيل يسيرا له إليه . فرتّب خطته على أن يبدأ أولا بالتخلص من الأمير كيخسرو ، وهو الذى كان بلبن قد عهد إليه أصلا بالعرش قبل موته ، فما زال بالسلطان حتى زين له اغتياله وحمله عليه ، فقُتل عند رهتان وهو قادم فى طريقه من الملتان إلى دهلى تلبية لدعوة السلطان.

وحين أثار مقتل هذا الأمير سخط رجال الدولة ، برز نظام الدين يلقى بالتبعة على خواجه خاطر وزير السلطان ، فمثل به شر تمثيل وطُوف به المدينة على حمار ثم قُتل. ولقى فى هذه الفتنة كذلك جملة من رجال بلبن المخلصين نفس المصير بتدبير من هذا الأمير الذى عرف كيف يجعل من السلطان أداة طيعة لتنفيذ مآربه وتحقيق أغراضه وأهدافه .

ونظر نظام الدين ومعـــه ختنه فخر الدين فرأيا معارضيهما

والساخطين عليهما يلوذون بالأمراء الخلجيين ويتطلعون إليهم فى هذه المحنة الجارفة. فحزما أمرهما على الإيقاع بهؤلاء الأمراء الذين، فضلا عن توليهم لمناصب هامة فى الدولة، كانوا وآباؤهم هم الذين أرسخوا فتوحات المسلمين فى البنغال والأقاليم الشرقية.

ولقد حاول بُغراخان صاحب البنغال أن يرد السلطان إلى صوابه فالتقى به فى جيش كبير عند أوده، لكنه ما لبث أن ارتد بعد قليل إلى طريقه القديم حتى انتهى به انغماسه فى العبث والمجون إلى الإصابة بالفالج.

وأدى اضطراب الأحوال وتناحر الأمراء فيما بينهم إلى أن ذهب فريق منهم إلى حريم القصر فأتوا بغلام من أبناء السلطان المريض ورفعوه على العرش.

هذا وكان الأمراء الخلجيون بدورهم قد أحسوا بما كان يدبر لهم فى الخفاء فخرج بهم زعيمهم جلال الدين فيروز مع أتباعهم وجندهم إلى ظاهر العاصمة.

هنالك حسبها الأمراء الأتراك بدورهم فرصة سانحة لخلاص الأمر لهم. لكن أبناء الأمير فيروز الخلجى سرعان ما أحبطوا خططهم باختطاف السلطان الصبى والفرار به إلى معسكرهم.

وإن هى إلا أيام قليلة حتى أجتاح الخلجيون المدينة بجندهم

فقصد فريق منهم قصر المرايا، حيث كان كيقباذ طريح الفراش، فقتله رجل منهم انتقاما منه لأبيه . وألقيت جثته بنهر چمنه فى التاسع عشر من المحرم عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م .

وبمقتل كيقُباذ انتهى أمر سلاطين المماليك وانتقل الملك إلى أيدى الخلجيين .

# الخلجيون

يُرجح محمد قاسم هندو شاه ، صاحب تاريخ فرشته ، نسب الخلجيين إلى الترك ، ويحتج على ذلك بترداد ذكرهم فى تاريخ ملوك غزنة خصوصا أيام حكم سبكتكين وابنه محمود[1] . فى حين ينسبهم نظام الدين أحمد ، صاحب طبقات كبرى ، إلى قليج خان أحد أصهار جنكيزخان[2] ، حيث تقول الرواية بأنه نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ثم حرف اسمه بعد ذلك إلى خلج الذى ينسب إليه الخلجيون . ويقول بهذا الرأى كذلك ضياء الدين بارانى صاحب تاريخ فيروز شاه محتجا بكراهية الخلجيين للترك .

ومهما يكن الأمر فإن الخلجيين قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها ، فصاروا يعدون أنفسهم أفغانيين أكثر من أى شئ آخر .

---

١ ــ تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندو شاه ــ ص ٨٨، ٨٩

٢ لا تزال بعض قبائل الهزرا بمناطق بلاد الأفغان الجبلية محافظة على المقومات الجنسية واللغوية المغولية غالبا حتى اليوم ، وقد نشر الأستاذ جابيلنز بحثا شيقا فى هذا الموضوع بمجلة المستشرقين الالمانية Zdmy Bd XX S 326-8

وبدأ نجم هؤلاء الأمراء فى الظهور بالهند ستان أيام محمد الغورى وقطب الدين أيبك وشمس الدين التمش ، فكانوا حكاما على البنغال والأقاليم الشرقية كما ولوا كذلك كثيرا من المناصب الرفيعة الأخرى فى الدولة . والتف الأمراء الأفغان حولهم ببلاط بلبن وخلفائه فى جبهة تناهض نفوذ الترك الآخرين وغيرهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ارتقى زعيمهم جلال الدين فيروز شاه عرش دهلى عام ٦٨٩ م / ١٢٩٠ هـ وكان فى السبعين من عمره.

ولم يتقبل أهل العاصمة حكم الخلجيين أول الأمر بقبول حسن لفرط ما ارتكبته قواتهم معهم من ضروب القسوة من جهة ، ولبشاعة مقتلهم لسلطانهم المفلوج من جهة أخرى. ولكن السلطان الشيخ ما لبث، بحسن سياسته وعدله ومودته، أن تألف القلوب حوله من جديد . فقد أثر عنه أنه ، لفرط بغضه لإراقة الدماء ، كان يكتفى بنفى قطاع الطرق إلى البنغال دون قتلهم . كما بلغ من تسامحه كذلك أن عفا عن ملك چجو ، ابن أخى بلبن وحاكم إقليم كرّه ، حين وقع أسيراً فى يده ، وكان قد زحف إلى العاصمة فى جيش كبير بدعوى أحقيته فى العرش ، فاكتفى فيروز شاه بخلعه عن إمارته وتنصيب ابن أخيه جلال الدين الخلجى مكانه .

ولم يكن تسامح جلال الدين وقفا على المسلمين دون غيرهم. فقد خرج من عاصمته إلى جهاين ومالوه بعد ما بلغه من انتهاب راجا رنتنبهور لها، فما إن رأى هـــذا الأمير الهندوكى يحتمى بإحدى حصونه خوف بطشه حتى رجع عنه حقنا لدماء الرعية.

على أن بُغْض السلطان الخلجى الشيخ لإراقة الدماء لم يكن ليقعده بطبيعة الحال عن الذب عن بلاده إذا ما اكتنفتها الاخطار أو تهددها الغزو. فما إن عاد المغول إلى الهندستان من جديد يهاجمونهـــا بجحافلهم حتى تصدى لهم جلال الدين وأنزل بهم هزيمة منكرة أسر فيها بضعة ألوف منهم أنزلهم بضواحى دهلى. وهم الذين عرفوا هناك بالمسلمين الجدد. وقد صارت محلتهم مثابة للتآمر والاضطرابات التى جرّت على دهلى كثيرا من المتاعب فيما بعد.

وأذنَ جلال الدين لابن أخيه علاء الدين عام ٦٩٤ هـ/١٢٥٤م بالخروج إلى الدكن غازيا، وكان هذا الأمير واسع الأطماع طموحا فبيت فى نفسه أن يبتعد عن دهلى ويقيم لنفسه هناك ملكا.

وبرغم ما كان معه من جند قليل لا يجاوزون ثمانية آلاف فارس، فقد استطاع أن يغزو بهم إمارة ديوكر الهندوكية الواسعة ويهزم صاحبها رام جندرا وسنكره ديو ثم عاد إلى مقره بكرّه

محملا بغنائم طائلة كانت تضم فيما تضم أكداسا من الجواهر الثمينة وأربعين من الفيلة وبضعة آلاف من رءوس الخيل .

وطار السلطان فرحا بما حازه ابن أخيه من انتصارات، وكان إذ ذاك فى نواحى كوليار ، فعزم على الخروج بنفسه للقائه .

وكاد جلال الدين يستجيب لتحذيرات بعض خلصائه وارتيابهم فى نوايا ابن أخيه . حتى إذا ما أقبل عليه الماس بك أرسل بخان برسالة من علاء الدين يلوّح له فيها بقتل نفسه أو أن يضرب وكنوزه فى الأرض على غير هدى إذا ما عدل السلطان عن تشريفه بالقدوم إليه ؛ — أصم أذنيه عن مقالة رجاله برغم مزيد إلحاحهم عليه وتبصيرهم إياه بسوء نواياه ، فعزم على الخروج إليه من فوره .

وهكذا عبر جلال الدين الكنج فى فئة قليلة من رجاله . فما إن بلغ مقام علاء الدين فأقبل يحييه ، حتى انهالت ضربات السيوف عليه وعلى رجاله ثم نودى فى الناس من بعد ذلك بالأمير الغادر سلطانا عليهم .

وروّع الخبر دهلى فبادر الأمراء ورجال البلاط بالالتفاف حول ملكة جهان زوجة جلال الدين التى بلغ بهم الغضب والحزن

مبلغه لاغتيـــال السلطان الشيخ الرحيم بهذه الأساليب الوحشية الوضيعة .

وبادرت هذه السيدة ، بحسن تدبيرها ، فغمرت الزعماء بالهبات والعطايا كما نثرت الفضة والذهب على عامة الشعب بالمجانيق حتى اجتمعوا جميعاً على تنصيب ابنهـــا ركن الدين إبراهيم على عرش دهلى .

على أن علاء الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها وأرغم سلطانها الشاب على الفرار إلى الملتان . وهكذا جلس هـذا الأمير المغامر الطموح على عرش الهند عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥ م فأجريت الخطبة له وضُربت السكة باسمه .

وغزا المغول أرض الهند من جديد فانبرى لهم علاء الدين فى حروب طويلة استمرت الى عام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٤ م حتى رد غائلتهم عن البلاد . وكان أكبر عون له فى حروبه هذه قائده الكبير غازى تُغلُق ومعه ظفر خان وألغ خان . وكان علاء الدين قد نهج كذلك نهْج سلفه العظيم بلبن بإقامة حصون قوية مستديمة عند الحدود الغربية وتزويدها بالجند المدرب القوى والعتاد الحربى .

ولقد بدأت هذه الحروب فى السنة الثانية من حكم هذا السلطان حين خرج الأمير داود المغولى من بلاد ما وراء النهر فى عشرة

آلاف مقاتل يبغى الاستيلاء على الملتان والسند والپنجاب ، فتصدّى له ألغ خان قائد دهلى وأنزل به هزيمة شديدة .

على أن هؤلاء الغزاة لم يثنهم عن عزمهم ما أصيبوا به من خسائر فادحة ، فعادوا إلى الهند بعد قليل ، فالتقى بهم القائد الخلجى ظفر خان فى معركة كبيرة أسر فيها منهم الفيْن ومعهم قائدهم فسيقوا جميعا إلى دهلى مصفدين فى الأغلال .

وكان أخطر هجوم مغولى تعرض له علاء الدين هو الذى وقع عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م حين زحف قُتلق خواجه على راس قوات كثيفة صوب دهلى . لكن السلطان ومعه قائداه ألغ خان وظفر خان ثبتوا لهم حتى تَم لهم النصر بعد قتال عنيف تضاعفت فيه خسائر الفريقين وسقط فى ميدانه القائد الخلجى المحنك ظفر خان .

وظهر فى الميدان على أثر هـــذه الواقعة جيش جديد من المغول بقيادة زعيمهم تارجى ، لكن الأمير نظام الدين تصدى له وشتت شمله .

ولئن كانت حِدّة الخطر المغولى قد انكسرت على أثر هـذه الهزائم المتلاحقة التى نزلت بهم ، إلا أن غزواتهم طفقت مع ذلك تتوالى على مناطق الهند الغربية حتى تمكن غازى ملك تُغلق ، بفضل حنكته الحربية وشدة مراسه وماأنزله بهم من ضربات

شديدة، من أن يُبْعِد خطرهم عن سلطنة دهلى تماما .

وإذساد الاستقرار والأمن سلطنة دهلى من جديد ، انصرف تفكير علاء الدين إلى الغزو والفتوح . فأخذ يمهد لذلك بالعناية البالغة بأمر الجيش وتقويته مع تهيئة مايحتاج إليه من مصانع للسلاح وعمال لها ، إلى جانب إنشاء الحصون لاسيما بمناطق الحدود عند سمانه ودبالپور بالپنجاب . وكان يعاونه فى ذلك كله نخبة من قواده الممتازين الذين كادت فتوحاتهم تشمل شبه القارة الهندية بأكملها .

ولقد بعثت فتوحات هؤلاء القادة ، وماجلبوه من كنوز طائلة ، نشوة مشوبة بقدر من الغرور فى نفس علاء الدين حتى تراءى له أن يسيربهم إلى فتح الدنيا بأسرهـــا على غرار ما فعل الإسكندر المقدونى من قبل . بل لقد ذهب به الحال إلى أبعد من ذلك، فغـدا يصرح بأن قادته هم منه بمنزلة الخلفاء الراشدين من النبى الأكرم ، فهو قادر بهم على تنظيم الدعوة لدين جديد يخرجون للتبشير به فى أركان المعمورة وسيوفهم مشهرة .

وهنا يقول المؤرخ ضيابارانى صاحب تاريخ فيروزشاهى ، وكان معاصرا له ، إن القاضى علاء الملك عم السلطان بادر بالاعتراض على علاء الدين فى قوة وحزم حين سأله النصيحة فى هذا الأمر . فقال له بأنّ الدين إنما هو وحى من عند الله وليس بأمر وضعى

من صُنع البشر، وأن النبوّة لم يُختص بها الملوك أبدا أو كانت من نصيبهم عموما وإن كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيبا . وهذا خان المغول چنكيز ، برغم ما أهرق من دماء فى بلاد المسلمين ، لم يمكنه حمل المقهورين على الدخول فى ملته ، بل إن ماحدث هو العكس، فقد أقبل المغول الفاتحون أنفسهم يدخلون فى دين الله أفواجا.

أما عن مسألة فتح العالم فقد أبان القاضى للسلطان بأن العصر يغاير تمام المغايرة زمان الإسكندر فلا يقاس عليه ، هذا فضلا عن أنه كان للمقدونى وزير ناصح حكيم هو أرسطو وهو مالا نظير له عند علاء الدين .

وختم القاضى نصيحته للسلطان بأن أوصاه بقصْر جهوده وتركيزها فى إخضاع الهندستان كلها لحكمه ، واقرار الأمور فيها بالقضاء على الثورات والفتن وتأمين الحدود فى وجه المغول .

ولقى كلام القاضى أذنا مصغية من علاء الدين فبعث بقائديه ألغ خان ونصرت خان عام ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م للاستيلاء على حصن رَنتنبهور فنفذا إليه فى قوات كبيرة عبْر صحراء الراچپوتانا بعد أن استوليا فى طريقهما على حصن جهاين.

وفيما كانا يحاصران هذه القلعة ، أصابت إحدى قذائف المدافعين الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة جرته إلى حتفه فى

مدى يومين . ومالبث رانا همير صاحب الحصن أن خرج إلى المسلمين فى مائتى ألف من الجند اجتمعوا له ، فأرغم بهم ألغ بك على الارتداد إلى قلعة جهاين بعد خسائر كثيرة .

هنالك بادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هـــذا الحصن ، ولـكنه فوجىء فى الطريق بتآمر ابن أخيـــه سليمان شاه اتكخان على حياته، ومعه أتباعه من المسلمين الجدد ، قصد انتزاع العرش منه على غرار مافعله هو نفسه بعمه جلال الدين من قبل . على أن علاء الدين ، برغم ماأصابه من جروح شديدة ، أفلح آخر الأمر بالقضاء على المتآمرين جميعا .

وتابع الأمير الخلجى سيره إلى غايته فاكتسح فى طريقه مالوه ودهار . حتى إذا ماوصل حصن رنتنهبور قابله أصحابه بمقاومة عنيفة أطال من أمدها جنوح بعض رجال الدولة بدهلى إلى التآمر على السلطان فى غيبته وإشاعتهم الفوضى فى المدينة .

وأصر السلطان على ألا ينصرف عن الحصن قبل الاستيلاء عليه فبعث بقائده ألغ خان إلى دهلى فأقر الأمور فيها بعد عناء شديد .

واستمات المدافعة فى الدفاع عن قلعتهم فى شجاعة خارقة وثبات عظيم فلم تسقط فى أيدى علاء الدين إلا بعد عام من المقاومة المجيدة . ومن ثم آب السلطان إلى عاصمته فى نهاية عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م

بعد أن أمر بالحصن فهدم وسويت اسواره بالأرض . وصارت الإمارة كلها لألغخان .

وأغرى هذا الانتصار الكبير علاء الدين على التطلع إلى اقتحام موار أمنع إمارات الراجپوتانا وأعظمها . ولم يفت فى عضده ما حصنت به الطبيعة هذا الإقليم من جبال شامخة ودروب وعرة وغابات كثيفة موحشة ، إلى جانب حصونه الكثيرة وفيها حصن چيتور الذى قُدّ من الصخر على قنة جبل وعر كفلت له مناعته رد كل فاتح أوغازعنه ، فلم يفكر أحد من قواد المسلمين بالهند من قبل فى محاولة النفاذ إليه .

على أن علاء الدين ماعتم يدبر لرانا بهيم صاحب چيتور مايدبر حتى أفلح فى استدراجه إلى خارج حصونه ثم أوقعه فى أسره . وهنا تقول الرواية إن السلطان عرض على أسيره أن يرده إلى مقامه إن سير إليه ابنته پدمنى . وكانت هذه الأميرة الهندوكية على جمال رائع وفتنة ذاع أمرها فى كافة أرجاء الهند .

وأجمع رجال الحصن ، حين بلغهم الخبر ، على أن يبعثوا إلى سيدهم سرا بقدر من السم يضع به حدا لعذابه فى الأسر وينقذ معه بذلك شرف قومه ، فإذا بالأميرة الجميلة ، وكانت ذات عقل راجح وتدبير سديد ، تنبرى لهم معارضة فتعلن إليهم عزمها على المسير إلى مقام السلطان

على خطة محكمة، أسرتها إليهم، فيها الخلاص والسلامة لأبيها ولها معا.

وبلغ ركب الأميرة معسكر السلطان ومعها أحمالها فى الهوادج. فما إن توسطت القافلة مضارب علاء الدين حتى انشقت هوادجها عن سبعمائة من فدائي الهنادكة الأشداء الذين أفلحوا بعد قتال مرير فى إنقاذ أميرهم ورده وابنته إلى حصنه بسلام.

ولم يكن علاء الدين ليسكت عن هذا الحادث، فاقتحم الحصن بنفسه فى الغداه وأعمل ورجاله السيف فى حاميته فى عنف بالغ، وإن لم يستطع على كل حال أن يظفر بالأمير الهندوكى وابنته أحياء، إذ آووا مع جملة من الأعيان إلى بعض الكهوف حيث أهلكوا أنفسهم (١).

وتبع سقوط هذا الحصن استيلاء قوات السلطان على ما لوه ثم ماندو ويوجين ودهرا نجرى وچندرى. وهكذا لم ينصرم عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٥ م حتى كانت مملكة علاء الدين الخلجى تمتد من الپنجاب إلى البنغال ومن جبال الهملايا إلى تلال الوندهايا، وهى الرقعة التى اصطلح المؤرخون على إطلاق اسم الهندستان عليها.

واتجهت أنظار صاحب دهلى من بعد ذلك إلى الدكن. وكان

---

١ ــ تاريخ فرشته ص ١١٥ ــ هذا وتذكر بعض المصادر الهندوكية أن الاميرة كانت زوجة لصاحب الحصن لا ابنة له.

هذا الإقليم، إلى جانب بعده عن العاصمة، يقوم على حراسته عصبة من أمراء الهند الأقوياء.

وخرج جيش المسلمين من حاضرتهم وعليه القائد كافور، وكان مملوكا جبشيا قديرا جلبه القائد نصرت خان إلى سيده من منطقة خليج كمباى.

واخترق الجند مالوه ثم الكجرات، أعظم أقاليم الهند التجارية وأغناها وأطيبها مناخا، ليهاجموا راى كران الذى ماعتم أن فر مع إبنته إلى صاحب ديوكر.

هنالك انضم ألغ خان ورجاله إلى قوات كافور فساروا جميعا إلى ملجىء غريمهما، فما لبثا أن ظفرا به وبمجيره بعد قتال عنيف. على أن السلطان، بعد أن زف ابنة راى كران إلى خضرخان ولى عهده، مالبث أن رد صاحب ديوكر وابنه إلى بلادهما مكرمين، فضمن بصنيعه هذا دوام ولاء هذا الأمير الهندوكى ووفائه له.

وعلى أى، فقد بعثت إنتصارات كافور الرعب فى قلوب بقية أمراء الدكن وما يليها جنوبا. فما عتمت تلنجانا قاعدة إقليم أورانكل أن فتحت أبوابها للغزاة المسلمين عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩ م، وافتدى أميرها، براتاب رودرا ديوا كاكاتيا، قومه وعشيرته بكنوز طائلة حملها إلى دهلى الف بعير كادت تنوء بها، عدا مئات من

الفيلة وألوف من رءوس الخيل .

وشجع ما وصل دهلى من أسلاب وغنائم ، حكومتها على المضى فى الفتح طلبا للمزيد من الأرض والكنوز . فغادر كافور بجنده العاصمة من جديد فى جمادى الآخرة من عام ٧١٠هـ/١٣١٠م فبلغ إقليم مبر ، فى الجنوب الشرقى من الدكن ، ليُخرج له صاحبه، فير بلال ، من أكداس الجواهر والأموال ما لم ينل من ضخامتها ما وهبه السلطان منها لرجاله وجنوده فى سخاء بالغ .

ولم يرجع المحارب الحبشى الجسور عن الدكن حتى تم له إخضاع الجنوب الهندى كله ، فلم يهل عام ٧١٢هـ / ١٣١٢ م حتى كان سلطان الخلجيين يظل شبه القارة الهندية بأكملها .

واتجه علاء الدين من بعد ذلك إلى تنظيم شئون مملكته الواسع وتدعيم سلطانه بعد أن تحققت آماله فى الفتح، وقد صار له جيش قوى غدت به البلاد فى مأمن تام من الغزو المغولى ، من جهة، وساعد على كسر شوكة الأمراء والنبلاء من جهة أخرى .

ولقد قامت سياسة هذا الأمير الخلجى الداخلية على قدر غير قليل من الشدة والعنف إذ وضع يده على جميع الملكيات الزراعية وأثقل كاهل الهنادكة خصوصا بالضرائب . كما نهج نهج سلفه بلبن فى إقامة شبكة قوية من الجواسيس لتنقل إليه أخبار

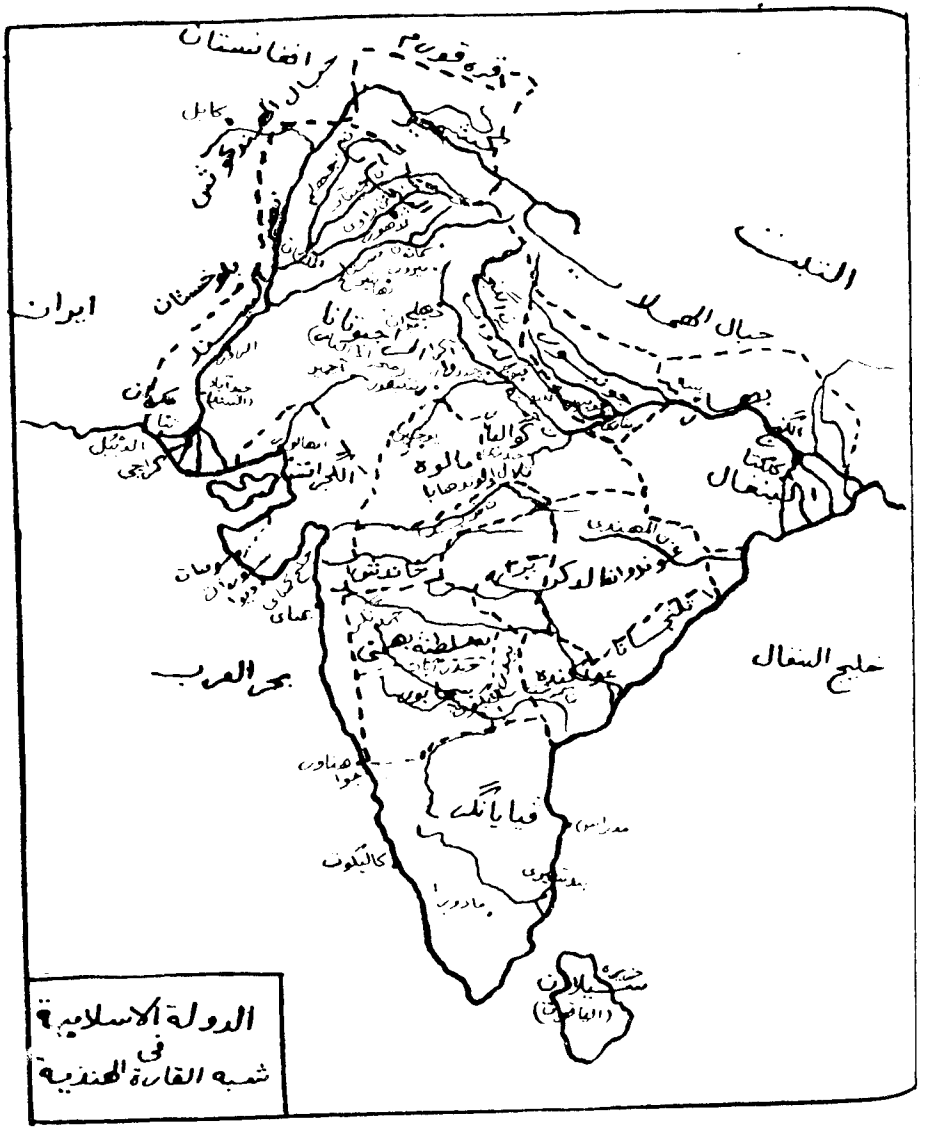


الدولة الاسلامية في شبه القارة الهندية

الناس خاصتهم وعامتهم على السواء .

وتعرض هذا السلطان لنقد رجال الدين الشديد حين راح يستأثر لنفسه ، دون بيت المال، بأموال الدولة وما حمله جنوده إليه من كنوز الهند الوفيرة ، إلى جانب مغالاته فى فرض الضرائب بما يتنافى مع قواعد الشرع الشريف . وقد اعتذر لشيوخه هؤلاء بضرورة ما ذهب إليه طلبا لاستتباب الأمن فى بلاده الواسعة وللقضاء على ما ينشب فيها من فتن واضطرابات .

وبهذا كان علاء الدين أول سلطان مسلم بالهنـــد جعل من إرادته المطلقة وحدها دستور الحكم ، فقلده فيها كثيرون ممن جاءوا بعده .

وتشدد هذا الأمير فى تحريم الشراب ببلاده ، وجعل من نفسه القدوة لقومه فحطم كل ما كان ببلاطه من أدواته . على أنه اشتط فى معاملة الهنادكة فمنعهم من اتخاذ المراكب أو التزين بثمين الثياب أو السلاح .

وصادفت النظم الإدارية والمالية التى وضعها علاء الدين قدراً كبيرا من التوفيق والنجاح . وأدت رقابته على الأسواق والأسعار مع تشدده فى معاقبة مدلسى التجار إلى أن عم اليسر

والرخاء البلاد[1]. وهنا تقول الرواية بأنه كان يأمر بالمطفف فيُستكمل الميزان بقطعة تقدُّ من لحمه حيا، عظة لغيره وعبرة .

كذلك لم يهمل علاء الدين تعمير بلاده فأقام بها كثيرا من المنشآت النافعة ، كما عنى بنشر الثقافة وأسبغ رعايته على علماء زمانه وشعرائهم من أمثال الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوى .

ومن البديهى أن أمراء المسلمين والهنادكة على السواء ، الذين سلبهم السلطان كل ما كان لهم من نفوذ وامتيازات، ومعهم التجار الذين غدت أرباحهم لا تعدو القدر الضئيل الذى تحدده الدولة لهم وتراقب تنفيذه فى صرامة بالغة حرصا منها على رخاء الشعب ؛ـ هؤلاء جميعا كانت نفوسهم تختزن الغضب وتفيض بالسخط ، فلم يكن يمنعهم من الجهر به إلا ما يعلمونه ، علم اليقين ، من عظم بطش الأمير الخلجى وشدة بأسه .

على أن علاء الدين حين تقدمت به السن ، ذهب فى كثير من شئونه ينقاد إلى آراء قائده كافور الحبشى وعصبته من خثالة القوم ، الذين كان قد أتى بهم ليقوموا على خدمته مكان الأمراء

---

١ — Prasad, India p 210

الذين أبعدهم عن بلاطه ، فما عتموا أن بلغوا أعلى المناصب . وبلغ من تأثيرهم عليه أن أهمل تعليم أبنائه بتحريض من قائده هذا .

وما إن مات علاء الدين فى عام ٧١٥هـ/١٣١٦م حتى ولى الأمر كافور وصيا على العرش بعد أن أجلس عليه حدثا صغيرا من أولاد سيده ، يدعى شهاب الدين عمر خان ، كان قد حمل السلطان قبل وفاته على البيعة له .

وعلى أى ، فإن علاء الدين الخلجى يُعد بحق من أعظم ملوك المسلمين فى عصره. فقد توفرت له صفات الجندى الطموح الجسور والإدارى الحازم الموفق ، فقاد جنده حتى دانت له شبه القارة الهندية كلها ، كما دفع عن حدوده الخطر المغولى الرهيب ، وأقر الأمن فى كافة ربوع بلاده ، ونظم الجهاز الحكومى تنظيما شاملا مكينا كان من أبرز مظاهره توفير الأقوات لسكان الهند جميعا بأسعار فى متناول أدنى طبقاتها ، وهو صنيع انفرد به علاء الدين دون حكام عصره جميعا .

وساق كافور البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية ، إذ طفق يعمل على إزاحة الأمراء الكبار من طريقه، إما بالقتل أو بسمل الأعين، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فلم يسلم من بطشه أحد حتى ملكه

جهان [١]، زوجة علاء الدين نفسه، إذ جردها من أملاكها وأموالها وألقى بها فى الحبس. وكُتبت النجاة من هذه المحنة للأمير مبارك خان، الذى ولى العرش من بعد، إذ اكتفى كافور بزجه فى السجن .

كذلك أقصى المغتصب كل من بقى من رجال علاء الدين القدامى بالبلاط وعهد بوظائفهم إلى رجال من أتباعه وبطانته. حتى وفق فريق من مماليك علاء الدين آخر الأمر، بمعاونة أمير يُدعى ملك شير، فى الفتك بكافور وتخليص البلاد من شروره وعصبته فعهدوا بالملك إلى الأمير الخلجى مبارك خان [٢].

وارتقى قطب الدين مبارك شاه عرش الهند عام ٧١٦هـ/١٣١٦م فبدأ حكمه بداية طيبة، فأطلق سراح المعتقلين ورد الأراضى والأملاك المغتصبة إلى أصحابها ورفع كثيرا من الضرائب عن كاهل التجار .

ثم وجه قائده خسرو إلى الكجرات والدكن للقضاء على الثورات التى نشبت هنـــاك، فهزم راجا هربال ديوا فى ديوكر ثم سار إلى تلنجانا فباغت فى ثلاثمائة من رجاله أورانكل، وكان يحميها عشرة آلاف من الفرسان مع عدد كبير من المشاة،

---

١ — تعرف بهذه التسمية الزوجة الأولى لكل سلطان ومعناها «ملكة الدنيا»

٢ — يختص الأمراء عادة بلقب خان فى حين يلقب السلطان بالشاه .

فأنزل بهم مذبحة قاسية غنم من ورائهـــا كثيرا من الأموال والكنوز . ومالبث أميرها أن خرج على أثر ذلك من حصنه فأعلن استسلامه له على جزية سنوية طائلة وأموال كثيرة .

على أن السلطان الجديد ما عتم بعد قليل أن انقلب ينغمس فى الشهوات والمبـــاذل إلى درجة بشعة حتى اتخذ لباس النساء وخرج به فى الطرقات قاصدا دور الأمراء ليواصل مجونه بها . بل لقد كان كثيرا مايُحرض من فى صحبته من بنات الهوى على معابثة كبار الأمراء الذين كانوا يُرغمون على مجالسته بالبلاط .

ووثب عليه آخر الأمر قائده خسرو فقتله وجملة من الأمراء الخلجيين . وبموت هذا السلطان انتهى حكم الخلجيين بدهلى .

وجلس خسرو من بعده على عرش الهند، عام ٧٢٠هـ/١٣٢١م وتلقب بناصر الدين ، وكان من أصل هندوكى وضيع بالكجرات. فما لبث أن أطلق أيدى أتباعه فى البلاد يعيثون فيهـا فسادا ، فنهبوا الناس وانتهكوا الحرمات وأشاعوا الظلم . ولم يترك هو نفسه أى أميرة من زوجات علاء الدين وقطب الدين وبنـاتهما إلا وقدا ستحياها ثم خلعها على بعض أصحابه . هذا كما اغتصب أموال الدولة وراح يبذل منها لبعض كبارها بغيه شراء تعضيدهم له وتأييدهم .

وهدف خسرو إلى إحياء الهندوكية من جديد ، واسترجاع مجد الهنادكة القديم وسلطانهم بالتالى، فجمع حوله عصبة من مواطنيه عاهدوه على المضى معه فى هذا الأمر ، فراحوا يحطون من قيم الإسلام فى استهتار وجرأة بالغة حتى اقتحموا المساجد[1] فأقاموا أصنامهم وأوثانهم بها وجعلوا من المصاحف قاعدة لها. ولو لم يُشغل الأمراء الهنادكة فى هذه المحنة الجامحة بتحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة عن الاستجابة التامة لدعوة خسرو هـــذه ، لنزل بالحكم الإسلامى وأصحابه بالهند ضربات قاصمة دون شك .

وأثار سلوك خسرو وقومه ثائرة الأمراء العلائيين وأتباعهم فبعثوا من فورهم بأمير منهم يدعى فخر الدين جونه إلى أبيه غازى ملك تُغلق مستنجدين بهذا القائد الحازم صاحب الفضل الأكبر فى دفع المغول عن سلطنة دهلى .

وخرج تُغلق من ديبا لپور فسارع جميع الأمراء بالانضمام بجنودهم إليه فى زحفه صوب العاصمة .

ودفعت الكبرياء بمغو لتكن أمير الملتان إلى التقاعس عن نصرة المسلمين إذ كان يرى فى نفسه ندا لتغلق فلا ينطوى تحت

---

١ — تاريخ فرشته أول ص ١٢٨

إمرته ، فبادر القائد بيرم خان بالقضاء عليه وضم قواته إلى الجيش الزاحف .

ولم يغن خسرو ما بذله من أموال كثيرة لشراء الجند والقادة إلى صفوفه، فأصيب بهزيمة حاسمة انطلق على أثرها هائما على وجهه ليختفي في مقبرة وهو في طريقة إلى چانيت ، ولكن مطارديه ما لبثوا أن قبضوا عليه وعلى أخيه فأوردا ورد الردى في آخر رجب من عام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م .

وهكذا أنقذ غازي ملك تُغْلُق مرة أخرى مُلك المسلمين بالهند من محنة قاسية قاصمة ، كما أنقذه من هول المغول من قبل .

واستقبلت المدينة منقذها استقبالا منقطع النظير ثم راحت تعرض عليه عرشها ، فلم يقبله إلا بعد أن تأكد لديه عدم وجود وريث شرعي له من صلب السلطان علاء الدين الخلجي ولي نعمته .

# آل تُغلق

أرتقى غازى ملك تُغلُق عرش دهلى فى شعبان من عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م باسم السلطان غياث الدين تغلق . وهو تركى الأب من قوم چغتاى زُطتى الأم من البنجاب ، بدأ حياته جنديا[1] بسيطا فظل يرتقى بجده واجتهاده حتى بلغ مرتبة القيادة . ومالبث أن لمع نجمه إبان حكم السلطان علاء الدين الخلجى حين ساهم بجهود بارزة فى دفع المغول عن الحدود الغربية ، ثم طفق ينزل بهم من بعد ذلك مزيدا من الهزائم حتى انجاب خطرهم عن البلاد .

وجهد تُغلق فى تدعيم ملكه واستعادة سلطنة دهلى سابق هيبتها ونفوذها، فبدأ بإحياء تعاليم الإسلام فى حكومته، ورد الأمراء والأعيان ما اغتُصب من أملاكهم وامتيازاتهم، كما أحاط بالإكرام والعناية كل من بالبلاد من الأمراء الخلجيين .

كذلك نجح غياث الدين فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كانت قد ضاعت من حوزة دهلى . فبعث بابنه ألغ خان الى

---

١ ــ تاريخ فرشته أول ص ١٣٠

الجنوب فانتزع تلنجانا من أيدى براتاب ديو الثانى راجا أورنكل وضمها إلى ملكه . ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كان قد انتهز فرصة ضعف الدولة أيام مبارك شاه الخلجى فنفض عنه طاعة السلطان ورفض إرسال الجزية إليه . وبأسره ختم دور هـــام لعبته هـــذه الإمارة فى تاريخ جنوب الهند . وسار هو بنفسه إلى الأقاليم الشرقية حتى بلغ البنغال فأقر له بالطاعة أمير هاناصر الدين حفيد بغراخان بن بلبن .

ونهج هذا السلطان نهج علاء الدين الخلجى فى الاحتفاظ بجيش نظامى قوى تقوم الدولة بالإنفاق عليه ، كما نظم الأداة الحكومية وطهرها مما لحق بها من فساد أيام مبارك شاه الخلجى وقائده خسرو ، وحرص على إشاعة العدل بين الناس جميعا .

كذلك أنشأ غياث الدين نظاما محكما للبريد لم تعرف الهند له ضريبا من قبل فى دقته وسرعته ، حتى بلغت العاصمة أخبار الرحالة العربى ابن بطوطة بعد وصوله مصب السند بأيام خمسة قطع فيها البريديون مايزيد على تسعمائة ميل ، هى المسافة بين المكانين ، فى طريق آمن معبد . وقد أشاد هذا الرحالة بما كانت عليه الهند من تقدم ومدنية فى عهد هذا السلطان وخلفائه . وسنشير إلى ذلك كله فى موضعه بقدر من التفصيل .

وشجع تغلق الناس على تعمير الأرض وفلاحتها فأصلح من طرائق الرى، وشق كثيرا من الترع والقنـــوات وخفّض من خراج الأرض :

ولقى هذا السلطان حتفه فى ربيع الأول من عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م على أثر إنهيار أحد قصوره به. وينسب بعض المؤرخين تدبير هذا الأمر لابنه وولى عهده فخر الدين جونه ألغ خان مع الشيخ نظام الدين أوليا الذى كان على خلاف كبير معه ، فى حين يقول آخرون بانقضاض صاعقة على البناء فهدمته .

وخلف الأمير فخر الدين أباه وتسمى بمحمد تغلق ، فاستهل حكمه ببذل المال والعطايا لرجاله ورعاياه فى سخاء بالغ ، حتى قيل إنه حين وفد العاصمة قادما من تغلق آباد كان فى ركابه جملة من الفيلة المحملة بالذهب والفضة راح فيا لوها ينثرون أحمالها على الناس . وترامت أخبار هبات السلطان وكرمه إلى خارج حدود الهند فوفد إلى بلاطه جموع من أهل العراق وخراسان وفارس وبلاد ماوراء النهر طمعا فى نواله وعطائه .

وكان من بين الوافدين عليه كذلك طائفة من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب . ذلك أن محمد تغلق لم يكن من رعاة العلوم والفنون فحسب بل كان هو نفسه من بين طليعة المشتغلين بها

والضليعين فيها فى عصره . فمنثوراته ومنظوماته الفارسية والعربية على السواء، تشهد له بالذوق الأدبى الرفيع مع حسن السبك وجمال الصورة . هذا إلى جانب عنايته الفائقة بتجويد فن الخط والنقش، وتمكنه المكين فى علوم الفلسفة والحكمة والمنطق حتى نبغ فى تشخيص الأمراض وقام على علاج الناس بنفسه. ولعل تعمقه فى دراساته وأبحاثه الطبية إنما كان استجابة وصدا لإنسانيته الرقيقة التى دفعته إلى إقامة الكثير من دور الشفاء وملاجىء العجزة وموالاة الإشراف عليها بنفسه .

وقد تحدث ابن بطوطة حديثا طويلا عن هذا السلطان فذكر له كثيرا من الفضل والعلم، ولم ينكر ماعرف عنده من غرائب الأطوار الطباع التى كانت تدفعه فى بعض الاحيان إلى أن يأتى بأى شحاذ يصادفه على بابه فيرفعه بسخائه المذهل إلى مصاف الأثرياء المعدودين، أو يسقط على أحد سراة قومه فيذيقه الوان الفاقة والحرمان .

وقد عاش الرحالة العربى بالهند سنوات ثمانية ، فَولى قضاء دهلى كما سفر لها بالصين . وغادرها عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م بعد أن سجل فى مذكراته الكثير عن عادات المسلمين والهنادكة هناك فى دقة يؤيدها مؤرخوا الهند أنفسهم عن ذلك العصر[1]

---

١ ــ رحلة ابن بطوطة طبع باريس ثالث ص ٢١١ ــ ٢١٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

وعلى أى ، فقد كان هذا السلطان صاحب مُثل فى تفكيره وخططه. ولو أن الظروف كانت قد واتته فى تحقيق مشروعاته العمرانية والإجتماعية التى رسمها لأفادت الهند منها خيرا كثيرا .

وتعرض محمد تغلق بدوره لخطر الغزو المغولى ولما تستقر بعد أمور الدولة عقب وفاة أبيه . ذلك أن ترمشيرين خان بن داودخان زعيم قبائل الأولوس الچغتائيين ، وكان ذا شهرة ذائعة بين المغول لعدله وشجاعته ، أقتحم حـــدود الهندستان عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م على رأس جيش كبير بنية فتح هذه البلاد ، فاستولى على لمغان والملتان عند الحدود الشمالية الغربية ثم اتخذ طريقه إلى دهلى نفسها .

وبدا لمحمد تغلق أن يتجنب الإلتحام بهذا العدو القوى ، فاحتال لذلك أن بعث من فوره بوفد من رجاله حملوا معهم قدرا كبيرا من الأموال والهدايا إلى الزعيم المغولى ، وطفقوا يخطبون ودّه ويبالغون فى تملقه حتى ارتضى آخر الأمر الرجوع عن بلادهم ، فانسحب منها عبر السند والكجرات بعد أن انتهبها وأسر كثيرا من أهلها .

وحين انجابت هذه المحنة ، راح السلطان يدبر الأموال اللازمة لتحقيق مشروعاته الإصلاحية ، فتغالى فى فرض الضرائب بإقليم الدوآب ، أخصب مناطق الهند وأغناها ، حتى هجر الأرض أصحابها

إلى الغابات فرارا مما ألزموا به من أموال عجزوا عن أدائها ، فعم الإقليم الخراب واجتاحته المجاعة . ويرد فريق من المؤرخين مسلك محمد تغلق هذا إلى ما عُرف من ميل أعيان هذا الإقليم إلى الجنوح للثورات وإشاعة لاضطرابات على الدوام، حتى نهج علاء الدين الخلجى معهم مثل ذلك من قبل ، وإن كان احتباس الأمطار الموسمية عنهم فى بعض السنوات قد زاد من خطورة الحال هناك.

وأعجب السلطان بموقع مدينة ديوكر الطبيعى الحصين ، وكان قد سار إلى جوارها للقضاء على ثورة ابن أخيـــه بهاء الدين كُشْتاسب بالدكن ، فعزم على أن يتخذ منها حاضرة له ، أطلق عليها اسم دولت آباد فيما بعد ، ليبتعد بذلك عن مواطن الخطر المغولى من جهة ، ويتوسط ، من جهـة أخرى ، دولته الواسعة التى كانت تمتد من الهملايا إلى جنوب الدكن ومن البنغال إلى أرض كابل .

ولو كانت خطة السلطان هذه قد اقتصرت على البدء بنقل دولاب الحكومة إلى العاصمة الجديدة ثم إجراء هجرة السكان إليها بالتدريج لهان الأمر وأمكن تحقيقه فى شىء من اليسر . لكنه شرع من فوره يشق الطرق من الشمال إلى الجنوب ، ثم زوّد سكان دهلى بالمؤن وأعدلهم وسائل النقل ، وأمرهم جملة

بالرحيل إلى العاصمة الجديدة مع متاعهم . ولقد كان من الطبيعى أن يعم السخط أولئك الذى أرغموا على ترك عاصمتهم ، التى عاشوا فيها أجيالا ، إلى بلد آخر لا يدرون من أمره شيئا ، هذا فضلا عما تعرضوا له من متاعب لاقبـــل لهم بها فى طريق يبلغ طوله سبعمائة ميل ، فنزلت بهم الأمراض وفتكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا حتى هلك منهم خلق كثير . وأما الذين كُتبت لهم النجاة فبلغوا العاصمة الجديدة سالمين ، فقد انتابهم شعور من أرسل بهم إلى المنفى [١] .

ويبالغ بعض المؤرخين فى وصف ما ارتكبه محمد تغلق من ضروب القهر لحمل الناس على الهجرة إلى حاضرته الجديدة ، فيروُون أنه لم يتردد فى إعدام رجل مكفوف وآخر كسيح تخلفا بدهلى عن الركب . ولئن كان هذا السلطان قد حرص حرصا بالغا على تنفيذ مشاريعه الإصلاحية حتى استقدم إليه فى سبيل ذلك جملة من الخبراء وأجزل لهم العطاء فى كرم زائد أثار ثائرة من حوله ، هذا كما كان يقسو مع كل من كان يحاول معارضة خططه او عرقلة تنفيذها ، إلا أنه حين استبان له مدى الكارثة التى حلت بالناس فى هجرتهم هـــذه ، أباح لهم من فوره العودة إلى

---

١ — ابن بطوطه ثلث ص ٩٥ — ٩٧

دهلى من جديد لمن يرغب فيها . ولم يكتف بذلك فحسب بل شرع يقيم لهم على مقربة منها مدينة جديدة هيأ لهم فيها كثيرا من أسباب الراحة والاستقرار . ذلك أن العاصمة القديمة التى كانت تضارع لوقتها القاهرة وبغداد كان الخراب قد دهمها بدورها على أثر هجرة أهلها منها .

واستبان لمحمد تغلق حاجته الشديدة لجيش كبير يستطيع به إقرار الأمن فى ربوع ملكه الواسع ، فتفتق ذهنه ، بسبيل تدبير الأموال لهذه القوات ، عن خطة انتهى فشلها إلى تصدع كيان البلاد الاقتصادى تصدعا شديدا . فقد أمر بضرب عملة نحاسية تقوم فى التعامل بين الناس مقـــام الذهب والفضة بضمان بيت المال ، فنتج عن ذلك أن انقلبت أغلب الدور الخاصة إلى مسابك لضرب هذه العملة الجديدة طلبا للثراء . وإن هى إلا فترة قصيرة حتى أخذ التجار المحليون يرفضون التعامل بها إلا على أساس قيمة معدنهـا ، فى حين طفق غرباء التجار لايبيعون وارداتهم إلا بالذهب ، ويشترون صادراتهم بالنحاس .

وحين أدركت الحكومة مدى ماعم البلاد من الخراب من جراء ذلك فأعلنت رفع هذه العملة من الأسواق ورد قيمتها إلى أصحابها ذهبا وفضة ، أقبل الناس على بيت المال ومعهم ما كانوا

قد زيّفوه من الأكداس الطائلة النحاسية ، فاستنزفوا الكثير من أموال الدولة .

ولم يكن محمد تغلق على كل حال هو أول من لجأ إلى استعمال العملة المعدنية بضمان الذهب ، فقد كانت هذه الطريقة معروفة بفارس وكذلك بالصين التى كانت تتداول العملة الورقية أيضا ، قبل أن يعرفها العالم بزمن طويل ، بضمان خاتم الإمبراطور . فما أعوز هذا السلطان إنما كان تمام الضبط والحيطة .

واستجاب محمد تغلق لتحريض المماليك المصريين له على غزو خراسان والعراقيين . وشجعه على الإقبال على هذا الأمر ما كان من تحقيق أحد أحلامه الكبرى بالحصول على تأييد الخليفة العباسى له وخلعه عليه ، فأعد لهذا الغرض جيشا قوامه ثلاثمائة وسبعين الفا من الجند ، ولكنه ماغدا أن سرحهم بعد أن ظل يؤدى لهم عن ذلك نفقاتهم من بيت المال عاما كاملا ، وذلك حين عدل المصريون عن ذلك إلى محالفة أبى سعيد ميرزا صاحب بلاد ماوراء النهر وإطلاقهم ليده فى بلاد الفرس والتركمان .

هذا كما بعث محمد تغلق كذلك بحملة قوية إلى ولايات الهملايا العليا فدهمتها الثلوج فقضت على أكثر أفرادها . وقد ادعى بعض المؤرخين بأن سلطان دهلى إنما سير هذه الحملة لغزو الصين

طمعا فى كنوزها ، فى حين أنه لم يرم من ورائها فى الغالب إلاّ إلى نشر الاسلام فى هذه المناطق وتأمين الدروب إلى خراسان .

وانتهى ماجره فشل السلطان فى مشروعاته، ومانتج عن ذلك من محن قاسية ، إلى أن اجتاحت البلاد موجة قوية من الاضطرابات والثورات التى زاد من حدتها جنوح حكومة دهلى إلى مصادرة الكثير من أموال الأعيان والتجار حين الحت عليها الحاجة اليها .

وكان أول من رفع لواء العصيان فى وجه محمد تغلق هو الأمير جلال الدين إحسان شاه الذى أعلن استقلاله بَمبر فى الدكن فضرب السكة باسمه عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م . وبرغم ماكانت تعانيه دهلى من مجاعة قاسية فقد خرج السلطان بنفسه لقمع هذه الفتنة ، لكنه لم يبلغ تلنجانا حتى أخذ وباء الهيضة (الكوليرا) يفتك بجنده فرجع عن خصمه .

وعمت الاضطرابات البنغال بدورها على نطاق واسع . ذلك أن قائدا هناك يدعى فخر الدين سقط عام ٧٣٧ هـ على أميره قدر خان صاحب لكهناوتى فقتله وجلس مكانه ، ثم ما لبث أن جهر مطمئنا باستقلاله ، إذ كان على علم تام بما يعانيه سلطان دهلى من متاعب لا يستطيع معها أن يزحف اليه .

وارتدت الدكن إلى الثورة من جديد ، فطلب السلطان من قائده عين الملك صاحب أوده وظفر آباد أن يتوجه بقواته إلى دولت آباد ويشرف منها على إقرار الأمور هناك .

على أن هذا القائد الذى كان له وإخوته جهود كبيرة فى معاونة السلطان على تخفيف وطأة المجاعات والمحن التى اجتاحت البلاد ، ترامى إلى خاطره أن السلطان إنما يرمى من وراء ندبه لهذا الأمر ، إلى الاستيلاء على أملاكه وأراضيه ، فاعتصم وجنده بإقطاعه حتى أقبل عليه محمد تغلق بنفسه فباغته فى مضاربه وأسره ثم ألقى به فى الحبس ، وإن عفا عنه بعد قليل لسابق خدماته وإخلاصه .

وبلغ السلطان من بعد ذلك خبر انقضاض بعض زعماء الزط على لاهور وقتلهم لناتارخان نائبه هناك ، فسير إليهم من فوره قائده خواجه جهان فأسر كثيرا منهم وساقهم إلى العاصمة حيث أعلنوا إسلامهم بها .

والتفت محمد تغلق إلى الدكن من جديد بعد أن أقر الامور فى الشمال . ذلك أن استقلال الأمير جلال الدين إحسان شاه بإمارة مبر قد أغرى بعض الأمراء الآخرين على أن يحذون حذوه . وكان من بين هؤلاء الأمير الهندوكى هارى هـــارا الذى أسس هو وأخوه إمارة ڤيجايانكر فيما بعد . وما لبث هندوكيّو الجنوب بزعامة

كرشاناياك أن شدّوا من أزر هذه الإمارة التى اتسعت رقعتها وازدادت قوتها حتى قامت على حماية الجنوب كله من أى غزو إسلامى يفد إليه من الشمال .

وسرت الاضطرابات بدورها إلى الكجرات وديوكر التى غدت تعرف بدولت آباد ، فلم يكد السلطان يغادرها ، بعد أن خُيل إليه استتباب الأمور فيها ، حتى نهض عام ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م أمير أفغانى شاب يدعى حسن كانكوى فوضع يده على الإقليم كله. ويعرف هذا الأمير فى التاريخ باسم علاء الدين أبى المظفر صاحب سلطنة بهمنى الدكنية التى لعبت دورا هاما فى تاريخ المسلمين بشبه القارة الهندية .

ووافى محمد تُغلق أجله عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م إبان إحدى حملاته فى السند ، وقـــد انفرط عقد سلطنته ذات الولايات الثلاث والعشرين إلى عدد من الامارات القوية المستقلة ، فلم يبق تابعا لدهلى من الولايات الكبيرة إلا الكجرات .

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صادف هذا السلطان من الفشل فى مشاريعه الكثيرة الى سوء طالعه وما كان حوله من مستشارين تنقصهم الخبرة والإخلاص . ويذكر ابن بطوطة لهذا الملك كثيرا من الفضائل، كما يثنى المؤرخ ضياء الدين بارانى، معاصره،

تمسكه بأهداب السنة وحرصه على إقامة العدل بين الناس. ويشير أغلب مؤرخي الهنادكة المحدثين إلى تسامحه حتى قرّب اليه كثيرا من الهنادكة وولاّهم عدة مناصب في الدولة، وينفون عنه ما أشيع من ميله لسفك الدماء وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة، ويقولون بأن تشنيع بعض المؤرخين عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقهاء. ولعل قياس هذه الحوادث جميعا على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليده قد رَبأ بهذا السلطان عن أن يحشر في زمرة جلادي عصره(١).

ولم يكن لمحمد تغلق ولد فعهد بالملك من بعده إلى ابن عمه فيروز تغلق، وكانت أمه السلطانة كدبانو هندوكية الأصل، فأبوها هو رانا محل بهاتي. وقد قبلت هذه الأميرة الجميلة أن تتزوج من والد فيروز أخي غازي تغلق دفعا للضُر عن أسرتها (٢).

وعُرف السلطان الجديد بميله إلى المسالمة وبعده عن إراقة الدماء مع شغفه الشديد بمخالطة رجال الدين وأهل التصوف. بل

---

١ — Prasad. India. 227,8

٢ — كان آل تغلق قد وفدوا الى الهند قادمين من خراسان أيام علاء الدين الخلجي حيث ولي غازي تغلق إمارة ديبالبور. هذا ويرد لين پول في كتابه عن الهند في العصر الوسيط Lane-poole. Medieval India pp. 298, 9 أسباب ضعف المسلمين إلى مصاهرتهم للهنادكة مع أن كثيرا من سلاطين المسلمين العظام بالهند كانت أمهاتهم من الهندوكيات.

لقد قيل إنه أبدى كثيرا من التردد فى قبول الحكم ، إذ كان يؤثر عليه الخروج إلى الأراضى المقدسة طلبا للحج والإعتكاف بها متعبدا إلى آخر عمره .

وأيا ماكان القول، فقدأدى قبول هذا الأمير لمنصبه إلى القضاء على النزاع الذى قام بين قادة الجيش حول ولايـــة العرش . هذا وكان خواجه جهان ، أحد الأمراء الكبار ، قد بادر بتنصيب طفل بدهلى نسبه الى محمد تغلق ، لكنه ما إن علم بقدوم فيروز تغلق إلى العاصمة حتى سعى إليه معتذرا بطلب الصفح .

وهكذا جلس على عرش دهلى فى رجب من عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م سلطان جديد اكتسب فى عهد سلفه دراية كبيرة بشئون الحكم وتمرس بأساليبه .

ونتج عن الاضطرابات التى شغلت بها الدولة عقب وفاة محمد تغلق أن انتهز حاجى إلياس هذه الفرصة فأعلن استقلاله بالبنغال ولقب نفسه بالسلطان شمس الدين ، ثم ما برح ينشر قواته فى إقليم بهار حتى بلغت بنارس .

هنالك عزم فيروز على الخروج لرد هذا المغتصب عما استولى عليه من أرضين ، فسبق حملته بمنشور ، أذاعه فى أهل البنغال وما حولها ، أعلن فيه أنه إنما يتولى السلطنة بتفويض من الخليفة

العباسى أمير المؤمنين ، فمن خرج عليـــه فقد خرج بالتالى على إجماع أهل السُّنة . كذلك دعا الأهلين إلى الانضمام إلى صفوفه والخروج على عدوه واعدا إياهم بإعفائهم ، مسلمين وهنادكة ، من دفع الضرائب عاما بأكمله مع بذل الأمان لهم .

وأفلح سلطان دهلى الجديد آخر الأمر فى أن يستدرج خصمه من حصن إكداله الذى كان يعتصم فيه إلى ضفاف الكنج حيث نشب بين الفريقين قتال عنيف دارت فيـه الدائرة على الثوار فارتدوا ثانية إلى حصونهم .

ووجدت ضراعة النساء فى حصون العدو طريقها إلى قلب السلطان ، فأعرض عن نصح رجاله بالتوغل فى البنغال محتجا ببدء الأمطار الموسمية، وآب إلى عاصمته قانعا بالصلح مع خصمه.

وبُعثت الآمال فى النفوس من جديد لاسترداد البنغال حين استنجد الأمير ظفر خان بالسلطان من عسف ختنه شمس الدين. فخرج فيروزشاه عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م كرة أخرى إلى هذا الإمارة ليجد أميرها الجديد إسكندر شاه يحذو حذو أبيه فى الاعتصام بإكداله ثم يبعث إليه بالهدايا الكثيرة مشفوعة بتوسلاته التى رق لها قلب السلطان المسالم مرة أخرى ، فرجع عن البنغال للمرة الثانية مكتفيا باصطحاب الأمير ظفر خان معه ، وقد كان فى

مقدوره ضمها إلى ملكه فى غير عناء كبير .

ونزل فيروز شاه عند أوبته من البنغال بمدينة جونپور التى كان قد أمر بتشييدها تذكارا لابن عمه فخر الدين جونه[1] ، ومن ثم اتجه إلى إقليم ججنكر ( أوريسه الحالية ) الذى يشتهر بخصبه ووفرة الأرزاق فيه من الحبوب والفاكهة والماشية ، فانطلق جنده ينتهبونه ويحطمون معابده حتى أقبل أميره الهندوكى راجا أديساران آخر الأمر يعلن ولاءه للسلطان على جزية كبيرة. ومالبث أن حذا حذوه جملة من الأمراء الهنادكة المتاخمين لحدوده .

كذلك وفق سلطان دهلى فى العام التالى فى إخضاع حصن نكركتُ ، وكان صاحبه قد جنح أواخر أيام محمد تغلق إلى خلع نيردهلى عن كاهله . وصار هذا الحصن يعرف فيما بعد باسم محمد آباد تخليدا لذكرى السلطان الراحل .

ولعل أكبر حملة خرج فيها السلطان فيروز هى تلك التى قصد بها إلى إخضاع الهنادكة من الزط وغيرهم ، وكانوا قد جنحوا بدروهم عندئذ بمصب السند إلى العصيان أواخر عهد محمد تغلق . ونجم عن سد الأمطار الغزيرة للطرق وإتلافها ، شح الأقوات

---

١ — وهو السلطان محمد تغلق سالف الذكر.

بين القوات حتى اضطر فيروز إلى الارتداد بجنده إلى الكجرات. على أن قائده ووزيره خان جهـــان مقبول ، وكان من مسلمى الهنادكة ، ما لبث ، مع إمدادات وفدت إليه من الدوآب وبهار ، أن خاض مع الثوار معركة حاسمة انتهت بأسر زعيمهم جام بابينيا ، ليعفو السلطان آخر الأمر عنه ويجرى عليه معاشا مجزيا بدهلى ، ويقيم أخاه مكانه .

وأدى إهمال السلطان لشأن الدكن أن أمكن لامارتى بهمنى وفيا يانكر أن يرسخا أقدامهما ويوسعا من رقعتيهما هنـاك على حساب سلطنة دهلى التى انحسرت حدودها الجنوبية إلى الشمال من تلال الوندهايا .

ولئن أدى ميل فيروز تغلق للسلم وتجنب الحروب إلى ضياع مساحات واسعة من أراضيه ، إلا أنه هيأ له على كل حال الفرصة للانصراف إلى شئون الدولة الداخلية والتفرغ لرسم خطط الإصلاح والتنظيم التى اتاحت للأهلين قدرا من الحيـاة الطيبة المستقرة . وقد طفق كبار سلاطين الهند المصلحين يترسمون مناهج هذا السلطان الإنشائية ونظمه من بعده قرونا عدة ، وكان من بين هؤلاء السلطان أكبر المغولى أعظم حكام العـالم فى عصره على الإطلاق .

ذلك أن هذا الحاكم المصلح قسم أراضى الدولة إلى إمارات عهد بإدارتها إلى جملة من الرجال الأكفاء ، كما عنى بأمر الزراعة فعمل على استصلاح مساحات واسعة من الأراضى البور، وأحكم نظام الرى ، وجد فى حفر الآبار والقنوات حتى توافرت الأرزاق وعم الرخاء الى درجة كاد الناس معها أن ينسوا قسوة المجاعات الجارفه التى ألمت بهم من قبل .

كذلك التفت فيروز تغلق إلى الضرائب فأحكم نظامها ، ورفع الكثير منها عن كاهل الأهلين ، وأمر ألا تعدو جبايتها حدود الشرع ، وراقب ذلك كله بنفسه فى حزم وشدة .

أما غنائم الحرب فقد خص بيت المال بنصيبه الشرعى منها وأطلق الباقى لرجاله وفقراء شعبه .

وأدى تمسك السلطان بقواعد الشرع إلى توفير العـــدالة لرعاياه وإبطال الكثير من العقوبات والعادات غير الإنسانية التى كان يمارسها الهنادكة على الخصوص ومنها عادة الساتى حيث تُقبل الأيتام التى ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان زوجها .

ولم تقف جهود فيروز تغلق عند هذا الحد حيث شاع اليسر والرخاء والعدل بين أوساط الناس وعامتهم خاص ، حتى ذهب فى سبيل إصلاحه الإجتماعى ، يأمر بإحصاء العاطلين فى بلاده

وحصرهم ، فمن كان منهم يجيد القراءة والكتابة الحقه بخدمة الديوان ، ومن كان منهم على دراية بحرفة أو صنعة هيأ له ماينا سبه منها سواء بمنشآت الدولة أو بغيرها من المنشآت الأهلية، ومن بقى منهم من بعد ذلك الحقه بخدمة الأمراء ورجال الدولة .

وإلى جانب ذلك كله أنشأ السلطان ديوانا يعرف بديوان الخيرات ليعين بماله على تزويج الفتيات الفقيرات ، ويرعى المرضى والضعفاء والشيوخ بما يجريه عليهم من أموال وما يقيمه لهم من دور للشفاء ورباطات .

وبلغت دور الشفاء عند فيروز تغلق المائة ، وكان الدواء والغذاء يقدمان فيها للناس بالمجان . وإلى جانبها أقيم دور للعلم عديدة كان من بينها ثلاثون مدرسة جامعة لدراسة العلوم الشرعية والنقلية على السواء .

وأدى شغف هذا السلطان بالعلم إلى قدوم طائفة من علماء المسلمين بلاده ليضطلعوا بالتدريس فى مدارسه ، وكان من بينهم مولانا جلال الدين الرومى العالم المشهور . وقد دون هذا السلطان سيرته بنفسه فى كتابه المعروف « فتوحات فيروز شاهى » .

وعمل فيروز كذلك على إحياء الدراسات الهندية القديمة ، وحض البراهمة على حل نقوش أعمدة آزوكا القديمة ، وكان قد

استخدم جملة منها فى منشآته . كما أمر بترجمة جملة من أمهات الكتب السنسكريتية ، التى وقعت بأيديه فى حصن نكركوت ، إلى الفارسية[١] .

ومنشآت هذا السلطان التى بلغت التسعمائة ما بين مدارس ومساجد ودور للشفاء ورباطات وقصور وحمامات ، وإلى جانبها مدن ثلاث كبيرة بالقرب من دهلى ، وهى فيروز آباد وفتح آباد وجونبور ، عدا الحدائق الكثيرة التى بلغت الألف عدا ، استلزمت هذه كلها استخدام عدد كبير من الأيدى العاملة مما ساعد على تخفيف أزمة البطالة بين العمال[٢] .

وركبت العلل السلطان الشيخ على كرسنين وتوالى الحدثان ، فما غدا أن أطلق يد وزيره خان جهان ظفر خان فى تصريف شئون الدولة .

وتراءى لهذا الوزير، فى سبيل تثبيت سلطانه المطلق ، أن يزيح من طريقه ولى العهد الأمير محمد فاتهمه عند أبيه بتآمره على العرش هو وجملة من الأمراء الذين عرفوا بكراهية فيروز تغلق لهم .

---

١ — Prasad, India pp 266,67,91,2

٢ — تاريخ فرشته ص ١٥٠

على أن الأمير حين وقف على ما كان يبيت له طفق يصطنع الحيلة حتى لقى أباه ، فما زال به حتى أقنعه بخبث طوية وزيره فعزله وولاه مكانه .

وحين اطمأن محمد إلى إمساكه بزمام الدولة كلها حتى دُعى له فى الخطبة مع أبيه ، انصرف إلى مآربه الخاصة ومتعه لا يلقى بالا إلى مشورة رجال البلاط وكبار الأمراء الذين حدا بهم حرصهم على سلامة الدولة إلى الالتفاف حول ابنى أخى السلطان الأميرين بهاء الدين وكمال .

وأدى هذا الانقسام آخر الأمر إلى الصدام الحربى بين الفريقين ، فشهدت شوارع دهـــلى التحامات بشعة سقط فيها الكثير من رجال الفريقين . ولم يوقف سير هذه المجازر العنيفة إلا ظهور السلطان الشيخ على محفته فى الميدان ، فإذا الجند تبادر إلى الالتفاف حوله والانضمام إلى صفوفه مكبرة مهللة ، فى حين بادر الأمير محمد إلى الهرب فتحصن فى تلال سَرْوَرْ .

وعهد فيروز بالملك على أثر هذه الفتنة إلى حفيده غياث الدين ابن فتح خان . وإن هو إلا زمن يسير حتى قضى السلطان الشيخ فى رمضان من عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وكان قد جاوز التسعين من عمره .

وبعث السلطان الشاب فور ارتقائه العرش برجاله يطاردون

الأمير محمد الذى إستطاع آخر الأمر التحصن فى قلعة نكركوت التى امتنعت على المهاجمين .

وماغدا غياث الدين تغلق الثانى هذا أن غلبته فتنة الشباب على أمره فانصرف عن شئون الدولة إلى متعه الخاصة وملاهيه. حتى إذا ماركب الشطط فى معاملة ذوى قرباه من الأمراء ورجال الدولة فسلك معهم سبيل العنف ، اجتمع عليه ابن عمه ابوبكر ونفر من أفراد أسرته فأطبقوا عليه فى قصره .

ولئن أفلح الأمير فى الخروج من باب جمنه ووزيره سالمين ، إلا أن الثوار سرعان ما لحقوا بهما عند النهر فقتلوهما لوقتهما ، ولم يكن قد مضى على السلطان الجديد فى الحكم إلا شهور خمسة وبضعة أيام .

ولم ترض عصبة الأمير محمد بن فيروز عن جلوس الأمير أبى بكر على العرش فتربصوا لوزيره شاه خوشدل عند سمانه وهو فى طريقه لقتال زعيمهم ، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى أميرهم فى حصنه وحرضوه على القدوم إليهم والدفاع عن حقوقه الشرعية فى الحكم .

وبرغم ماجمعه الأمير محمد من قوات الدوآب فقد توالت هزائمه أمام ابن عمه بظاهر دهلى. حتى إذا ماضاق الناس فى العاصمة ذرعا بشدة وطأة أبى بكر عليهم وعنفه معهم ؛ — بعثوا يحرضون

ابن عمه على الزحف إليهم من جديد ، فلم يملك أميرهم إلا الهرب وفئة من أنصاره إلى بهادر نهير صاحب موات لاجئين

وما إن جلس السلطان الجديد ناصر الدين محمد تغلق الثانى على عرش دهلى فى رمضان من عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م حتى عهد بالوزارة إلى إسلام خان ، ثم أمره وولى عهده همايون بالخروج فى طلب أبى بكر ، فمازا لابه حتى أوقعاه ومضيفه فى الأسر ، ليعفو السلطان من بعد ذلك عن صاحب موات ويلقى بابن عمه فى الحبس فيقضى بعد قليل .

كذلك أنفذ ناصر الدين إلى الكجرات قائده ظفر خان ، وهو الذى استقل بها فى أوائل القرن التاسع الهجرى وأسس بها أسرة مالكة . وحذا حذوه فيما بعد أمراء مالوه وخاندش فلم تسترد دهلى نفوذها هناك إلا أيام الدولة المغولية .

وأفلح إسلام خان فى القضاء على ثورات بعض الأمراء الراجپوتيين فى الدوآب ، فى حين سار السلطان بنفسه الى أتاوه فهدم حصونها ، وكان الثوار يتعرضون منها القوافل الحجاج والمسافرين.

وفيما كان محمد تغلق الثانى فى طريقه الى العاصمة بلغه تآمر إسلام خان للاستحواذ على لاهور والملتان لنفسه حتى راح ، فى سبيل تحقيق مأربه هذا ، يهيء لقيام الاضطرابات بها ، فساقه

حال وصوله إلى حتفه .

وخرج السلطان عام ٧٩٥ هـ/١٣٩٢ م بنفسه الى موات، برغم مرضه ، للحد من طغيان صاحبها بهادر نهير الذى غره عفو صاحب دهلى عنه فاقدم على انتهاب ماحول العاصمة من أماكن ، فهزمه وأرغمه على الفرار .

وماإن بلغ السلطان حصن محمد آباد بظاهر دهلى حتى أودت به العلة . ولم يجلس ابنه همايون الملقب بسكندر إلا أياما قليلة على عرش دهلى حتى فارق الدنيا بدوره .

ورقى العرش من بعده أخوه ناصر الدين محمود فخلع على وزيره خواجه جهان لقب وكيل السلطنة فى حين ولى سارنك خان إقليم دبپالپور .

وأدى تنافس أمراء ورجال الدولة فيما بينهم على مظاهر النفوذ وانقسامهم شيعا واحزابا مع ضعف السلطان ، إلى أن جنح كثيرون من حكام الولايات وأمراء الهنادكة إلى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما بأيديهم من إمارات وحصون . بل إن الوزير خواجه جهان نفسه أعلن استقلاله بجونپور وأسس فيها أسرة حاكمة هى التى تعرف فى التاريخ باسم أسرة ملوك الشرق ( شاه شرقى) .وقد امتد نفوذهـــا فى أوقات كثيرة إلى البنغال جارتها

الشرقية . هذا فى حين لم يكتف سارنك خان باستقلاله بديبالپور حتى سقط على الملتان فهزم الكهكر ودخل لاهور .

ولم يقف الحال بالدولة عند هـذا القدر من التفكك . فقد خرج السلطان عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م إلى بيـــانه وكوالیار وفى صحبته جملة من الأمراء وفيهم سادات خان ، فما إن أحس هـــذا الأخير بتآمر بعض زملائه عليه حتى سقط على بعض منهم فقتلهم ، ثم قفل راجعا إلى العاصمة ليجد مُقرّب خان نائب السلطان قد سبقه إليها فقفل أبوابها فى وجهه .

هنا لك بعث هذا الأمير الثائر يستدعى أحد احفاد فيروز شاه ، فنادى به بمدينة فيروز آباد سلطانا على الهند باسم نُصرت شاه . ولئن كان سادات خان قد لاقى حتفه بعد قليل على أيدى أعدائه إلا أن صنيعه هـذا قد أدى إلى قيام شيعة قوية ، التفت حول السلطان الجديد ، تناهض حزب صاحب دهلى . وصارهمّ كل فريق منهم القضاء على غريمه دون أدنى التفات إلى مصالح البلاد أو إشفاق عليها حذر الهاوية التى كانت تتردى فيها . فها قد أقبل تاتار خان بن ظفر خان صاحب الكجرات ومعه قتلغ خان بجنودهما لشد أزر نصرت خان ، فى حين قدم راجاموات ومعه ملو إقبال خان أخى سارنك خان صاحب ديبالپور والملتان

فنزلا بقواتهما بظاهر المدينة متربصين بالفريقين اللذين ظلا يقتتلان طوال أعوام ثلاثة هلك فيها خلق كثير حتى كان يجاوز عدد القتلى بضعة آلاف فى اليوم الواحد .

وجاءت الأنباء فى هذه الأثناء بعبور پير محمد جها نكير، حفيد تيمور السند فى مستهل عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م واستيلائه على حصن أوكا وتوغله فى الملتان ؛ والأحزاب المتقاتلة سادرة فى غيّها .

فهذا إقبال خان يبادر بالانضمام إلى نُصرت خان الذى مايلبث بعد قليل أن يقف على مايدبر له من كيد فيتركه إلى پانى پت ؛ فى حين ما يزال السلطان محمود يتحصن مع مقرّب خان وبها دُر نهير بدهلى القديمة .

وتمكن إقبال خان آخر الأمر من أن يقضى على مقرب خان، وبهذا غدا السلطان محمود فى قبضته يوجهه كيف يشاء .

ولئن كانت الفتنة قد تكسرت حدتها وطفق إقبال خان يبذل الجهود لتنظيم شئون الدولة وأمورها من جديد ، فإن الأوان كان قد فاته على كل حال . ذلك أن تيمور كان قد أقبل بنفسه على الهندستان فما برح يسوى حصونها بالأرض ويحرق مدنها ويهلك الجموع الغفيرة من أهلها حتى بلغ دهلى التى استعصت

من قبل على المغول وغيرهم من الغزاة قرونا أربعة [١] .

### الغزو التيمورى وآثاره

تروى « ملفوظات تيمور » [٢] أن هذا المحارب الجبار حين حدثته نفسه بالخروج للغزو والجهاد استشار رجاله إلى أى البلدين يخرج ، الصين أو الهند . فبينوا له أن من يقصد الهند عليه أن يواجه عقبات أربعا كبيرة ، إن اجتازها وتغلب عليها دانت له هذه البلاد بكنوزها وثرواتها التى يخطؤها الحصر ولا يحصيها العد . أما أولى هـــذه العقبات فنهر السند بفروعه الخمسة التى لا يتسنى اجتيازها إلا بالسفن والجسور ، والثانية آجام الهند وغاباتها كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان وعرة المسالك ، والثالثة أمراء هذه البلاد من مسلمين وهنادكة ، وكلهم على دراية تامة بدروب السير فى هـــذه الآجام والعيش فيها ، والرابعة فيول الحرب المدربة التى يستخدمها أهل هذه البلاد فى مهارة فائقة ، حتى لتنتشر مسرعة خفيفة فى حومة الوغى فتطوى الفارس

---

١ — Lane-Poole India, P 159

٢ — وتعرف أيضا باسم توزك تيمورى ، وهى سيرته التى أملاها بنفسه ( وهى بالجغتائية ) انظر ص ٣٩٤ — ٩٦ من الترجمة الانكليزية لها فى Elliot and Dowson. History of India. London 1871. vol. 3

وفرسه بخرطومها ثم ترفعهما فى الهواء ، وما تلبث تضرب بهما الأرض حتى يقضيا نحبهما . وهذا هو السلطان محمود الغزنوى ، وكان فى قلة من الجند لا تصل إلى ما فى ركاب تيمور ، قد تغلب على ذلك كله من قبل وآب من هناك بأكداس طائلة من الذهب والفضة والجواهر .

وأبرى من بين الحاضرين شاهرخ ، أحد أبناء تيمور ، يحرّض أباه بدوره على فتح هـــذه البلاد حتى يصير سيد الأقاليم السبعة بلامنازع ، فقال له : « إذا كان صاحب الروم يُكنى بالقيصر وسلطان التتر بالخاقان وإمبراطور الصين بالفغفور ، وملك إيران وطوران بالشاهنشاه ، أى ملك الملوك ، وذلك لخضوع أمراء الهند وراجواتها له ، وقد صرت ، والمنة لله ، شاهنشاها على إيران وطوران فمن المؤسف ألا تمد سلطانك إلى الهندستان . »

هذا وقد نبه تيمور رجالُه بأن عليه عند فتح هذه البلاد ألا يطيل وجنده الإقامة بها . ذلك أن البيئة الهندية من شأنها أن تبعث الخور والضعف فى النفوس ، فتفترهم الجند على مر الزمن ويفقدوا بالتدريج صفات الشجاعة ومستلزمات البطولة .

وفيما كان تيمور بعد العدة لغزو الهندستان وافاه بريد حفيده پير محمد جهانكير ينبئه فيه بأنه ، بعد أن دانت له بلاد كابل وغزنة

وما حولها ، استطلع أحوال الهندستان فوجدها بعد وفاة فيروز شاه قـــد استبد بالأمر فيها اثنان من أمرائها أخوان ، فأقام اكبرهما، ويدعى لمو إقبال خان، بدهلى إلى جانب سلطانها محمود، فى حين استقر الثانى، وهو سارنك خان ، بالملتان[1].

وتقدمت طلائع تيمور وعليها حفيده هذا فعبرت السند فى مستهل عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ واستولت على حصن أوكا ثم اتجهت إلى الملتان كما ذكرنا من قبل .

وحاول سارنك خان أن ينقذ هذه المدينة ، لكن القـائد التركى [2] فاجأ قوات هذا الأمير الكثيرة وهى تعبر السند فضاع أغلبها. وكان مَن غرق من رجالها أكثر ممن سقط تحت ضربات السيوف .

وسقطت المدينة نفسها بأيدى جها نكير بعد حصار دام ستة أشهر استطاع سارنك خان إبانه أن ينجو بنفسه منه .

وأقبل تيمور لنك بنفسه على الهندستان فعبر السند بقواته فى المحرم من عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م فالتقى بقوات شهاب الدين مبارك،

١ — يوحى هـذا الحديث كله بان تيمور لم يكن يقبل على غزو بلد ما قبل الوقوف على أحواله .

٢ — تيمور وأولاده هم من عروق الترك لا المغول وسنبين ذلك تفصيلا فى الجزء الثانى من هذه الكتاب فى حديثنا عن الدولة المغولية إن شاء الله .

أمير بهيت ، وكان قد خضع أول الأمر لپير محمد ثم انتقض عليه . وقضى تيمور على أول قوات اعترضت سبيله ليعبُر جيحون ، رافد السند الكبير ، من بعد ذلك إلى حصن تولمبه عند ملتقى هذا الرافد بأخيه راوى حيث انتشر جنده ينتهبون ماحوله من أرضين طلبا للدون ، ويجمعون الأموال التى لم يُسعف من أدائها إلا العلماء والشيوخ . ولم يبرح الغزاة المكان إلا بعد أن أعملوا سيوفهم فى حماة هذا الحصن وكانوا يزيدون على الألفين من الكهكر .

وبلغ تيمور من بعد ذلك ديپالپور ، وكان أهلها قد فتكوا بمظفر كابلى نائب جهانكير عليها ، فوجد أكثرهم قد نزحوا عنها فرقا فاعتصموا بحصن بهتنير القوى المنيع . على أن دفاع راى دل چندو رجاله الأشداء عن هذه القلعة لم يغنهم فتيلا أمام بأس الغزاة الذين اقتحموها عليهم فأعملوا سيوفهم بمن كان فيها من هنادكة ومسلمين ثم سووا البناء بالأرض . وأعجب تيمور ببسالة الأمير الهندوكى وشدة مراسه فى القتال فعفا عنه وخلع عليه .

وانطلق الغزاة من بعد ذلك إلى سرسوتى فلم يمنعهم استسلام أهلها لهم بعد مقاومة قصيرة ـ وكان أغلبهم من الهنادكة ـ من أن يعملوا سيوفهم فيهم ، فلم ينج منهم من القتل إلا من نطق بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

ونزل تيمور من بعد ذلك بمدينة فتح آباد ليُنفذ منها فريقا من جنده ليتعقب ـ فى مناطق التلال والغابات القريبة ـ قبائل الرُّط التى دأبت على قطع الطريق على المسافرين والتجار والحجاج وإلحاق الأذى بهم .

ووافى الغازى التركى عند كهيتل ، على مقربة من سمانه ، جيوشه التى كانت تنتشر فى المُلتان ولاهور فانضمت إلى قواته فأخذ بعد العدة بها جميعا لاقتحام دهلى .

وسارت جموع الغزاة إلى حاضرة الهند فإذا بالبلدان والقرى على طول الطريق قد هجرها أغلب أهلها هربا من وجه الغزاة ، فلم يتركوا بها من الأرزاق والمتاع ما قد يجد العدو فيه نفعا له أو مددا .

وبلغ تيمور پانى پُت فنزل فى جهانمه ، إحدى منشآت فيروز تغلق الفخمة ، لينتقل منها بعد قليل ، عبر جمنه ، إلى الدوآب فيستقر بقلعة لونى بعد أن أفنى حاميتها على بكرة أبيها . وقد توفر له فى مقامه الجديد هذا تموين قواته بما تحتاجه من مؤن وأرزاق .

وندب تيمور من فوره ، قائديه سليمان خان وجهان خان لاستكشاف الأرض عند مشارف دهلى الجنوبية والجنوبية الشرقية ، فى حين عبر هو النهر فى نفس اليوم فى سبعمائة فارس ليدرس موقع المدينة عامة .

هنالك أراد سلطان دهلى ومعه وزيره ملو إقبال أن يباغتا عدوهما وهو فى قلة من جنده فسيروا إليه خمسة آلاف من الفرسان ومعهم سبعة وعشرون من الفيلة لكنهم باءوا بالفشل وقُتل قائدهم محمود سيف .

وآب تيمور إلى معسكره ليأمر قواته بالتحرك فى الصباح التالى صوب الشرق من مواقفهم . حتى إذا ما أنهى إليه بعض رجاله بشيوع الفرح والسرور بين الأسرى فى معسكره حين علموا بمباغتة قوات دهلى له فى حملته الاستكشافيه : — خشى أن يركنوا ، والمعركة دائرة ، إلى تهديد مؤخرته وتخريب معسكره ، فأمر من فوره بقتل كل من كان منهم فوق الخامسة عشرة ، وتوعد كل من قد يتوانى من رجاله فى تنفيذ ذلك بضرب عنقه ؛ فكان من بين مرافقيه من العلماء من اضطُر إلى ارتكاب إثم القتل أول مرة فى حياته إبقاء على نفسه . وناف عدد من سقط من الأسرى فى هذا اليوم على المائه ألف (١) .

وعبرت القوات الغازية النهر فى مستهل جمادى الأولى من عام ٨٠١ هـ ، وكان تيمور على قلب الجيش ، فى حين قاد الجناح الأيمن پير محمد جهانكير وبادكر برلاس ، وقاد الجناح الأيسر

١ — ملفوظات تيمور ص ٤٣٦

سلطان حسين والأمير خليل وجهان شاه .

وبرز محمود تغلق سلطان دهلى ومعه وزيره إقبال خان على رأس عشرة آلاف من الفرسان وأربعين ألفا من المشاة ومعهم مائة وخمسة وعشرون من فيول الحرب المدربة . على أن بعض قوات تيمور سرعان ما أفلحت فى التسرب خلف مقدمة عدوّهم مباغتة، فقتلت منهم ستمائه فى هجمة واحدة، فى حين نجح پير محمد فى تشتيت شمال جناح جيش دهلى المواجه له حتى اضطر رجاله إلى الفرار من الميدان .

وبرغم ما نزل بجند دهلى من ضربات شديدة ، فقد استمات السلطان ووزيره فى القتال بشجاعة واستبسال ، فاندفعا يهاجمان بقواتهما قلب الجيش الغازى فى بأس شديد . حتى إذا ما تصدعت الصفوف أمام شدة وطأة العدو ، انسحبا من الميدان عجلين فنزلا بحصن جها نبناه ، ثم مالبثا أن غادراه فى اليوم التالى إلى منطقة الجبال، فلم تصل إليهما أيدى المطاردين . واستقر المقام آخر الأمر بالوزير فى بَيْرُن فى حين سار السلطان الى الكجرات .

وفى الثامن من جمادى الآخرة كانت بنود تيمور ترفرف بأعلى أسوار دهلى، وقد وقف العلماء والأعيان تحتها فى انتظار قدوم الخاقان الفاتح ليقدموا له فروض الولاء ويسألوه العفو والأمان .

ودخل تيمور المدينة بعد أن تم له انتهاب مضارب أعدائه فأجريت الخطبة له ودُعى له على المنابر [1] .

ولم يكن ما أنزله تيمور بأعدائه من خسائر فادحة فى ساحة الوغى ليقاس بما ارتكبه رجاله فى دهلى — ولمّا يفض عليهم أيام قلائل بها — من مذابح رهيبة ونهب وسلب ندر وقوع مثله فى التاريخ .

ومجمل الأمر كما يذكره تيمور نفسه فى سيرته . هو أن فريقاً من جنده الأتراك كان قد نزل المدينة قصد الترفيه، فما غدا أن استهوت رجاله معروضات التجار فراحوا ينتهبونها . وما لبث الجند الذين بعث بهم تيمور لكف أيدى هؤلاء الناهبين أن انضموا بدورهم إليهم . هذا فى الوقت الذى انطلق فيه جند آخرون من الغزاة يجمعون ما فُرض على أهل المدينة من غرم مالى ، فى حين كانت هناك فرقة رابعة تجمع التموين للجيش من زيت وحب وسكر ودقيق . وفيما كانت المدينة تغص بهؤلاء جميعا ، بلغ تيمور تحصن التجار والأعيان فى دورهم وامتناعهم عن دفع ما فرض عليهم من غرم ، كما بلغه أيضاً نزول جمع كبير من الهنادكة المدينة

---

١ — ظفر نامه لشرف الدين يزدى طبع كلكتا ١٨٨٥ — ١٨٨٧ مجلد ٢/١١٥ وما بعدها

ومعهم أسراهم وبضائعهم وأحمالهم قادمين من المناطق المجاورة ، فأنفذ قوة أخرى من الجند لتأتيه بهم جميعا من فورهم .

هكذا غدت العاصمة تغص بما لا يقل عن خمسة عشر ألف جندى كان أغلبهم من المشاغبين باعتراف تيمور نفسه ، فاتخذوا من مقاومة الأهلين لهم ذريعة للفتك بهم ونهب أموالهم ومتاعهم .

وإذ رأى الهنادكة أموالهم تنتهب ونساءهم تسبى ، بادروا بإغلاق أبواب المدينة وذبحوا نساءهم وأطفالهم بأيديهم ، ثم برزوا مع الأهلين لقتال جند تيمور الذين توالت عليهم الإمدادات بدورهم ؛ فجرت فى المدينة مذبحة شنيعة مدمرة بلغ من هولها أن سدت جثث القتلى لكثرتها المسالك والطرق . ولم يمنع استسلام الأهلين الغزاة من متابعة التقتيل فى قسوة بالغة . حتى إذا ماكلت سيوفهم ، سلكوا فى أسرهم من كتبت لهم الحياة من السكان ، فكان من الجند من ضمت قيوده الخمسين منهم ، ولم يكن فيهم من قل أسراه عن العشرين ، فضلا عما حملوه معهم من الذهب والفضة وكل ثمين وغال من المتاع . ويقدر المؤرخون عدد ضحاياهم من القتلى بهذه المدينة وحدها بما يزيد على المائة ألف .

ويحاول تيمور فى سيرته أن يبرىء نفسه من إثم هذه المجازر البشعة فيعتذر برد الأمر كله إلى المقدور وفق المشيئة الإلهية . وإذا كان هو حقا جادا فى أسفه على فعلة جنده هذه، فما باله إذن لم يأمر باطلاق سراح الأسرى على الأقل وردهم إلى دورهم تكفيرا له ضعيفا عما ارتكبه رجاله من إثم وأى إثم . ذلك أنه حين دخل المدينة من بعد ذلك فأتى له بكنوزها وغنائمها ، أمر باصحاب المهن والحرف من بين الأسرى فخص بهم عماله وأمراءه، بعد أن احتجز لنفسه منهم البنائين ورجال المعمار وفيهم أولئك الذين أقاموا لفيروز تغلق مسجده الذى سجل سيرته على جدرانه. وهؤلاء أنفسهم هم الذين بنوا من بعد ذلك للخاقان التركى مسجده الكبير بسمرقند على نمط مسجد فيروز ، كما صوروا مشاهد وقائعه الهندية كذلك على جدران قصوره ، إلى جانب منشآت أخرى كثيرة أقاموها له[1] .

وأزمع تيمور لنك الإياب إلى بلاده ، فغادر دهلى فى آخر جمادى الآخرة بعد أن قضى بها خمسة عشر يوما ، فما إن بلغ فيروز آباد حتى أقبل عليه بهادر نهير صاحب مِوات ومعه خضر خان مستسلمين .

---

١ — بابرنامه نشر السيدة بفريدج. ليدن ١٩٠٥ . ورقه ٤٤

وسار تيمور من بعد ذلك إلى پانى پت فبعث منها بعشرة آلاف من رجاله إلى حصن ميرات (ميروت)؛ لكن حسن دفاع أصحابه عنه، وكان فيهم الياس أفغان وابنه مولانا أحمد تنيسرى، منعه عليهم، حتى خرج إليه الخاقان بنفسه فاقتحمه على حماته وانتهب أموالهم، ثم أمر بالبناء كعادته فسوى بالأرض. ومن ثم صعد المنتصرون فى تلال سوالك بالپنجاب حتى بلغوا حصن جامو فاستولوا عليه، لينطلق فريق منهم من بعد ذلك فى أثر شيخا كهكر، وهو أمير هندوكى كان قد استسلم لتيمور عند قدومه الهند ستان فقربه إليه ثم مالبث أن انتهز فرصة ابتعاد قوات الغزاة عنه فطرد رجالهم من لاهور والملتان واستقل بهما. وما لبث رجال تيمور أن استردوا لاهور بعد حصار قصير وجاءوا بالشئر الهندوكى نفسه إلى سيدهم عند جامو فأمر به فأعدم. وفى جامو عهد تيمور لنائبه خضر خان بالملتان ولاهور ودبپالپور ثم تابع سيره إلى سمرقند عاصمته عبر طريق كابل[1].

وكان من أثر الغزو التيمورى، وما أشاعه فى البلاد من خراب ودمار، أن اجتاحت الفوضى والاضطراب كافة الأقاليم التى

---

١ ــ ظفرنامه ص ١٤٨

دخلها الغزاة . وبدا أخطر مظهر لهذا كله فى العاصمة التى عانت من هذه المحنة مالا يبلغ وصفه بنان أو بيان . فقد هلك أغلب أهلها ونُهبت دورها ومتاجرها وتفشت فيها المجاعات الطاحنة والأوبئة الفاتكة . وظل زمام الأمور فيها منفلتا حتى أطبق عليها الأمير نُصرت شاه قادما من مخبئه من ميروت بالدوآب فى الفين من الفرسان .

على أن إقبال خان ، وكان ينزل فى بَيْرُن غير بعيد من دهلى ، ما لبث أن استخلص العاصمة لنفسه وأرغم هـــذا الأمير على الارتداد إلى مخبئة من جديد. وما إن انصرم عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حتى كان هذا القائد قد بسط نفوذه على منطقة الدوآب فيما بين لكهناوتى وبيانه .

واستقدم إليه من بعد ذلك السلطان محمود تغلق ، وكان قد غادر بدوره ملجأه بالكجرات إلى مالوه على أثر ما لاحظه من فتور صاحبها ظفر خان نحوه ، فأجرى عليه رزقا حسنا قنع به عن التطلع إلى الحكم .

وبلغ إقبال خان خبر وفاة مبارك شاه شرقى صاحب جونپور، فبرز بقواته إلى قنوج وفى صحبته محمود تغلق ، وكان إبراهيم شاه شرقى أخى سلطان جونپور الراحل قد شخص إليها بدوره .

وانفلت السلطان محمود إلى معسكر خصمه وقد أمل أن يستعين به على استرداد نفوذه ، لكنه رده عنه خائبا حسيرا . وتغاضى إقبال خان عن فعلته هذه ، وقد نصبه آخر الأمر على قنوج ثم عاد إلى دهلى .

وغزا صاحب دهلى من بعد ذلك كواليار وأتاوه ، وكانتا فى حوزة عصبة من الأمراء الهنادكة فألزمهم بدفع جزية سنوية له . ثم تطلع لاسترداد الملتان فزحف إليه مع أمراء سمانه وما حولها ، لكن خضر خان نائب تيمور هناك ألحق بهم جميعاً هزيمة حاسمة فى جمادى الأولى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، سقط فيها إقبال خان نفسه صريعا ، فما إن بلغ الخبر دولت خان لودهى حاكم دهلى حتى بادر من فوره باستدعاء السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش .

ولم يلتفت محمود تغلق إلى الخطر الجديد الذى بدا على أثر قضاء خضر خان على قوات إقبال خان وحلفائهم فبعث بقائده دولت خان لودهى لإخضاع بيرم خان فى سمانه فى حين سار هو إلى قنوج فالتحم مع إبراهيم شاه شرقى الذى رده عنها .

وأدى سوء معاملة السلطان لجنده أن انصرف أغلبهم عنه ، حتى كاد إبراهيم شاه شرقى أن يدخل دهلى نفسها فلم يمنعها عنه

إلا مابلغه من استيلاء مظفر خان صاحب الكجرات على مالوه ومتابعته الزحف إلى جونپور .

وأقبل خضر خان نائب تيمور بدوره آخر الأمر على العاصمة فضرب عليها الحصار فى عامين متتاليين فلم يكن يرده عنها فى كل مرة إلا نفاذ مؤنه .

ووافى السلطان محمود تغلق أجله بعد ذلك بقليل فى ذى القعدة عام ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م فخلفه دولت خان لودهى .

ولئن كان هذا الزعيم الأفغانى قد أفلح فى ضم بعض أمراء البلاد المجاورة للعاصمة إلى صفه فإنه آخر الأمر لم يقو على الوقوف فى وجه خضر خان الذى أقبل هذه المرة فى ستين ألف فارس دخل بهم دهلى فى ذى الحجة من عام ٨١٦ هـ / ١٤١٤ م بعد حصار دام أشهر أربعة .

# ملوك الطوائف

لئن كان الضعف قد بدأ يتسرب إلى كيان الدولة الإسلامية بالهندستان منذ أواخر عهد محمد تغلق وبداية حكم خلفه فيروز[1]، إلا أن الغزو التيمورى كان هو بلامراء العامل الأكبر الذى أدى إلى تفكك هذه الدولة: ذلك أن أغلب ولاياتها الكبرى الهندية كالدوَه والكُجرات وجونپور والبنغال والدكن، مالبثت على أثر هذا الغزو أن انفصلت عنها انفصالا تاما وأعلن أصحابها إستقلالهم بها، فلم يفلح سلاطين دهلى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات عموما من جديد، إلا فى عصر الدولة المغولية التى أقامها أحفاد تيمور لنك نفسه بالهندستان فى القرن العاشر الهجرى فعمرت قرون ثلاثة شهدت فيها شبه القارة الهندية على أيديهم حضارة رائعة قوية ومدنية مزدهرة بزت، بإجماع الثقات من المؤرخين، نظائرها عند أرقى الدول لذياك الوقت.

---

١ ــ الواقع أن فيروز تعلق باصلاحاته ومشروعاته العمرانية المفيدة وميلة الى مافيه خير رعاياه قد أفلح فى حمل الناس على التعلق به والركون إلى الهدوء، ولكنه لم يصل بذلك إلى تدعيم هيبة الملك إذ غلبت طيبته ومسالمته على حزمه.

على أن أغلب سلاطين هذه الولايات المستقلة التى سنتحدث عنها فيما يلى ، وهم فى غمرة كفاحهم لتوسيع رقعة ملكهم أو دفع من عساه يطمع فى أراضيهم ، قد حرصوا كثيرا على العمل على رقى بلادهم والنهضة بها :

الكجرات : تُعد هذه الامارة ثانى إمارات الهند الإسلامية بعد دهلى . ذلك أنه فضلا عن خصب تربتها وماتحويه من ثروات طبيعة هى ، أولا وقبل كل شىء ، باب التجارة الهندية الغربى منذ القدم ومنفذها إلى إفريقية وآسيا . فمن شاطئها عند سورات وخليجها كمباى كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب والبحر الأحمر فتُنقل من بعد ذلك برا إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط لتحملها فلك أخرى من هناك إلى ثغور أوروبا . لهذا كان هذا الإقليم محط أنظار أغلب غزاة الهند حتى قبل عصر الإسكندر .

وكان أول من اقتحم الكجرات من أمراء المسلمين محمود الغزنوى ليحطم معبد سومنات أحد مقدسات الهنادكة العظمى . على أن سلطان المسلمين لم يرسخ فيها إلا على أيدى علاء الدين الخلجى عام ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م . وقد أعلن مظفر خان ، حاكم هذا الإقليم من قِبل سلطنة دهلى ، استقلاله به عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م وذلك على أثر الغزو التيمورى للهندستان .

وخلف هذا الأمير حفيده أحمد شاه الذى قضى أغلب حكمه فى حروب متواصلة أتاحت له توسيع رقعة ملكه. وعنى هذا الأمير بتنظيم شئون الحكومة ، كما أقام كثيرا من المنشآت وبنى مدينة أحمد آباد وحض التجار والصناع على النزوح إليها والإقامة بها . هذا كما بذل نشاطا كبيرا فى نشر الدين الإســـلامى بين السكان والقضاء على الشرك وعبادة الاوثان وقد هدم فى سبيل دعوته هذه كثيرا من معابد الهندوكيين هناك .

ويُعد السلطان محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، أعظم حكام الكجرات طرّا . وكان مما ساعد على ذيوع صيته وانتشار شهرته ماعقده من عزم فى أواخر حكمه على طرد البرتغاليين من سواحل الهند الغربية وإبعاد خطرهم عنها . وكان هؤلاء المستعمرون قد نزلوا على مقربة من بمباى وأخذوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج .

وعاون المماليك المصريون والسلاطين العثمانيون محمود بيكر وخلفاءه على محاربة هؤلاء الدخلاء[1] . وبرغم حسن بلاء أساطيل

---

١ ـــ امتد خطر البرتغاليين الى مدخل البحر الأحمر فبلغ مياه الأراضى المقدسة حتى سارع المصريون إلى تحصين موانىء الحجاز . كذلك لبى قنصوة الغورى سلطان مصر دعوة سلطان الكجرات فبعث بسفنه لمحاربة البرتغاليين الذين

المسلمين فقد انتهى الامر بالبرتغاليين إلى تثبيت أقدامهم فى بضع مواطىء بالشاطىء الغربى للهند ، من بينها مقاطعة جوا البحرية التى تلح اليوم الهند عليهم بالجلاء عنها.

وقضى هذا السلطان بعد أن حكم اثنين وخمسين عاما بلغ فيها صيته محافل أوروبا لما كان عليه بلاطه من أبهة بالغة وتقاليد رفيعة ، إلى جانب ما أثر عنه نفسه من ميل إلى العدل واتصاف بالحزم والشجاعة .

ولم يأل بهادرخان ، آخر حكام الكجرات الكبار، جهدا فى توسيع رقعة ملكه فاستولى على أغلب مالوه واقتحم قلعة چتور بالراجپوتانا . وبرغم هزيمته أمام همايون ثانى سلاطين الدولة المغولية بالهند ، فقد أفلح من بعد ذلك فى استرداد جزء كبير من أراضيه ، وذلك حين أخرج شير شاه ، همايون من الهند. وبذل هذا السلطان جهودا صادقة لطرد البرتغاليين من جزيرة

---

= أضروا بتجارة البحر الأحمر وكانت من مصادر ثروة الممالك ، كما أنت سفن سليمان القانونى سلطان العثمانيين به ورهط مساعدة الكجراتيين وتبادل الفريقان الانتصارات مرات عدة حتى كتبت الغلبة آخر الأمر فيما بعد للبرتغاليين. حقائق الأخبار لإسماعيل سرهنك أول ص ٤٨ وثان ص ١٨٨

Cambridge Hist, of India Vol 3. pp 212, 16, 536, 7.

ديو التى كانوا يتحصّنون بها ، وكادت جهوده تكلل بالنجاح لولا أن دبّر أعداؤه أمر مقتله غرقا وهو فى طريقه للمفاوضة معهم .

وصار أمر الكجرات إلى أن ضمها أكبر ، ثالث سلاطين المغول وأعظمهم ، إلى ملكه عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م .

مالْوَه : وإلى الشرق من إقليم الكجرات تقع إمارة مالوه . وكان علاء الدين الخلجى هو كذلك أول سلطان مسلم ضمها إلى ملكه .

وانتهز أميرها دلاور خان الغورى ، وكان من رجال فيروز تغلق ، فرصة الفوضى التى عمت البلاد عقب الغزو التيمورى فأعلن عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م استقلاله بها ، واتخذ من مدينة دهر حاضرة له. وخلفه ابنه ألب خان الملقب بهوشنك شاه عام ٨٠٧ هـ فنقل حكومته إلى ماندو التى زخرت بجملة من المنشآت الفخمة فى عصره .

وجر خصب أراضى هذا الإقليم عليه أطماع حكام دهلى وجونپور والكجرات وكانت جميعا تجاوره . حتى إذا مامُنى هوشنك شاه بهزيمة شديدة فى حروبه مع الكجرات خلفه على

العرش ابنه غازى خان الذى غلبه وزيره محمود الخلجى على أمره فقتله واتخذ مكانه .

وأعلى السلطان الجديد من شأن مالوه بما أحرزه من انتصارات كثيرة فى حروبه العديدة مع أمراء الراجپوتانا ومملكة بهمنى الدكنية حتى امتدت حدوده شمالا إلى مِوار وجنوبا إلى ساتپورا وشرقا إلى بندلخند وغربا إلى الكجرات . ولم تقعد به همته حتى كاد يدخل دهلى نفسها لولا صمود بهلول لودهى قائد سلطانها محمد شاه إذ ذاك فى وجهه (١) .

وقد عرف هذا السلطان إلى جانب حروبه الكثيرة باشتغاله بالعلوم والفنون والآداب مع حرصه البالغ على إشاعة العدل بين رعاياه جميعا هنادكة ومسلمين على السواء .

وهان شأن خلفاء محمود الخلجى من بعده بانصرافهم عن الاهتمام بشئون الدولة من جهة، واستوزارهم للهنادكة الراجپوتيين من جهة أخرى ، حتى انتزع البلاد منهم آخر الأمر بها درخان صاحب الكجرات عام ٩٣٧ هـ / ١٥٣١ م ليستخلصها همايون، ثانى سلاطين المغول، لنفسه منه بعد ذلك بسنوات أربع .

خاندش : كذلك كانت هذه الإمارة واحدة من بين

---

١ — تاريخ فرشته ص ٢٣٦

الإمارات الهامة التى انسلخت عن دهلى . وموقعها إلى الجنوب من مالوه فيما بين تلال الوندهايا والدكن ، ويحدها إقليم برار فى الشرق ثم الكجرات فى الغرب . وقد شجع ثراء الإقليم وخصب أراضيه حاكمه ملك راجا فاروقى على الاستقلال به اقتداء بدلاور خان الغورى أمير مالوه . ودخل هذا الأمير، على سُنة عصره ، فى حروب كثيرة مع جيرانه لاسيما مع مظفر شاه صاحب الكجرات فكُسر فيها، ليركن إلى السلم من بعدها وينصرف إلى العناية بشئون بلاده . وأفلح ابنه ناصر شاه فى انتزاع بعض الحصون من أيدى جيرانه الهنادكة كان أهمها حصن أسيركاه ، لكن خلفاءه من بعده غلبهم الضعف فصاروا فى الغالب خاضعين لنفوذ سلاطين الكجرات لاسيما فى عهد السلطان محمود بيكر الكجراتى ، حتى ضم السلطان أكبر المغولى هذه الإمارة إلى ملكة عام ١٠١٠هـ / ١٦٠١م

جونپور : هو اقليم واسع كبير يقع إلى الجنوب الشرقى من دهلى ويجرى فى أراضيه جمنه وكوكرا أكبر روافد الكنج . عاصمته ، التى يعرف على الإقليم كله ، تقع عند شاطىء جمنة على قربة من ظفر آباد. وقد أنشأها فيروز تغلق عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ند عودته من حملته الثانية بالبنغال . ذلك أن هذا السلطان رأى ،

فى سبيل ضمان إقرار الأمن فى هذه الولاية البعيدة، أن ينشىء على مقربة من حدودها مركزا حربيا تقيم فيـــه قوات كبيرة كافية تبادر من فورها إلى القضاء على كل ماقد يقوم من اضطرابات فى هذه النواحى ، وبهذا يتفادى ما تتعرض له جيوشه فى سيرها من دهلى من مصاعب طريقها الطويل لاسيما إبان فصل الأمطار الموسمية ، فوقع اختياره على هذا المكان الذى أطلق عليه هـذا الاسم تمجيدا لذكرى ابن عمه الأمير فخر الدين محمد جونه ، ثم لم يأل جهدا من بعد ذلك فى تعمير هذه المدينة وتجميلها بالمنشآت الفخمة الكثيرة .

وأراد محمود تغلق أن يكافىء وزيره وقائده خواجه جهان سرور على مابذل له من همة فى القضاء على فتن الخارجين على سلطانه فأنعم عليه عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م بلقب شاه شرق (ملك الشرق) وعهد إليه بحكومة كافة الأراضى الواقعة فيما بين قنوج وبهار .

وما لبث هذا الحاكم أن بسط نفوذه على الدوآب واتخذ لنفسه مقاما فى جونپور . ولم يمض إلا القليل حتى أعلن أصحاب لكهناوتى وجاجنكر خضوعهم له بدورهم ، فصاروا يبعثون إليه بالجزية التى جروا على إرسالها إلى دهلى من قبل .

وانتهز هذا الأمير فرصة تعرض الهندستان للغزو التيمورى

فأعلن إستقلاله بما فى يده من أرضين . حتى إذا ما انقلب الفاتح المخرّب عائدا إلى بلاده فسار إقبال خان فى قوات كبيرة إلى جونپور، دفعه أميرها عنها ولم يمكّنه منها .

كذلك لجأ محمود تغلق بدوره إلى إبراهيم شاه شرقى خليفة مبارك شاه ، على أمل أن يعينه على أسترداده لعرشه من أيدى إقبال خان ، لكن صاحب جونپور كان أحذر من أن يزج نفسه فى متاعب هو فى غنى عنها .

وأفلح إبراهيم شاه شرقى فى استرداد إقليم قنوج على أثر هزيمة اقبال خان ومقتله فى المُلتان ، ثم تابع سيره إلى دهلى ، حتى إذا علم بزحف مظفر خان صاحب الكجرات بدوره إليه ، بادر بالتراجع إلى موطنه .

وركن سلطان جونپور إلى السلم من بعد ذلك خمسة عشر عاما انصرف فيها إلى تنظيم حكومة بلاده و الاشتغال بمختلف فنون المعرفة حتى غدت جونپور من أعظم مراكزها الإسلامية فى زمنه . وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء كانوا قد لجئوا إلى هذه البلاد هربا من وجه الغزو التيمورى فلقوا بها كل ترحيب وإكرام[1] .

---

١ — Lane Poole, Medieval India P 169

هـــذا ولا تزال بهذه الإمارة حتى اليوم جملة من العمائر والمنشآت الفخمة التى أقامها هذا السلطان هناك .

وظل ملوك الشرق هؤلاء يحكمون فى جونپور فترة طويلة تعرضوا فيها لغزوات اللودهين الأفغان أصحاب دهلى حتى انتزعوها منهم .

البنغال : ذكرنا من قبل أن فيروز تُغلق قد أضاع بتردده وضعفه هذا الإقليم الذى يُعد أخصب مناطق الهندستان الشرقية وأغناها ، وإن لبث أمراء هـذا الإقليم يبعثون من حين لآخر بهدايا هم إلى سلاطين دهلى .

وقد صار هـــذا الإقليم فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر من أقوى الإمارات الهندية وأعزها جانبا[١] .

ويشتهر من بين حكام البنغال حسين شاه أول من استقل به . ويذاع عنه ابتكاره لدين جديد يجمع بين عقائد الهنادكة ومذاهب المسلمين ، وهو نفس الأمر الذى نُسب إلى أكبر أعظم سلاطين الدولة المغولية من بعد . كذلك عنى نُصرت شاه بن هذا الأمير بتوسيع رقعة ملكه وإقامة جملة من العمائر الفخمة ببلاده ، إلى

---

١ ــ تحدث ابن بطوطه حديثا طويلا عما شاهده بهذا الاقليم من رواج وتقدم فى رحلته راجع ص ٢١١ ، ١٢

جانب حرصه الشديد على رواج الحياة الثقافية فى عهده . وهذا الحاكم الذى ظل ممسكا بزمام أمور البنغال من عام ٩٢١ هـ إلى عام ٩٣٩ م قد وصفه ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية فى سيرته بأنه أحد الأمراء الخمسة الكبار فى الهند ستان .

وخلف الأمراء الأفغان هذه الأسرة الحسينية بهـذه الإمارة حتى انتزعها السلطان أكبر من أيديهم أواخر القرن العاشر الهجرى .

الدكن : لم يتيسر لأحد من سلاطين دهلى منذ وفاة محمد تغلق أن يبسط نفوذه فى الواقع إلى ماوراء تلال الوندهايا جنوبا، فقد راح أمير يدعى علاء الدين كانكوى (جنجو) ظفر خان يتزعم حركة اضطرابات واسعة فى الدكن ، فأعلن خروجه على سلطان دهلى عام ٧٤٣ هـ ثم راح يبسط نفوذه على كافة الأقاليم الدكنية التى كان كل من علاء الدين الخلجى ومحمد تغلق قد انتزعاها من الأمراء الهنادكة فى الهضبة الهندية الوسطى والسهل الجنوبى . وصارت بلاده تعرف بسلطنة بهمنى نسبة إلى جد له كان يدعيه هو بهمن ابن اسفنديار أحد ملوك الفرس الأقدمين . وموقعها اليوم هو إقليم بمباى وولاية حيدر آباد الدكنية[1] .

---

١ — تاريخ فرشته ص ٢٧٨

وحارب سلاطين هذه الأسرة راجا تلنجانا وضموا إلى ملكهم إقليم غولكونده وأورانكل وأجزاء من أوريسه فى شرق بلادهم. وبلغت بلادهم أوج قوتها بفضل وزيرهم محمود جوان الذى كان أول من أنزل هزيمة ساحقة براجا إمارة ڤيايانكر الهندية، واستولى على أجزاء من بلاده التى ظلت مدى قرنين من الزمان مصدر متاعب لما كان يجاورها من الإمارات الإسلامية. وبجهود هذا الوزير ازدهرت كذلك الحركة العلمية هناك، فظهرت مؤلفات قيمة فى الرياضيات والطب والأدب. واشتهرت مكتبة هذا الوزير بمدرسته فى مدينة بِدَر بما كانت تحويه من نفائس المخطوطات الكثيرة[1].

ولقد أجمع جمهرة من المؤرخين على الإشادة بحسن تدبير هذا الوزير وشجاعته وحدبه على تدعيم أركان السلطنة وتوسيع رقعتها. هذا مع حرصه البالغ على قيام العدل بين الأهلين، وشدة ورعه وزهده إذ كان لا ينام إلا على حشية بسيطة خشنة، ولا يتناول طعامه إلا فى آنية رخيصة من الفخار، مع بره الشديد بالفقراء حتى كان يُخرج أغلب دخله لهم. على أن عنفه البالغ فى معاملته لمنافسيه واعدائه من أمراء الهنادكة والمسلمين على السواء، قد

١ — Prasad. Medieval India p 373.

دفعهم آخر الأمر إلى التآمر عليه بهتانا عند السلطان محمد الثالث الذى أورده حتفه بأيدى جلاده الحبشى جوهر[1] ؛ فجاء مقتله إيذانا بانهيار هذه الدولة الدكنية الكبرى .

وبلغ عدد سلاطين بهمنى أربعة عشر حاكما ، كانوا فى الغالب على غلظة شديدة وميل بالغ إلى سفك الدماء ، وإن لم يمنعهم ذلك من العناية بشئون بلادهم، فأمنوا الطرق وشقوا الترع والقنوات ، واهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ورعوا العلوم والفنون . كما أقاموا كثيرا من المنشآت والمدارس والمساجد ، وإن لم تبلغ العمارة عندهم من الروعة ما بلغتها عند غيرهم من الأمراء المسلمين بالهند . ولقد هال جوّابوا هذه البلاد ماوأوه عندهم وعند رجالهم من الثراء الفاحش والبذخ البالغ ، إلى جانب البؤس الذى كان يقيم فيه أغلب العامة ، وهى سُنة من أسوء سنن العصور الوسطى التى كانت شائعة فى كل بلد على كل حال .

ولم يمض عامان على مقتل الوزير محمود جوان حتى طفق عقد سلطنة بهمنى ينفرط بالتدريج حتى إذا ما أهل عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م أسدل الستار نهائيا على هذه الدولة التى عمرت قرابة قرنين من الزمان ، فقسمت أراضيهـــا إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة

١ — تاريخ فرشته ص ٣٥٧

متحاربة على الدوام هى برار وبيجاپور وأحمد نكر وغولكونده وبيدر .

وكانت برار هى أول إمارة انسلخت عن أسرة بهمنى ، ليستقل بها عام ٨٩٠هـ/١٤٨٤ م فتح الله عماد شاه ، وكان فى أصله هندوكيا اعتنق الإسلام . ولبثت أسرة عماد شاه هذه تحكم تلك الإمارة حتى عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤ م ليضمها أمراء نظام شاهى أصحاب إمارة أحمد نكر من بعد ذلك إلى ملكهم .

أما سلطنة بيجاپور فيقال إن يوسف عادل شاه ، أول سلاطينها ، كان فى الواقع من أبناء السلطان العثمانى مراد الثانى ، وكانت أمه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح حين بلغها ما انتواه من قتل جميع إخوته الذكور صونا لعرشه ، فاحتالت على تقديم ولد آخر بدل أبنها الذى عهدت به إلى تاجر فارسى . ولم يطل المقام بالأمير العثمانى بإيران ، فقصد إلى الدكن مع قوافل الفرس والأتراك الذين كان يجتذبهم صيت بلاط بهمنى الذائع ، فالتحق بخدمة الوزير محمود جوان الذى أنزله فى نفسه منزلة ولده .

وحين بدأ الضعف يدب فى سلطنة بهمنى عمد يوسف هذا عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩ م إلى إعلان استقلاله بهذه الإمارة .

وتعرض هذا السلطان لهجوم هنادكة ڤيجايانكر مع فريق من

جيرانه بتحريض من قاسم بريد وزير سلطنة بدر فأدى ما أنزله بهم من هزائم، مع استيلائه على معسكراتهم، إلى توطيد أقدامه وذيوع صيته.

وخان هذا السلطان التوفيق بعد قليل حين أعلن اعتناقه لمذهب الشيعة وراح يحمل قومه على الدخول فيه قسرا، حتى تألب جميع جيرانه عليه، واضطروه إلى الخروج من بلاده. وحين لجأ إلى عماد الملك صاحب برار، نصحه بإعلان رجوعه إلى مذهب أهل السنه والإقامه بخاندش حتى تهدأ الأحوال.

وآب يوسف عادل إلى بلاده من جديد، فاتجه عام ٩١٧هـ/١٥١٠م على رأس قوة من الجند استرد بهم جوا من أيدى البرتغاليين.

ولم يمض أشهر قلائل على موت هذا السلطان حتى استعاد المستعمرون هذا المرفأ الهام فبقى بأيديهم حتى اليوم، ولامناص من رجوعه إلى الهند صاحبته على كل حال.

ويثنى المؤرخون على هذا السلطان الذى عرف عنه تمسكه بالفضائل وميله إلى العلماء والأدباء، حتى دعى اليه جملة منهم من التركستان وفارس والدولة العثمانية، كما لم يتنكب طريق الحسنى فى معاملته لرعاياه من الهنادكة أو يبخل بمناصب الدولة على الاكفاء منهم.[1]

---

١ — Prasad, India p 382

وحافظ أبناء هذا السلطان على تراثهم سنين طويلة ، حتى إذا ولى الملك على عادل شاه فى منتصف القرن العاشر الهجرى بادر بدوره إلى إعلان تشيعه . وأردف ذلك بتحالفه على جيرانه مع هنادكة ڤيايانكر الذين اجتاحوا إمارة أحمد نكر فانزلوا بأهلها مذبحة شنيعة نبهت السلطان إلى مدى الخطر الذى يتهدد المسلمين على أيدى هؤلاء الهنادكة فنفض يده منهم .

وقد انتظم أمراء الدكن المسلمون من بعد ذلك فى جبهة واحدة متماسكة استطاعت أن تنزل بهذه الإمارة الهندوكية ضربات متلاحقة كان أشدها موقعه تاليكوتا عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥ م .

وآخر سلاطين بيجاپور هو إبراهيم عادل شاه الثانى الذى قضى على إمارة أحمدنكر وضمها إلى ملكه . وقد ذاع صيت زوجته چند بيبى لدفاعها الباسل عن هذا الإمارة فى وجه قوات الدولة المغولية عام ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م .

أما ولاية أحمد نكر فرأس أسرة نظام شاهى التى استقلت بها هو نظام الملك بحرى الذى وزر لسلاطين بهمنى عقب مقتل الوزير محمود جوان ، وكان له فيه مشاركة . وقضى على هذا الوزير اطماعه بعد قليل ، فما لبث ابنه أحمد أن أعلن استقلاله بما فى أيديه من أراضى چونير عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م ، ثم انتقل من بعد ذلك

إلى مدينة أحمد نكر الجديدة فجعلها قصبة لملكه. وجهد هذا الأمير من بعد ذلك فى الاستيلاء على دولت آباد وتوابعها فبلغ غايته فى العام التالى.

ودخل خلفاء هـذا السلطان فى حروب متصله مع جيرانهم حتى انتهى أمر هذه الولاية إلى الدخول فى حوزة الدولة المغولية عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م

هذا وكان قطب الملك، مؤسس أسرة قطب شاهى بغولكونده، فى أول أمره من رجال السلطان محمود بهمنى المقربين. وأعلن هذا الأمير استقلاله بهذه الإمارة عام ٩٢٧ هـ / ١٥١٨ م، وظل يحكمها حتى اغتاله ابنه جمشيد عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م وكان قد بلغ التسعين من عمره.

وليس لسلاطين هـــذه الامارة ما يُذكر إلا مشاركتهم جيرانهم فى محاربة امارة ڤيابانكر الهندوكية، حتى صارت بلادهم أوائل القرن الحادى عشر الهجرى من أملاك السلطان المغولى أورنكزيب.

كذلك استبد بالأمر كله فى إماره بِدَر الوزير قاسم بريد، وذلك فى عهد السلطان الضعيف محمود شاه بهمنى، ثم خلفه فى الوزارة ابنه الامير بريد وظل يتمع بنفوذه الواسع هناك. حتى اذا مافرّ كليم الله آخر سلاطين بهمنى الى بيجاپور، أعلن هذا الوزير

عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٦ م استقلاله بهذه الامارة . وظل أمراء بريد شاهى يحكمون فى بدر حتى عام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ليضمها أمراء عادل شاهى أصحاب بيجاپور من بعد ذلك الى ملكهم .

ومنع أمراء الدكن الاسلامية الأربعة سالفة الذكر هذه من التوسع فى جنوب الهند ما كان من اقتتالها مما سهل على هذه الأراضى الهندوكية الواسعة المحافظة على استقلالها.

ولقد ذكرنا من قبل أن قوات علاء الدين الخلجى كانت قد اجتاحت الجنوب الهندى كله على أيدى قائده كافور . لكن اضطراب الأمور فى سلطنة دهلى ، أواخر أيام محمد تغلق ، أضعف من سلطان المسلمين فى الدكن وماورائها مما مهد لقيام إمارة ڤيايانكر القوية التى شغلت رقعة واسعة من الارض بأدنى سلطنة بهمنى .

وأمراء ڤيايا نكر الهنادكة هؤلاء هم خلفاء الكوليين الذين ورد ذكرهم فى مراسيم آشوكا والذين ورثوا ملك پنديا فى الجنوب، تلك المملكة التى ذاع صيتها فى القرن الاول الميلادى والتى كانت عاصمتها مادورا تعد من أجل بلدان الهند .

ومؤسسا هذه الامارة هما هارى هارا وأخوه بوكا اللذان ينحدران من صلب أمراء يادافا أصحاب دواكر .

ووزر هذان الأخوان أول أمرهما لراجا أنا غوندى بالملبار، ووقعا معه فى أسر سلطان دهلى محمد تغلق الذى ارتأى أن يبعث بهما نائبين عنه بهذه الإمارة فيعاون وجودهما بها على الحد من ثورات الهنادكة هناك .

لكن الوزيرين الهندوكيين ما لبثا أن عملا بنصيحة حكيم هندى يدعى ڤيديارانيا فنزعا إلى الاستقلال بما فى أيديهما من أقاليم ، وبادرا من فورهم إلى إقامه مدينة ڤيايا نكر الحصينة على شاطئ تنجبهاردا لتكون لهم من غزوات المسلمين ردءا ، فأطلق اسمها من بعد ذلك على الإمارة كلها .

وانفرد هارى هارا بالملك بعد قليل فعمل على توسيع رقعة إمارته، فلم ينصرم عام ١٣٤٠م حتى كان سلطانه يظل وادى تونجبهاردا إلى الجنوب من بيجاپور مع أجزاء من كونكان وساحل الملبار

واشتبك هذا الأمير وخلفاؤه فى حروب طويلة مع جيرانهم، وفيهم سلاطين بهمنى الاقوياء ، مما عرّض إمارتهم الناشئة إلى خسائر فادحة .

وكان أعظم حكام ڤيايا نكر هو كرشنا ديو الذى حكم فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وفى عهده ازدهرت عبادة وشنا ولقيت آداب السنسكريتية والتلنجو رعاية كبيرة

وراجت العمارة والنحت [١] .

ووسع هذا الأمير رقعة ملكه على أثر انتصاراته المتكررة على حكام الدكن ، فضم أوريسه إلى بلاده مع منطقة مدراس وميسورى الحالية .

وسعى إليه البرتغاليون يخطبون ودة فأقاموا معه علاقات اقتصادية وسياسية هدفوا من ورائها إلى كسبه لصفوفهم فى حروبهم مع الإمارات الإسلامية عند ساحل الهند الغربى . وحين بلغ هذا الأمير سقوط جوا بأيدى هؤلاء المستعمرين لم يكتف بإيفاد رسله يحملون إليهم التهنئة فحسب ، بل سمح لهم كذلك بإقامة حصون لهم عند بها تكال بشواطئ بلاده الغربية .

على أن خلفاء هذا الأمير القدير لم يستطيعوا الوقوف فى وجه جبهة أمراء الدكن المسلمين الذين اقتحموا عليهم بلادهم فأعملوا فيها التخريب والتدمير . ولم تنته انتصارات تليكوتا عام ١٥٦٥ م إلى إضعاف سلطان الهنادكة فى الجنوب فحسب ، بل أدت كذلك إلى القضاء على نفوذ البرتغال الاقتصادى هناك .

وأضاع من ثمار هذه الإنتصارات الإسلامية ما كان من قيام النزاع والخلاف بين الفاتحين على الأسلاب . حتى بدأت قوات

---

١ — Prasad. Medieval India p 408.

الدولة المغولية ، منذ أيام السلطان أكبر، تتوغل فى الدكن، فلم ينته عهد أورنكزيب حتى كانت رايتهم تظل شبه القاره الهندية كلّها ، إلى أن ظهر المراتها فنازعوا المسلمين الجنوب من جديد .

## أسرة السادات ببرهلى

تلك كانت هى حال الهند - على ما قدمناه عن انفراط عقد الدولة الاسلامية بها - حين استخلص خضر خان نائب التيموريين لنفسه عرش دهلى من أيدى فلول التُغلُقيين عام ٨١٧هـ/١٤١٤م، فأسس أسرة حاكمة عرفت فى التاريخ باسم أسرة السادات، إذ كان يقول بامتداد نسبه إلى النبى الأكرم . (١)

ولم يكن خضر خان فى الواقع غريبا عن الهندستان أو فى أصله رجلا من رجالات تيمور ، فقد نشأ عند ناصر الملك مردان دولت أمير الملتان ، ثم مالبث فيروز تُغلق أن أقامه عليها بعد موت سيده .

وحين شاع الاضطراب فى الدولة عقب موت فيروز تغلق ، سقطت الملتان وأميرها فى أيدى سارنك خان أخى مالو إقبال

---

١ — تاريخ فرشته ص ١٦١

خان . لكن خضر خان احتال على الهرب من آسريه ثم اتصل من بعد ذلك بتيمورلنك حين غزا هذه البلاد ، فرضى عنه ونصبه عند رحيله نائبا له هناك .

ولئن كان خضر خان قد غدا صاحب دهلى دون منازع ، فإن سلطنته الجديدة لم تكن إلا كفلك فى بحر لجى تحيط به الأمواج العاتية من كل جانب . فالدوآب ما فتئ منذ أيام بلبن مقيم على الاضطرابات ، وهذه هى أتاوه وقنوج وبداون وكاتيهر قد ضؤل شأن دهلى فى أعين أصحابها ، من مسلمين وهنادكة ، فكفوا أيديهم عن مدها بالخراج ، وهؤلاء أمراء الكجرات ومالوه وجونپور ، الذين استقلوا ببلادهم ، لم يمنعهم اقتتالهم من مهاجمة سلطنة دهلى والتطلع الى الاستيلاء عليها ما سنحت لهم الفرصة واستطاعوا الى ذلك سبيلا . وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت قبائل الكهكر لا تنفك تثير الاضطرابات العنيفة عند الملتان ولاهور .

وبقى صاحب دهلى الجديد على ولائه الإسمى لتيمور وأولاده من بعده ، فكان يجرى الخطبة باسمهم ثم باسمه ، وكذلك فعل بالسكة . كما لم يفته كذلك أن يبعث بين الفينة والفينة بقدر من المال والهدايا الى أصحاب سمرقند .

وبادر هذا الأمير من فوره إلى إعادة تنظيم شئون حكومته

مستعينا فى ذلك بطائفة من الرجال الأكفاء، حتى أتيح له أن يخفف كثيرا من آلام الفقراء والمعوزين الذين كانت تموج بهم العاصمة من أثر الاضطرابات والأحداث السياسية الطويلة التى اجتاحت الدولة .

ثم اتجهت همته من بعد ذلك إلى العمل على استعادة هيبة الدولة السابقة ومحاولة استرداد ما ضاع منها من أرضين ، فبعث بقواته ، وعلى رأسها وزيره تاج الملك تحفة ، إلى الدوآب وكواليار وچندوار وأتاوه وبارن وجاليسر وكهور وتنبل، فمازالوا بأصحابها حتى ردوهم إلى طاعة دهلى ومسالمتها . وكذلك صار حال الملتان والسند .

وحين مات خضر خان عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢١ بكاه الناس فى العاصمة إذ كان بهم بارا ورفيقا(١) .

ونهج نهجه ابنه السلطان معز الدين أبو الفتح مبارك شاه فى تثبيت الأمراء على إقطاعاتهم وولاياتهم عساه يضمن بذلك ولاءهم ومؤازرتهم له فى القضاء على الفتن والاضطرابات التى ما فتئت تجتاح البلاد . فهذا هو جسرت كهكر ومعه طُغاى ترك مازالا يعيثان فى المناطق الشمالية الغربية فسادا، حتى سولت الأول أطماعه بالزحف على دهلى نفسها فعبر رافد سُتلج السندى واستولى على حصن

---

١ — تاريخ فرشته ص ١٦٣

سر هند ، فلم يمنعه عن التقدم إلى العاصمة إلا خروج السلطان اليه بنفسه فاسترد منه أغلب الأراضى التى كانت فى حوزته وأقر الأمور فى لاهور وما حولها . على أنه لم يكد يعود إلى حاضرته حتى انحدر هذا الثائر إلى لاهور من جديد ، فلم يفلح حاكمها فى رده عنها إلا بعد أن وصلته إمدادات السلطان التى نزل بالعدو هزائم قوية أرغمته على الاعتصام بالمناطق الجبلية هناك .

والتفت السلطان من بعد ذلك إلى الاضطرابات التى نشبت فى الدوآب وكتبهر وأوده وكواليار وبيانه وچندوار وكالبى فقضى عليهـــا جميعا ، كما هزم قوات إبراهيم شاه شرقى أمير جونپور ليتحول كرة أخرى إلى المنـاطق الشماليه الغربية حيث انضم أصحاب كابل هذه المرة إلى الكهكر فاجتاحوا البنجاب كله والملتان ونهبوا أراضيه .

ولئن كان السلطان قد خرج من هـذه المعارك جميعا ظافرا منصورا إلا أنه لم يُفلت آخر الأمر من سيوف فريق من رجاله الذين كانوا ينفسون على وزيره كمال الملك نفوذه البالغ .

وعادت عجلة الثورات ، على سُنة العصر ، إلى الدوران من جديد ، إذ كفّ إبراهيم شاه شرقى وراى كواليار ومعهم طائفة من أمراء الهنادكة عن دفع ما لدهلى عندهم من خراج وأتاوات . وشجع

هذا الإجراء محمود الخلجى صاحب مالوه ، فخرج بجنده زاحفا إلى دهلى ، فلم يرجع عنها إلاحين برز أحمد شاه صاحب الكجرات يهدد عاصمته ماندو . وقد تعقبه فى ارتداده بهلول خان لودهى، حاكم لاهور وسرهند ، الذى كان قد أسرع لنجدة السلطان ، فانتهب مؤنه وأسلحته .

وكان مما دفع هؤلاء الأمراء إلى الخروج على سلطان دهلى من جديد ، هو عودة الوزير كمال الملك إلى منصبه كرة أخرى . ذلك أن سرور الملك الذى كان قد خلفه فى الوزارة راح، عقب تولى السلطان الجديد محمد شاه حفيد خضر خان الملك ، ينعم على أولئك الذين تآمروا على حياة السلطان السابق وفيهم سيدهو پال الهندوكى ويجزل العطاء لهم مما أثار عليه ثائرة كمال الملك وعصبته فبادروا بالقضاء عليهم جميعا .

واستمع بهلول لودهى ، على أثر ما أحرزه من نصر ، إلى تحريض الكهكر الذين زينوا له وبعض الأمراء الأفغان الزحف على دهلى وانتزاعها من أصحابها [1] .

ولم يكن صد دهلى للفائد اللودهى على كل حال إلا إلى حين . فما إن ولى العرش عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م علاء الدين علم

١ — نظام الدين أحمد بخشى : طبقات أكبرى كلكتا ١٩٢٣ . ص ١٤٨

شاه،وكان أميرا ضعيفا ، حتى انتقل ببلاطه إلى بيانه ليدفعه قصر نظره بعد قليل إلى محاولة التنكيل بوزيره حُميدخان الذى سارع من فوره إلى الاستنجاد ببهلول لودهى ، وكان هـذا الأخير قد بسط نفوذه على البنجاب الشمالية كلها من لاهور ودبپالپور وسرهند إلى هانسى وحصار وبانى پت .

وهكذا واتت الأمير اللودهى الفرصة المرتقبة سريعة ميسرة للجلوس على عرش دهلى ، فلم يلق من آخر سلاطين السادات أدنى مقاومة ، اللهم إلا رجاء بتأمين إقامته ورزقه فى بداون ، فبقى بها إلى آخر أيام حياته حتى قضى عام ٨٨٣ هـ ١٤٤٨ م.

# اللودهيون الأفغان

لقد أمل الحكام السادات حين صار لهم عرش دهلى أن يستعيدوا لسلطان المسلمين بالهندستان سابق وحدته ويستردوا للحكومة المركزية ماضاع منها من نفوذ وأرضين ، فبذلوا فى ذلك جهودا مضنية ذهبت كلها أدراج الرياح ، فانتكس الحال فى أواخر أيامهم إلى أسوأ مما كان عليه أول عهدهم بالحكم . فالدكن والكجرات ومالوه وجونبور والبنغال مابرحت فى أيدى أمرائها الذين كانوا قد استقلوا بها ، وأغلب البنجاب قد صار بأيدى القائد الأفغانى الثائر بهلول لودهى ، كما غدت مهروالى وما حولها حتى سراى لادو القريبة من دهلى فى حوزة أحمد خان مواتى . أما سنبهل حتى ضواحى العاصمة فكان يسيطر عليها دريا خان لودهى ، فى حين كان يقتسم النفوذ فى الدوآب جملة من الأمراء الآخرين ، منهم قطب خان وعيسى خان ترك . هذا كما كانت بيانه من نصيب داود خان لودهى يشاركه فيها أمير هندوكى ، فى الوقت الذى كان فيه راجا برانات سنغ يبسط نفوذه على

باتيالى وبكبيله وما وراءهما .

وهؤلاء الأمراء اللودهيون ، الذين نراهم مع فريق من الأمراء الهنادكة قد انتشروا حكاما فى شمال الهند على أراض غير بعيدة عن العاصمة ، ينتمون إلى إحدى القبائل الأفغانية التى كانت تضطلع بالمتاجرة ونقل السلع بين فارس وأواسط آسيا والهندستان .

وفى ايام فيروز تغلق التحق جد هؤلاء الأمراء الأكبر ، ويدعى بيرم لودهى وكان من الأثرياء ، بخدمة مردان دولت الذى سرعان ماعهد إليه بحكم الملتان .

وحين صار أمر هذا الإقليم إلى خضر خان ، عهد بقيادة جنده الأفغان إلى ملك سلطان بن بيرم لودهى . حتى إذا ما تمكن هذا القائد من القضاء على حاكم دهلى إقبال خان كافأه سيده بتقليده ولاية سرهند وأنعم عليه بلقب إسلام خان . وعهد هذا الأمير اللودهى ، حين شعر بدنو أجله ، بقواته وأملاكه إلى ابن أخيه وختنه الفتى اليافع بهلول لودهى وكان أثيرا عنده لشجاعته وحزمه برغم صغر سنه .

ولئن كان الأمراء اللودهيون قد انقسموا على أثر وفاة إسلام خان إلى شيع ثلاثة متعادية ، إلا أن بهلول لودهى أفلح

آخر الأمر ، بحسن تدبيره ، فى لم شملهم فى جبهة موحدة ثبّتت مراكزهم ودفعت عنهم أخطار الكهكر فى البنجاب وأخطار دهلى معاً .

وكان أن استنجد محمد شاه سلطان دهلى بالأمير اللودهى لدفع خطر السلطان محمود الخلجى صاحب مالوه عن عاصمته ، فأمدّه بعشرين ألفا من الفرسان الذين أشاعوا الفوضى فى صفوف العدو ونهبوا معسكراته . وانطلق بهلول لودهى ، بعد هذا النصر الذى أحرزه ، يطوى تحت نفوذه أراض واسعة كثيرة بالبنجاب ثم استدار من بعد ذلك يهاجم دهلى نفسها حتى سقطت فى يده على ما فصلناه فى موضعه [١] .

ولم يكن بهلول لودهى ، وهو المحارب الطموح ، يرى فى استيلائه على العاصمة إلا وسيلة إلى غايته الكبرى فى تحقيق حلمه وحلم كل سلطان سبقه باستعادة مجد دهلى على الصورة التى كانت لها أيام الغزنويين والغوريين والخلجيين من قبل .

ولم يتردد زعيم اللودهيين فى سبيل تثبيت أقدامه وتدعيم سلطانه عن سلوك كل سبيل إلى غايته . فتآمر ورجاله على التخلص من الوزير القوى حميد خان ، وهو الذى كان قد مكنه بتدبيره من

---

١ — تاريخ فرشته ص ١٧٣ — ١٧٥

دخول دهلى وتسلمه لمقاليد الامور بها .

وتفصيل ذلك أن بهلولا عمد ، أول الأمر ، إلى توفير ضروب التبجيل والتوقير لهذا الوزير . حتى إذا ما قصد هذا الأخير إلى مقر الأمير الجديد فى إحدى زيارته له أوعز بهلول إلى بعض رجاله أن يُصدروا عنهم من الإشارات ما يوحى إلى من يراهم بترجيح بلا هتهم وسذاجتهم ، بما أشاع السرور والبهجة فى نفس زائره . وخرج الأمير اللودهى يرد الزيارة بدوره للوزير وفى صحبته فريق كبير من هؤلاء الرجال . حتى إذا ما بلغت أسماع حميد خان ما أثاروه من ضوضاء وضجيج عند أسوار داره ، أمر حراسه من فوره بفتح الأبواب لهم مبتهجا ، فما كادوا يستوون بمجلسه حتى رفعوا سيوفهم فى وجهه ، وقد قام زعيمهم يعتذر إليه عن قسوة هـــذا الإجراء بضرورات السياسة . وتُرك له حرية اختيار المكان الذى يرغب فى لزومه بعيداً عن العاصمة ، فقد أعفى من القتل اعترافا بسابق أياديه على بهلول .

وقصد المتآمرون من بعد ذلك إلى السلطان علاء الدين بمقامه فى بيانه يعلنون ولاءهم له ، ولكنه كان فيه من الزاهدين .

وطفق بهلول لودهى يغدق بدوره على الجند وقادتهم الهبات والعطايا ، لكن طائفة كبيرة من الأمراء الذين لم يرضوا عن

سلوك هذا الزعيم الأفغانى وعصبته ، ما غدوا أن انتهزوا فرصة خروجة إلى الولايات الشمالية الغربية فاتصلوا بالسلطان محمود شاه شرقى صاحب جونپور وتعجلوا زحفه إلى العاصمة .

وما إن أحيط بهلول بالخبر حتى بعث برسله ترحب بالسلطان الزاحف الذى كان على معرفة تامة بأساليب هذا الأمير الأفغانى وحيله الماكرة ، فلم يلق بالا إلى سفرائه وضرب الحصار على دهلى فى مائة وسبعين ألفا من الجند ومعهم أربعمائة من الفيلة .

على أن انسحاب الأمراء الأفغان المفاجئ مع قواتهم من جيش الشرق ، أرغم السلطان محمود على النكوص عجلا إلى جونپور مع من بقى معه من قوات قليلة . ونتج عن هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الأمير اللودهى ، أن اشتدت هيبته بين أعدائه وأصدقائه على السواء ، فخفتت أصوات معارضيه فى بلاده ، فى حين سارع كثير من أمراء الأقاليم المجاورة يعلنون ولاءهم له ودخولهم فى طاعته .

ولئن كان الأمر قد استتب كذلك للسلطان اللودهى فى إقليم الدوآب ، فإن أصحاب جونپور من ملوك الشرق، فيما وراء هذا الإقليم، لبثوا يرون فى بهلول ، برغم ما قام بينه وبينهم من مواثيق وعهود ، مغتصبا لعرش دهلى غير جدير به على كل حال . فتوالت

المعارك بينهم وبينه حتى كاد السلطان القدير حسين شاه شرقى أن يوقع بالزعيم الأفغانى ، لولا ما عمد إليه هـذا الأخير من الحيلة المشوبة بالغدر على أثر إحدى مرات التصالح والهدنة ، إذ سقط على مقام ملكه جهان، زوجة ملك الشرق، فأخذها فى أسره ، وإن ردها من بعد ذلك مكرّمة إلى بلادها .

وبلغ بهلول بغيته آخر الأمر على كل حال بالاستيلاء على إقليم جونپور فأقام ابنه باربك عليه ، كما بسط سلطانه كذلك على كالبي ودُهلپور وبارى وموار وموات .

وفيما كان السلطان اللودهى فى طريقه إلى عاصمته ، بعد استيلائه على كواليار ، دهمته الحمى فلقى حتفه عام ٨٩٣هـ/١٤٨٨م .

ولئن لم تترك الحروب المتواصلة التى خاضها بهلول لودهى وقتا كافيا له للالتفات إلى تنظيم شئون حكومته ، فقد أدت انتصاراته إلى استرداد الكثير من هيبة الحكم الإسلامى الضائعة بالهندستان . وقد عُرف هذا الجندى الموهوب بإجراء العدل فى بلاده مع الكرم والعطف الكثير على الفقراء ، وتقدير العلماء ، وفرط الزهد والتقوى حتى قيل بأنه أمر برفع اليواقيت والأحجار الكريمة عن العرش .

واختلف الأمراء فيما بينهم حول من يجلسونه على عرش بهلول ،

فمنهم من رشح له همايون حفيد السلطان الراحل ، ومنهم من انتصر لباربك خان أكبر أولاده . حتى أفلحت السلطانة زينة آخر الأمر ، ـ بحسن تدبيرها ومعونه خان جهان لوحانى وخان خانه فرملى ، ـ فى تغليب الرأى القائل بإلقاء مقاليد الحكم إلى الأمير نظام خان، وهو الذى رقى العرش باسم سكندر شاه (١) .

وسار السلطان الجديد سيرة أبيه فى تدعيم ملكه ، فبرز من فوره للقضاء على أولئك الذين أعلنوا الخروج عليه من جديد ـ وهى ظاهرة إقطاعية كانت تلازم كل سلطان جديد يلى الحكم ، فإن أنس الأمراء فى أميرهم الجديد القوة والحزم بادروا بإعلان ولائهم له ودخولهم فى طاعته ، وإلا فهم يتمادون فى طغيانهم ، ويحاكيهم فى ذلك غيرهم من جيرانهم إلى حدّ أنهم قد لا يترددون فى تهديد العاصمة نفسها بقواتهم .

وانتزع سكندر شاه قلعة ربرّى ومعها حصن چندوار من أخيه الثائر علم خان، وما زال يطارده من بعد ذلك حتى استسلم له عند أتاوه ، كما استسلم له بدوره ابن عمه عيسى خان عند باتيالى .

وسار السلطان اللودهى من بعد ذلك إلى جونپور، وكان بها أخوه باربك الذى رفض الإقرار له بالولاء . وقد أدى إلى

---

١ ـ طبقات أكبرى ص ١٥٩

انهيار مقاومة هـــذا الأمير الثائر انضمام قائده محمد خان فرمُلى المعروف بكالا بهار إلى صفوف صاحب دهلى . على أن سكندر شاه ما لبث أن رد أخاه إلى إمارته ، وسير معه فريق من القادة الأفغان لتدعيم تلك الجبهة الشرقية التى كان يكمن فيما وراءها بهار السلطان حسين شاه شرقى فى انتظار الفرصة المواتية لاسترداد أراضيه .

ولم يرجع سكندر شاه إلى عاصمته فى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م حتى كانت كالبى وكواليار وبيانه قد دخلت جميعها فى طاعته بدورها(١).

ونزع أصحاب الأراضى فى جونپور إلى الثورة من جديد بتحريض من أميرهم السابق ، حتى اضطر باربك خان للفرار إلى محمد خان فرمُلى فى كالبى . وأدى تفاقم أمر العصاة الهنادكة هناك إلى خروج السلطان بنفسه إليهم ، حتى بلغ چنار فأنزل بهم هزيمة شديدة . لكن خسائره الكثيرة فى هذه المعارك وانتشار الأمراض والمجاعة فى صفوف جيشه ما لبثت أن أيقظت الآمال كرة أخرى فى صفوف الثوار ، فبعثوا يحرضون السلطان حسين شرقى على القدوم إليهم . وقد أفلح خان خانه فرمُلى أن ينزل بقوات هذا

---

١ — مخزن أفغانه وتاريخ جهان لودى لنعمت الله ترجمة برنهارد ص ٦٥

السلطان الشرقى الكبيرة ، ومعها قوات جيرانه من الهنادكة ، هزيمة حاسمة على كل حال عند بنارس ، فر حسين شاة على أثرها إلى بهار ، فابرحت قوات دهلى تطارده هناك حتى لجأ آخر الأمر إلى كلجام من أعمال لكهناوتى فقضى بقية عمره فى ضيافة صاحب البنغـــال .

وشجع سقوط بهار فى أيدى قوات دهلى عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م السلطان سكندر على الزحف إلى البنغال ، فبلغ حـــدودها بعد أن دخل ترهوت وأخذ الولاء من أميرها الهندوكى . وبرغم مسير دانيل خان فى قوات كبيرة لمدافعة الغزاة بأمر من أبيه علاء الدين أمير البنغال ، فقد تحاشى الطرفان آخر الأمر النزال الجدى على تعهد من علاء الدين بعدم إيواء الخارجين على سلطان دهلى ببلاده .

ورجع السلطان اللودهى عن هذه الأقاليم الشرقية بعد أن عهد إلى دریاخان لودهى بإقليم بهار على أن تكون شئون الخراج فى ترهوت وما حولها لأعظم همايون بن خان جهان فرملى .

وضاق سكندر شاه ذرعا بمضايقات أمرائه الأفغان الإقطاعيين ، بعد أن كشف عن تآمرهم على قتله ، فلم يكتف بما أنزله بهم من عقوبات صارمة حتى استقر رأيه آخر الأمر ، فى

سبيل إحكام رقابته عليهم ، إلى اتخاذ مقام حصين يتيسر له منه تضييق الخناق عليهم فى أتاوه وبيانة وكول وكوالیار ودُهلپور ، فأنشأ مدينة آكرا الحالية على نهر جمنه إلى الجنوب من دهلى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م .ومن أسف أن هذه المدينة التى زخرت بكثير من المنشآت الجميلة فى وقت قصير ، ما لبث أن اجتاحها فى العام التالى زلزال مدمر خرب أغلبها .

وقضى سكندر شاه بقية أيامه،حتى لقى ربه عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، فى مواجهة عصيان أمرائه الأفغان بأغلب نواحى بلاده ، ذلك العصيان الذى دفع بالأمراء الهنادكة فيما بعد إلى الخروج للثورة بدورهم واقتطاع كثير من أراضى الدولة لأنفسهم .

وبموت هذا السلطان فقدت دهلى أقدر حاكم عرفته من بين اللودهيين وأعدلهم.فقد راقب سلوك عماله نحو رعاياه فى حزم ويقظة أعانه فيها شبكة قوية من العيون كانت منتشرة فى أنحاء سلطنته(١) . وبلغ من بره وعدله كذلك أنه كان يجلس للاستماع إلى شكاوى الأهلين بنفسه ،كما عمل على توفير الأقوات لهم ،وضبط أسعارها ضبطا محكما. هذا كما كان يأمر من حين لآخر بإحصاء الفقراء والمعوزين ومنح كل واحد منهم من المؤن ما يكفيه لأشهر ستة .

---

١ — طبقات أكبرى ص ١٧

وكان من أثر شدة شغف هذا السلطان بالمعرفة أن نُقلت فى عهده إلى اللغة الفارسية — لسان العصر العلمى بالهندستان إذ ذاك — جملة من المؤلفات السنسكريتية المهمة خصوصا فى الطب .

هذا كما قضى كذلك على عصابات اللصوص وأمّن الدروب والطرق . وعنى عناية فائقـــة برواج التجارة ، و شجع الحرف والصناعات، و التفت التفاتا كبيرا إلى إشتغال الجند ورؤسائهم بها فى أوقات السلم والفراغ .

ولئن أدى اهتمام هذا السلطان البالغ بنشر الإسلام فى ربوع بلاده ، إلى هدمه لبعض المعابد الهندوكية وإقامة مساجد للمسلمين مكانها ، أو قتله بعض من رفض اعتناق الإسلام من الهنادكة ، فإن مثل هذا الصنيع ، وإن كنا لا نقره اليوم ، لم يكن إلا ظاهرة من ظواهر العصر العامة التى كانت تنتشر فى أوروبا بدورها كذلك . (١)

وخلف سكندر ابنه إبراهيم على عرش الهند ، ولكنه لم يكن له من حزم أبيه وشدة بأسه نصيب. فانطلق الأمراء الأفغان من عقالهم يجهرون بالعصيان حتى أخذ بناء السلطنة يتصدع لينتهى به الأمر إلى الانهيار التام على يد الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر حين دخل الهند غازيا .

---

١ — Prasad. Mediéval India p 482

ولقد حاول هذا السلطان اللودهى الجديد أن يخطب ود الأمراء الأفغانيين أول الأمر بالرفق والصلات وحسن المودة ، ولكنهم، وقد كانوا يعتقدون أن إقطاعاتهم وإماراتهم لم تصر إليهم إلا بقوة سيوفهم ، ما كانوا ليركنوا إلى السلم إلا إذا استشعروا فوق رقابهم يداً قوية مثل يد سكندر شاه .

وإلى جانب هؤلاء الأمراء الأفغان ، كان الأمراء الهنادكة بالراجپوتانا تفيض نفوسهم بالكراهية لبيت اللودهيين ، تلك الكراهية التى زاد من رسوخها عندهم سياسة سكندر لودهى الدينية التى أشرنا إليها من قبل .

ومالبث فريق من هؤلاء الأفغان المتآمرين، أن أجمعوا أمرهم على المناداة بجلال الدين بن سكندر شاه سلطانا على جونپور ، على أن يقتصر سلطان إبراهيم على دهلى وما حولها .

ولئن أفلح خان جهان لوحانى، أحد كبار رجال السلطان سكندر، فى حمل طائفة من المتآمرين على الرجوع الى صفوف سلطان دهلى، إلا أن ذلك لم يثن جلال الدين وطائفة أخرى معه عن المضى فيما كانوا قد اعتزموه من الأمر .

هنالك لم ير إبراهيم اللودهى مناصا من إلا الخروج لقتال أخيه ، فحبس إخوته الآخرين بحصن هانسى فنقوا به إلى آخر

حياتهم ، ثم مازال بجلال الدين حتى انفض عنه فريق كبير من جنده وقادته وفيهم أعظم همايون شيروانى ، واضطر هو نفسه للفرار إلى كواليار .

ولم يطل بالأمير الثائر المقام فى هذا الإقليم ، إذ سير إليه أخوه قائده أعظم همايون لودهى ، فقصد إلى مالوه التى غادرها بدورها بعد قليل لما لحظه من فتور سلطانها محمود الخلجى نحوه . وفيما كان فى طريقه إلى راجا كُرّته وقع فى أيدى عمال غوند فسيروه فى الأغلال إلى أخيه ، ليلاقى مصرعه وهو فى طريقه إلى حصن هانسى (١) .

وضاق السلطان ذرعا بأمرائه آخر الأمر فانقلب يشتط فى معاملتهم ويمعن فى إنزال ألوان التعذيب والهوان بمن تصل يده إليه منهم .

وجاء زجه فى الحبس بقائده أعظم همايون شيروانى وابنه قتلغخان بعد استدعائهما من كواليار ، بمثابة إلقاء الزيت على النار . فما لبث فريق من القواد الناقمين على مسلكه الغاشم ، أن التفوا حول أعظم همايون لودهى وإسلام خان بن أعظم همايون شيروانى ، فالتحموا بقواتهم ، التى كانت تنوف على أربعين ألفا من الفرسان

---

١ — تاريخ فرشته أول ص ١٩٠

وخمسمائه من الفيلة ، مع جند إبراهيم اللودهى فى قتال عنيف عند أوده ، كاد يكتب لهم الظفر فيه لولا سقوط إسلام خان وأسر قائد كبير آخر هو سيد خان

وضاعف هذا النصر من قسوة هذا السلطان الذى ذهب يطيح برءوس أعدائه فى تهور بالغ فكان من بين قتلاه أعظم همايون شيروانى وحسين خان فرملى ثم ميان بهوره وزير والده سكندر .

وسار إبراهيم من بعد ذلك بقواته إلى ميوات فأنزل بجموع الأمير الهندوكى رانا سنكا ، أعظم أمراء الراجپوتانا ، ضربات قوية برغم استبسالها الشديد ، فلم يُكتب للرانا نفسه ، وقد أثخنته جراحه ، الهرب من الميدان إلا بمشقة بالغة .

وكثر عدد الخارجين على هذا السلطان السفاك نتيجة لعنفه هذا ، حتى نادى بهادر خان لوحانى بنفسه سلطانا على بهار باسم محمد شاه ؛ وانضم إليه كثير من الأمراء فى الأقاليم المجاورة له فاستقام له قوة عسكرية كبيرة بلغت مائة ألف من الفرسان ، زحف بهم حتى سنبهل حيث أوقع بجيش دهلى هزائم متكررة .

ولم يدر السلطان اللودهى حين أرسل يستدعى اليه دولت خان لودهى أمير البنجاب — وكان قائدا قديرا قوى الشكيمة مرهوب الجانب — أن لفتته هذه ستنتهى إلى القضاء الشامل على مُلك

اللودهيين كله بالهندستان .

ذلك أن هذا الأمير حين استُدعى إلى آكرا، مقر اللودهيين الجديد لزم داره فطنا، حذرا ، وبعث بابنه دلاور خان إلى هناك بدلا منـــه ، معتذرا باشتغاله بجمع الخـــراج . وعاد الولد الى أبيه ليروى له ماأطلعه عليه السلطان إبراهيم بنفسه من كبار الضحايا العديدين الذين مازالت جثثهم معلقة على الأسوار جزاء العصيان.

هنالك رحل دلاورخان من عند أبيه كرة أخرى ، ولكن كانت وجهته هذه المرة كابل ليحرض صاحبها السلطان ظهير الدين محمد بابر باسم أبيه على غزو سلطنة اللودهيين . وكذلك فعـــل علاء الدين علم خان عم صاحب دهلى.[1]

ولم يكن الأميران اللودهيان يرميا من وراء دعوتهما هذه إلا القضاء على إبراهيم اللودهى وخلاص الأمر لهما من بعد ذلك بالهندستان . لكن أمير كابل مضى يفتح الهند حتى جلس هو نفسه وأولاده من بعده على عرشها ، وذلك بعد أن قضى على السلطان اللودهى فى موقعة پانى پت الشهيرة عام ٩٣٢ / ١٥٢٦م. وبهذا انتقل حكم الهندستان من أيدى الأفغان اللودهيين إلى أيدى الأتراك الچغتائيين .

---

١ — تاريخ فرشته ١٩١ .

# الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية

كان الفتح الإسلامي للهند بداية عهد جديد مزدهر تجلت آثاره الأولى أيام الحكم العربي في السند بإعادة الاتصال الثقافي بين هذه البلاد ومهاد الحضارة في أرض الفراتين.

وكان الغزاة الأوّل لهذه البلاد من العرب أشد تمسكا في الغالب بمبادئ الإسلام الرحيمة من الأتراك والأفغان الذين وفدوا على الهند من بعدهم، ومعهم كثرة من الفرس، فبسطوا نفوذهم على أغلب شبه القارة الهندية ودفعوا بعجلة الحضارة الهندية إلى السير من جديد.

ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا كذلك قد صحبوا معهم جملة من علماء المسلمين وحملة الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت بدورها خارج الهند إذ ذاك درجة كبيرة من الكمال، فكان لهم أياد وآثار بارزة لا تُنكر في رقي الهند وتقدمها وازدهار المدنية والحضارة بها.

هذا وكانت الهند بدورها، على الرغم من تفككها السياسي، ما تزال للحياة العقلية بها سوق رائجة، حتى دهش المسلمون لما وجدوه بها من صنوف المعرفة وضروب المدنية والحضارة.

وفيما كتبه أبو الريحان البيرونى ثبت قيم لما رآه بها وشاهده فى أغلب هذه النواحى(١).

وبرغم اختلاط هذه الثقافات المختلفة وامتزاجهـــا وتأثر المسلمين والهنادكة، كل بنصيب من عادات الآخر وتقاليده، مما يُرد عادة إلى إدمان الجوار فى البيئة الواحدة المشتركة، فقد ظل كل فريق منهم على كل حال محتفظا بصفات جوهرية، تميزه عن الفريق الآخر تميزا ملحوظا، منشؤها اختلاف العقائد وأسسها الإجتماعية من جهة، وتباين أصول الثقافات المبنية عليها من جهة أخرى.

ولم يكن سيف الفتح هو الذى ساعد فى الغالب على انتشار الإسلام بالهنـــد، أو ميل بعض القوم إلى تقليد حكامهم والتقرب منهم، أو حتى طموح فريق من أهل البلاد إلى تقلد بعض المناصب الكبرى التى كانت وقفا على المسلمين فى الدولة. إنما كان العامل الأول فى دخول كثرة من الهنادكة فى الدين الإسلامى هو ما لمسوه من قيام المساواة التامة بين أصحابه وانعدام نظام الطبقات عندهم، ثم الهروب من استبداد البراهمة والتخلص مما كان يُلزم به غير المسلمين عادة من الجزية.

---

١ — وأشهرها كتابه « ذكر ما للهند من مقولة للعقل أو مرذولة » وقد نقل الى لغات أوربية عدة.

ولقد قامت الدولة الإسلامية فى الهند على أيدى رجال الحرب فى الغالب ، ومن ورائهم رجال الدين يذكون فيهم روح الجهاد لنشر الإسلام فى هذه البلاد دون إكراه فيه ، فمن دخله صار له ما لأهله من الحقوق ، ومن أعرض عنه فُرض عليه مايفرض عادة على غير المسلمين من جزية دون عنت أو إرهاق .

وشهد المسلمين بمـــا سبق عدول من مؤرخى الهنادكة أنفسهم(١) ومعهم طائفه من المؤرخين الأوربيين . فذكروا أن أهل البلاد كانوا يعيشون فى أمان بكنف المسلمين ، فلم يكن ما تعرضوا له من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية عارضة لا تمت إلى تعاليم الإسلام نفسه بسبب (٢) .

وأن كان بعض السلاطين من أمثال سكندر لودهى قد حدّوا من حرية الهنادكة الدينية فحرموا عليهم إقامة معابد جديدة أو حتى ترميم القديم منها ، فهناك كثيرون غيرهم من أمثال محمد تغلق ضربوا صفحا عن احتجاج فريق من رجال الدين المسلمين ، فأظهروا تسامحا مطلقا نحو هؤلاء الذين لم يتعموا بحرية العبادة كاملة فى أيامهم فحسب ، بل شاركوا مشاركة فعالة كذلك فى أداة الحكم

---

١ — Prasad Medieval India P 509,10, Havell P 257

٢ — Arnold, Th. The Preaching of Islam P. 420.

ومناصب الدولة(١).

هـــذا وكان سلاطين الهند المسلمين عموما مستقلين تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم يكن ما سعى إليه فريق منهم ، مثل التمش وآل تغلق ، من خطب ود الخليفة إلا من باب التشريف الدينى طلبا لمزيد النفوذ بين بنى قومهم ، فقد ضربوا السكة باسمهم وأجروا الخطبة بالدعاء لهم وحدهم فى الغالب .

ولقد بهرت كنوز الهند الطائلة أنظار غزاتها الأولين فشُغلوا بها وبالفتوح عن الالتفات الجدى لتنظيم شئون الحكم وإرساء قواعده . حتى جاء السلطان بلبن فطفق يعمل على إقرار الأمن فى البلاد وبذل غاية الجهد فى القضاء على قطاع الطرق وعصابات اللصوص فى رقعة بلاده الواسعة ، فانتعشت بذلك تجارة الهند وزراعتها .

وواصل الذين جاءوا من بعده عنايتهم بالحالة الاقتصادية ، فوضع علاء الدين الخلجى نظاما ثابتا للضرائب وعنى بالزراعة عناية فائقة حتى توفرت الأقوات فى البلاد وعم اليسر والرخاء .

---

١ — يقول لين بول أن الإسلام يلائم ، ببساطته ، العقلية الهندية أكثر من المسيحية ، وأن الحكومة الاسلامية ، مهما يكن من عيوبها ، كانت أفضل حكومة عرفها الهنود ، ويجعل ذلك من الأسباب التى أدت بالأهلين فى الغالب إلى الدخول فى هذا الدين وطاعة أصحابه Med. India P 4

وكان هذا السلطان هو كذلك أول من أحكم ضبط الأسعار فى بلاده الواسعة . وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء الحبوب التى كان علاء الدين قد أقامها بدهلى .

وما برحت هذه المخازن السلطانية أمداً طويلا تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التى كانت تجتاح الهند عادة حين تنحبس الأمطار الموسمية عنها . هـــذا كما كانت الخانقاهات والمطابخ السلطانية ، المنتشرة فى أنحاء البلاد ، تقوم يوميا بإطعام حشود الأهلين فى هذه الأزمات المخيفة .

ويعرض علينا الرحالة العربى ابن بطوطة صورا مفصلة لألوان الحيـاة فى الهند التى زارها فى القرن الثامن الهجرى ، ويشيد بقيام العدل وشيوعه ، وانتشار الأمن والطمأنينة بالبلاد .

كذلك يتحدث ابن بطوطة عن انتشار الرقيق فى الهند ، وقد كانوا على كل حال ينعمون فى ظل سادتهم بالكثير من الرعاية حتى رأينا الكثيرين منهم يبلغون مراتب القيادة والوزارة ، بل لقد حكمت الهند يوما ما أسرة كلها من المماليك [1] .

هذا ويذكر الرحالة العربى أيضا أن الخانقاهات والحمامات والبيمارستانات (دور الشفاء) كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها ،

---

١ — ابن بطوطه ثالث ص ١٢٧ — ١٣٩ ، ٢٣٦

وكان يُقدّم فى الأخيرة منها الغذاء والدواء للفقراء بالمجان .

ولعل من أهم ما يلفت النظر فيما ذكره ابن بطوطة عن الهند ، أنه وجد بمدينة هناور ثلاث عشرة مدرسة للبنات وثلاث وعشرين مدرسة للصبية ، مما يقوم دليلا على عناية الدولة بتنشئة أبنائها تنشئة صالحة ، وعدم إهمالها لشأن المرأة بصفة خاصة(١).

كما يشير كذلك إلى منع الحكام المسلمين ممارسة الهنادكة لعادة الساتى البشعة ، فلم يبيحوها لهم إلا فى أحوال قليلة نادرة وبإذن من السلطان نفسه(٢).

كذلك تحدث ابن بطوطة عن رواج الحركة التجارية بالهند ، وقد رأى بنفسه التجار الأجانب يزحمون موانيها الغربية ، لاسيما بروج وكاليكوت ، لشراء منتجات هذه البلاد الوفيرة ، أو بيع ما كانوا يأتون به من منتجات فارس وخراسان والعراق ومصر (٣) .

---

١ ــ ابن بطوطة رابع ص ٦٧

٢ ــ عادة الساتي هى إقبال المرأة الهندية على حرق نفسها حية مع جثة زوجها مالم يكن لها ولد فى الغالب

٣ ــ ابن بطوطه ثالث ص ٤٠٥ ورابع ص ٨٩

وكان إقليم الكجرات ، أهم مراكز الهند التجارية منذ القدم، ينعم أهله بصفة خاصة بقدر وافر من الثراء ، وكانت أرضه تنبت أجود أنواع الكروم والقطن .

ومن موانئه كمباى كانت تصدر البهارات والنيلة فيقايضها التجار بالذهب والفضه والنحاس .

هذا كما كانت الصناعات تقوم فى أنحاء متفرقة به، ومنها النسيج على مختلف أنواع . واشتهرت الكجرات كذلك بضرب من المصنوعات الجلدية عليها نقوش الطير والحيوان ومكفته بأسلاك الذهب والفضة (١) .

على أن اقتصاديات البلاد ما عتمت على أثر الغزو التيمورى أن أخذت فى الانهيار . ذلك أن هذا الغزو ، فضلا عن استنزافه لثروات البلاد وتخريبه لكثير من المدن الهندية ، قد أدى إلى انفراط عقد الدولة الإسلامية فى الهند وتفككها إلى ولايات صغيرة كثيرة حتى اقتصر سلطان دهلى على ولاية صغيرة كانت أقل الولايات الهندية جميعا دخلا وثروة .

وقد نعمت الولايات التى لم تتعرض لهذا الغزو وآثاره ، فى

---

١ — Marco Polo Vol 2 pp 328.33

نفس الوقت بكثير ، من الرخاء إذ أوقفت بدورها جميع دخلها وموارداها على نفسها . وكانت البنغال أوفر الأقاليم الهندية جميعا حظا فى هذه النواحى .

وبلغ فن العمارة والنقش فى عهد الحكم الاسلامى بالهند درجة رفيعة من الروعة والرقى يدل عليها مسجد آجمير ومسجد القطب بدهلى ومنارته ، التى ترتفع إلى ٢٤٢ قدم ويتوجها المرمر فى أجزائها العليا، وكثير من المدارس والبيمارستانات التى نجت من من تخريب الحروب .

وهذا ابن بطوطة لا يفوته فى كتاب رحلته أن يشيد بما كان عليه قصر محمد تغلق ، ذو الألف عمود ، بدهلى من الروعة والبهاء (١) .

وكان من الطبيعى أن يستخدم الحكام المسلمون رجال المعمار من أبناء الهند فى إقامة منشآتهم هناك ، فقد كان للعمارة فى الهند القديمة سوق رائجة تدل عليها آثارها القديمة الخالدة ، فجاءت الأنماط هندية فى نواتها ، وللبقاع تأثير فى الطباع كما يقول المقدسى الجغرافى . على أن هؤلاء الفنانين حرصوا فى تصميماتهم، بتوجيه من حكامهم ، على أن توائم النهج الإسلامى وتساير التطور

١ — ابن بطوطه ثالث ٢١٧ — ٢٢٠

الفنى فى البلاد الإسلامية ، دون أن يطغى شىء من ذلك كله على طابعها الأصيل ، فأضيفت النقوش والزخارف العربية والفارسية إليها ، كما اقتُبست بعض الطرز بدورها منها (١).

ولقد رأينا كيف بهرت العمارة الهندية السلطان محمود الغزنوى ثم الغازى تيمورلنك من بعده حتى صحب معه إلى بلاده مئات من رجال المعمار الهنود الذين عهد اليهم بإقامة منشآت كثيرة بعاصمته سمرقند ، من بينها مسجدها الجامع « مزار شاه » الذى بناه حول مقام الصحابى قثم بن العباس فاتح المدينة ، كما سجلوا له كذلك فتوحاته وحروبه الهندية بنقوشهم على جدران قلعته هناك(٢) .

وحين استقر بالهند سلاطين المسلمين ، من بعد الغزنويين ، طفقوا يستخدمون فى الغالب أطلال المعابد الهندوكية ومخلفاتها فى إقامة منشآتهم هناك .

وصادفت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجا كبيرا على أيدى السلطان علاء الدين الخلجى ، الذى أنشأ كثيرا من القصور والحصون والخزّانات . ويُروى أن كل عمود من عُمد قصره الألف بأساسه رأس مغولى من الذين أسرهم فى حروبه معهم . وقد

---

١ — Arberry, Legacy of Persia. p 94

٢ — بابرنامه ورقة ٤٥ ب ومابعدها .

أطلق هذا السلطان يد البذخ فى الإنفاق على منشآته بفضل كنوز الدكن والجنوب التى أتى له بها قائده كافور .

وحين تفككت عُرى سلطنة دهلى أعقاب الغزو التيمورى ، رأينا ملوك الطوائف بدورهم يبذلون عناية كبيرة بالعمارة التى اختلط فيها عندهم الطراز الهندى بالطرز الإسلامية التى كانت شائعة خارج الهند، وهى التى أتى لهم بها فريق من رجال المعمار الفرس والترك الذين وفدوا إليهم فيمن وفد من رجال الفنون والعلوم . ولا يزال كثير من هذه الآثار قائما حتى اليوم فى جونپور والكجرات ومالوه وبلاد بهمنى الدكنية وبيجاپور وأحمد نكر وڤيايا نكر .

ولقد رأينا كيف كان يعج بلاط محمود الغزنوى بالشعراء والعلماء والمؤرخين وفيهم البيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين والعُتبى الوزير صاحب تاريخ اليمينى ( يمين الدولة محمود الغزنوى )، ثم العلاّمة أبو الريحان البيرونى صاحب التآليف المشهورة عن الهند والعارف بلغاتها وعلومها وعوائدها،(١) والفارابى الموسيقى الفيلسوف

١ — أجمع المؤرخون على أن البيروني كان يجيد السنسكريتية، وأنه أفاد من الحكماء الهنود فى التاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية . وقد أخذ كثيرا من معلوماته التى قيدها فى كتبه التى أربت على المائة ، من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار . (تعليقات القزوينى على كتاب جهار مقاله لنظامى السمرقندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب . ص ٥٣٠ )

ولم يكن الذين خلفوا محمود فى الهند ستان دونه فى رعاية العلوم والآداب والفنون ، إذ كانوا قد وفدوا إلى هذه البلاد من أماكن راجت فيها أنواع المعارف والثقافات الإسلامية، فرحبوا على الدوام بالعلماء والأدباء المسلمين الذين لم ينقطع قدومهم إلى بلاط دهلى وغيرها من الإمارات الإسلامية بشبه القارة .

هذا وكانت لغة التأليف والكتابة عند علماء المسلمين بالهند هى الفارسية . وقد نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية نفسها كذلك ، وفيهم الشاعر خسرو الدهلوى « غرّيد الهند » الذى تتجلى فى أشعاره دقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب على السواء . وقد عاش هذا الشاعر حقبة طويلة من عمره ببلاط السلطان محمد تغلق كتب فيها ديوانه ( غُرة الكمال ) وترجم للولى الزاهد الشيخ نظام الدين أوليا . ويشهد على وفرة محصول خسرو هذا فى كافة نواحى المعرفة ما تركه من منثورات ومنظومات بالفارسية والسنسكريتية والعربية تجدها فى أشهر كتابين له وهما إعجاز خسروى ، و« خزانة الفتوح ». وعاصر الدهلوى ، من شعراء القرن الثامن الهجرى بالهند ، بدر الدين المعروف ببدر شاخ ( نسبة إلى مدينـــة طشقند ) ، والقاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ثم

فقيه آل تغلق معين الدين عمرانى .

أما كُتاب النثر فمنهم مولانا خواججى ، واحمد تنيسرى صاحب أخبار الأخيار ، والقاضى الشانهى بليغ العربية ، وعين الملك الملتانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم . وقد ترك هذا الكاتب مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم « إنشاء ماهرى » وتُعد ثبتا لأحوال الهندستان الاجتماعية والسياسية فى زمانه .

أما المؤرخون فنذكر منهم أبا عمرو عثمان منهاج السراج صاحب « طبقات ناصرى » ، وضياء الدين بارنى صاحب تاريخ فيروز شاه الذى سجل فيه كثيرا من فنون المعرفة فى عصره ، وقد أكمله من بعده شمس السراج عفيف فى عناية بالغة . وأخيراً غلام يحيى بن أحمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

هذا إلى كثير غيرهم من المشتغلين بعلوم الحكمة والفلسفة(١) والفقه ، ومنهم أولئك الذين ذاع صيتهم فى إقليم جونپور ، على الخصوص ، من علماء دهلى الذين كانوا قد لجئوا إلى هناك هربا من وجه الغزو المغولى ، ومعهم فقهاء اللودهيين من أمثال القاضى

---

١ — Prasad, India p 569-72.

شهاب الدين الدولنابادى صاحب حواشى الكافية والإرشاد ، والفقيه إلـه داد شارح الهداية ، والفيلسوف مُغيث حسنوى .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة النقل من السنسكريتية التى كان العرب قد بدءوها فى القرن الثانى الهجرى لم تتوقف ، وإنما صارت ببلاط دهلى إلى الفارسية بدلا عن العربية . وكان المسلمون فى الهنـــد هم الذين يقومون على ذلك بأنفسهم فى الغالب ، فقد رأينا فيروز تغلق ، حين ظفر بمكتبة سنسكريتية فى حصن نكركت ، يعهد إلى مولانا عز الدين خالد خانى بأن ينقل إلى الفارسية جملة من كتبها فى الفلسفة والفلك . وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيروزشاه . كما نقلت كُتب طبية سنسكريتية أخرى إلى الفارسية كذلك أيام سكندر لودهى ، هى وأقسام من المهابهارتا وغيرها من كتب الهند الدينية والتاريخية القديمة والملاحم .

وكما أطلق الحكام المسلمون للهنادكة الحرية الدينية فى أغلب الأحيان ، فكذلك تركوهم يمارسون الكتابة والتأليف بلغتهم فى حرية تامه حتى فى المذاهب الدينية والفلسفية الخاصة بهم .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن اختلاط المسلمين بالهنادكة فى بيئة جامعة قد نشأ عنه تبادل كثير من التقاليد والعادات . ويظهر

أثر تعاليم الإسلام قويا بادى الوضوح عند بعض المصلحين من الهنادكة أمثال نامديو اكبير ونانك اللذين أنكرا عبادة الأوثان والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأرامل وممارسة عادة الساتى وقيام نظام الطبقات بين الناس. وقد نادى هؤلاء جميعا بالتوحيد وقالوا بأن الله هو رب الناس جميعا من مسلمين وهنادكة وغيرهم. بل لقد صرح نانك، مؤسس السّك، باحترام شيعته وتقديسهم لرسل الله وأنبيائه كافة، مع الإشادة بذكر النبي الأكرم والقرآن الكريم خاصة.

هكذا كان الحكم الإسلامى فى الهند عهد ازدهار قوى ومصدر خير وبركة لهذه البلاد، وإن عُد من وجهة نظر الهنادكة، بداهة، كارثة قضت على استقلالهم وهدمت الكثير من معابدهم؛ إذ اغتصب الغزاة المسلمون بلادهم وراحوا يعلنون العداء لمعتقداتهم باسم القضاء على الشرك والوثنية.

على أن هؤلاء الفاتحين المسلمين ما غدوا بعد قليل أن استوطنوا شبه القارة الهندية واستقروا بها، فلم تعد الكنوز والأموال والثروات التى انتقلت إلى أيديهم تتسرب بدورها إلى خارج الهند، ذلك التسرب الذى ينتهى دائما إلى تعرض البلاد المفتوحة إلى هزات اقتصادية عنيفة.

ولقـــد بهر أنظـار الهنادكة ، أصحاب التراث القديم ، ما استجلبه المسلمون من ألوان الحضارة والمدنية الإسلامية التى تميزت فنونها على الأخص ببعدها عن التجسيم الذى كان شائعا فى كافة نواحى الحياة الفنية الهندية ، هذا فضلا عن التقاليد الاجتماعية الرفيعة التى اعترف مؤرخوا الهنادكة أنفسهم بسمو أصولهـــا الإسلامية الأولى. وإلى جانب ذلك كله شهدت الهند جملة من الحكام الأكفاء من أمثال علاء الدين الخلجى وآل تغلق الذين عملوا فى إخلاص على النهوض ببلادهم وترقية الزراعة والصناعة والتجارة حتى توفرت الأقوات والأرزاق ونعم الناس قرونا عدة باليسر والرخاء . وإلى جانب هؤلاء السلاطين العظام ظهرت طائفة من القواد الأفذاذ الذين دفعوا عن هذه البلاد أخطار الغزو المغولى المدمر مرات عديدة .

وكانت النهضات العلمية والأدبية والفنية التى عرفتها الهند على أيدى هؤلاء الحكام فسادت هناك قرونا عدة ، هى بمثابة حجر الأساس لحضارة أكبر دولة عرفتها هذه البلاد ، وهى الدولة المغولية التى أرسى دعائمها الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م) فعمّرت قرونا ثلاثة اتسعت فيهـا رقعتها حتى شملت شبه القارة الهندية بأكملها. وهى موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب بإذن الله .

## مراجع ربية وفارسية وتركية :


١ — بابرنامه ، نشر السيدة أنيت بفريدج . ليدن ١٩٠٥م

٢ — بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب للدكتور محمد يوسف الهندى . ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثانى عشر مايو ١٩٥٠ )

٣ — تاريخ البيهقى ، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت . القاهرة ١٩٥٦ م

٤ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، ترجمة حمزة طاهر . القاهرة ١٩٣٣ م

٥ — تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى . القاهرة ١٣٢٣ هـ

٦ — تاريخ العُتبى على هامش الفتح الوهبى . القاهرة ١٢٨٦ هـ

٧ — تاريخ فرشته لملا محمد قاسم هندو شاه . لكنو ١٣٢٣ هـ

٨ — تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى . القاهرة ١٣٠١ هـ

٩ — تاريخ الفلسفة الاسلامية لدى بور ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٣٨

١٠ — تاريخ المغول لعباس إقبال . طهران ١٩٣٣ م
١١ — تاريخ اليعقوبى . ليدن ١٨٨٣ م
١٢ — چهار مقاله لنظامى السمرقندى مع تعليقات القزوينى، ترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب. القاهرة ١٩٤٩م
١٣ — تحفة الأنظار فى عجائب الأمصار (رحلة ابن بطوطة) . فى خمسة أجزاء. باريس ١٨٥٣ م
١٤ — حقائق الأخبار عن دُوَل البحار لإسماعيل سرهنك . القاهرة ١٣١٤ هـ
١٥ — حضارة الهند لجوستاف لوبون ، ترجمة عادل زُعيتر القاهرة ١٩٤٨م
١٦ — ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة لأبى الريحان البيرونى . لندن ١٨٨٧ م
١٧ — رياض السلاطين أو تاريخ بكاله لغلام حسين سليم . كلكتا ١٨٩٠م
١٨ — ضحى الإسلام لأحمد أمين . القاهرة ١٩٣٨م
١٩ — طبقات ناصرى لأبى عمر عثمان منهاج السراج ( ترجمة راڤرتى ) . لندن ١٨٧٣-٨٩٧ م
٢٠ — طبقات أكبرى لنظام الدين أحمد بخشى . لكنو ١٩١٣م

٢١ — ظفر نامه لشرف الدين يزدى. كلكتا ١٨٨٥-١٨٨٧م

٢٢ — فتوح البلدان للبلاذرى . ليدن ١٨٨٦م

٢٣ — مخزن أفغانى وتاريخ خان جهان لودى
لنعمت الله ترجمة دورن. لندن ١٨٢٩م

٢٤ — مروج الذهب المسعودى. القاهرة ١٣٤٩ هـ

٢٥ — ملفوظات تيمور (المجلد الثالث من كتاب
إليوت وداوسون عن تاريخ الهند -
القسم الاسلامى ) ١٨٦٧ — ١٨٧٧م

٢٦ — الهند وجيرانها تأليف بول ديرانت وترجمة
الدكتور زكى نجيب محمود . القاهرة ١٩٥٠م

## مراجع أوربية :

1 — Arberry. J. A. The Legacy of Persia Oxford 1953.

2 — Arnold T.W. The Preaching of Islam. London 1935.
Barthold. W.Histoire des Turcs d' Asie Centrale.
Adap. Donskies. Paris 1945.

3 — Cambridge History of India. 5 Vol.
Cambridge 122-29.

4 — Dunbar, G. A history of India from the earliest
times to the present day. 2 Vols. London 1943.

5 — Elliot, H.M. & Dowson J. The History of India astold by its own Historians (Moh. Period). 8Vols. London 1867-77.

6 — Elphinstone, M. The History of India. London 1911.

7 — Gablentz, H. C. Ueber die sprache des Hazaras ZDMG Bd. XX..

8 Garrat, Y. T. The Legacy of India. Oxford 1938

9 — Havell, E.B. The History of Aryan Rule in India. London n.d.

10 — Ischwari Prasad. History of Medieval India. Allahabad 1925.

11 — Ischwari Prasad. A. short History of Moslem Rule in India. Allahabad 1933.

12 — Lane-Poole, St. Medieval India. London 1916.

13 - Le Bon, Gustav. Les Civilisations de l'Inde. Paris1887.

14 — Marco - Polo. The book concerning the kingdoms, and marvels of the East. Translated by H. Yule. 2 Vols. London 1903.

15 — Moreland, W.H. & Chatterjee, A. Ashort History of India. London 1936.

16 — Mueller, A. Der Islam in Morgen und Abendland. 2.Bd. Berlin 1887

# فهرس أبجـــدى عام (١)


« ا »

آبتكين ١٠٤
آريه بهت ٤٤
آزوكا ( آشوك ) ٣١، ٣٢، ٣٣
آكرا ٢١٥
آنتجبالا ٨٩، ٥٠
إبراهيم بن صالح ٨٠
إبراهيم بن مسعود ١٠٧
إبراهيم الفزارى ٧٩
إبراهيم شاه شرقى ٢٠٦، ٢١٧، ٢٣٢
إبراهيم عادل شاه ٢٢٤
إبراهيم لودهى ٢١٥ ـ ٢٤٩
ابن الأعرابي ٧٧
ابن بختيشوع ٨٠
ابن حوقل ٤٧
ابن دهله ٨٠
ابن دهن ٨٠
أبو بكر تملق ١٩
أبو الحسن الأهوازى ٧٩
أبو الريحان البيرونى ٤٦، ٧٠، ٩٩، ٢٥٩
أبو الفتح القرمطى ٨٨
أبو القاسم سن الحسن المهنوى ١٠١
أبو اليزيد طيفور البسطامى ٧٧
أبو عطاء السندى ٧٧
أبو عمرو عثمان منهاج السراج ٢٦٢
أبو مسلم الخراساني ١٩
أبو معشر نجيح السندى ٧٧
أتيلا ٢٤
أحمد بن يالتكين ١٠٢
أحمد تنيسرى ٢٠٥، ٢٠٦
أحمد خان مواتي ٢٣٥
أحمد شاه كجراتي ٢١١، ٢٣٣
أحمد عبد الصمد ١٠١، ١٠٥
أحمد نكر ٢٢٤
الإدريسى ٤٧
أرجبهذ ٧٦
أركند ٧٩


١ ـ ضبطت الأعلام وأسماء الأماكن وفق ماورد عند جمهرة مؤرخى الهند المسلمين .

الإسكندر المقدوني ٢٨، ٢٩
إسماعيل الغزنوى ٨٦
الإصطخرى ٤٧
أغنى ١٤
إقبال خان ( ملو ) ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٩٩
أكبر المغولى ١٨٥، ٢١٥
ـ خان ( هو شنك شاه ) ٢١٣
البتكين ٨٣
ألتمش ١٢٣ ـ ١٢٩
إله داد ٢٦٢
إلياس أفغان ٢٠٥
إندرا ١٤، ٢
أوده ١٣٤
أورانكل ١٥٩
أوكا ١٩٤
أيبك ١١٧، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣

« ب »

بارمل ديوا ٦٦
بالا ٣٧
باني بت ١٩٤، ١٩٩، ٢٤٩
البد ١٣، ١٨، ٢٠ ـ ٢٢، ٣٢
بدر ٢٢٣
بدر الدين ( بدر شاخ ) ٢٦٢
بدمنى ١٥٧
بديل بن طهفة ٥٨
براتاب رودرا ١٥٩
برار ٢٢٢
براهما ٢٣
براهما سدهانتا ٧٨
براهما كوبتا ٤٤
برهمكيت ٧٨
برهمنا باد ٢٢، ٦٦
بريتى راجا ١١٥
بسال ديوا ٣٥، ٧٩
بشر بن داود ٧٣
بطليموس ٣٤
بغرا خان بن بلبن ١٣٨، ١٤٢، ١٤٣ ـ ١٤٦
بكر مادبت ٣٢
بلبن ١٣١ ـ ١٤٤
بلبكين ٣٧
بندبا ٣٩، ٢٢٦
البنغال ٢١٨، ٢١٩
البوذيه ١٧ ـ ٢٢
بورس ٢٨
بوكا ٢٢٦
بهاء الدين كشتاسب ١٧٤
بهادر خان لوحانى ٢٤٨
بهادر خان كجراتي ٢١٢، ٢١٤
بهادر خان المغولى ٥٠
بهادر نهير ١٩٢، ٢٠٤

بهرام بن التمش ١٣١
بهلول لودهی ٢١٤، ٢٣٣ — ٢٤٠
بهمن بن اسفندیار ٢١٩
بهیم دیوا ١١٣
بهیمبال ٩٢
بیجابور ٢٢٢

« ت »

تاتار خان ١٧٩، ١٩٣
تاج الملك تحفه ٢٣١
تارجی ١٥٣
تامل ٢٥
تبار هنداه ١٣٤
ترمشیرین ١٧٤
تکسیلا ٣٣، ٣٤
تلسنده ١٣٣
تلك الهندی ١٠٢
تلنجانا ١٥٩
تلیکوتا ٢٢٨
تلك الهندی ١٠٢
تیمورلنك ١٩٤ — ٢٥٠، ١٣١، ٢٥٨

« ج »

جاجنکر ١٤٠
الجاحظ ٨٠
جارجی ٤٢
جام بابینا ١٨٥
جامو ٢٠٥
جایا جندرا ١١٧
جای سنك ٦٨
جسرت کهکر ٢٣١
جلال الدین إحسان شاه ١٧٨، ١٧٩
جلال الدین لودهی ٢٤٦
جلال الدین شاه خوارزم ١٢٥، ١٢٦
جلال الدین فیروز الخلجی ١٤٩ — ١٥١
جمال الدین یاقوت ١٣٠
جلم بن شیبان ٧٥
جند بوی ٢٢٤
جندرا کیتا ٢٩
جندری ١٥٨
جندیسابور ٥٥
جنکیزخان ١٢٥
جنید بن عبد الرحمن ٦٨
جوستاف لوبون ١٨
جونیور ٢١٥ — ٢١٨
جیتور ١٥٧
الجینیة ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢

« ح »

حاجی الیاس ١٨٢
الحارث بن کلدة ٥٥
حبیب بن المهلب ٦٨

الحجاج بن يوسف الثقفى ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤
حسان بن مجاهد ٧١
حسن كانكوى ( جنجو ) ١٨٠ ، ٢١٥
حسين شاه بنغالى ٢١٨
حسين شاه شرق ٢٤٢، ٢٤٣
الحكم بن عوانة ٦٩
حكيم بن جبلة العبدى ٥٦
حميد خان ٢٣٤ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨
حميد القرمطى ٧٦
حيدر آباد الدكن ٢٢٠
حيدر آباد السند ٦٩

« خ »

خاندش ٢١٦
خسرو الدهلوى ١٦٢ ، ٢٦٠
خسرو الغزنوى ١٠٩ ، ١١٣
خسرو قائد مبارك شاه ١٦٥ ـ ١٦٨
خضر خان الخلجى ١٥٩
خضر خان ( السادات ) ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٩ ـ ٢٣١ ، ٢٣٦
خواججى ٢٦٠

« د »

دانيل خان ٢٤٤
داود بن يزيد ٧٢ ، ٧٣
داود القرمطى ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٢
داود المغولى ١٥٢
داهر ملك السند ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١
الدكن ٢٠٩
دلاور خان الغورى ٢١٣ ، ٢١٥
دلاور خان لودهى ٢٤٩
دولت اباد ١٧٤
دولت خان لودهى ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
دهلى ( تخريب تيمور لها ) ٢٠٢
ديباليور ١٩٣ ، ١٩٨
ديبل ٦٠
ديو سفورس ٤٥
ديوكر ١٧٤

« ر »

الراماينا ١٥
رانا سنكا ٢٤٨
راني باى ٦١
راور ٦٢
رضية ١٢٩ ، ١٣٠
ركن الدين فيروز ١٣٠
رنتنبهور ١٣٤
الروز ٦٣

« س »

سادات خان ١٩٣

سارنك خان ١٩٣، ١٩٧، ٢٢٩
سبأ ٥٤
سبكتكين ٨٣، ٨٥
سرهند ٢٣٣
سرسوتي ١٩٩
السفيح بن عمرو ٧١
سقراط ٤٦
السكا ٣٢، ٣٣ ٣٧
سكندر شاه ٢٤١ — ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٦٢
سليمان بن عبد الملك ٦٥، ٦٧
سمانه ١٣٤، ١٩٩،
سمية أم زياد ٥٥
سنا ٣٧، ١٩٩
سنجر السلجوقي ١٠٨
السند هند ٧٨
سواك ٦٦
سوراج ديوا ٦٦
سوري الغوري ١٠٩
سومنات ٩٤ — ٩٧
سيدهوبال ٢٢٣
سيستان ٨٤

« ش »

شاهرخ ١٩٦
شجرة الدر ٩٣٠
الشليوكيون ٣٧
شمس السراج عفيف ٢٦١،
شمس الدين ألتمش : انظر ألتمش
شوريا ١٤
شهاب الدين الدولتا بادى ٢٦٢
شهاب الدين مبارك ١٩٧
شيخا كهكر ٢٠٥
شير شاه ٢١٢
شيوا ٢٣

« ض »

ضياء الدين بارني ١٤٨، ١٥٤، ٢٦٢

« ط »

طغاى ترك ٢٣٠
طغرل بك السلجوقي ١٠٤،
طغرل شاه بنغالى ١٣٩، ١٤٠، ١٤١

« ظ »

ظفر خان ١٩١، ٢٠٦
ظهير الدين محمد بابر ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٦٤

« ع »

عبد الرحمن بن ابي مسلم العبدى ٦٩
عبد الله بن الاشتر العلوى ٧٠، ٧١
عبد الله بن عامر ٥٦
عبد الله قاضى شيراز ١٠٢

عبد المقتدر الثانى ٢٦١
عبيد الله بن نبهان ٥٨
العتبي ٤٧ ، ٢٥٩
عثمان بن عفان ٥٦
عز الدين خالد خاني ٢٦٢
العسجدى ٩٩
علاء الدين بغالى ٢٤٣
علاء الدين الخلجي ١٥٠ — ١٦٤ ،
١٧٠ ، ٢٢٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨
علاء الدين علم خان لودهى ٢٤١
علاء الدين علم شاه ( السادات ) ٢٣٣
علاء الدين كانكوى ( انظر حسن
كانكوى )
علاء الدين مسعود حفيد ألتمش ١٣١
علاء الدين مسعود الغزنوى ١١٨
علاء الملك ١٥٤
على بن ابي طالب ١١
عمر بن حفص ٧٠
عمر بن الخطاب ٥٦
عمر بن عبد العزيز الأموى ٦٨
عمر بن عبد العزيز الهبارى ٧٤
عمران بن موسى البرمكى ٧٣
عمرو بن محمد بن القاسم ٦٩
عمرو بن مسلم الباهلى ٦٨
العنصرى ٩٩
عيسى بن مريم ١٩ ، ٢
عيسى خان ترك ٢٣٥
عيسى خان لودهى ٢٤١
عين الملك الملتاني ٢٦١

« غ »

غازى خان ٢١٤
غاندى ٢١
غلام يحى بن احمد ٢٦١
غواليكونده ٢٢٢ ، ٢٢٥
غياث الدين بلبن ( انظر بلبن )
غياث الدين بن سام الغورى ٩٠
غياث الدين تغلق الثاني ١٩٠

« ف »

الفار ابي ٩٩ ، ٢٥٩
فاهيان ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣
فتح آباد ١٩٩
الفرخى ٩٩
الفردوسى ٩٩
فكرمه ديتا ١٢٩
فايانكر ٢٢٦
فيد ياهارا ٩٤
فيروز تغلق ١٨١ — ١٨٨ ، ٩٠ ٢
٢٦٢

« ق »

قاسم بريد ٢٢٣ ، ٢٢٥
قباجه ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٩٢
قتلق خواجه ١٥٣

قثم بن العباس ٢٥٨
قدرخان الكهناوتي ١٧٨
قطب الدين أيبك : انظر أيبك
قطب الدين مبارك شاه ١٦٥، ١٦٦
قطب الملك شاهي ٢٢٥
قنوج ٣٤، ٦٥، ٩٣

« ك »

كابل ٢٩، ٣٢
كابيلا ٤٦
كافور ١٥٩، ١٦٣ـ١٦٥، ٢٢٦
كالكوت ٢٥١
كبير ٢٦٣
كرشنا ديو ٢٢٧
كرشنا ياك ١٨٠
كره ١٣٤
كليم الله بهمني ٢٢٥
كمال الملك ٢٣٢، ٢٣٣
كنشكا ٣٢
كوشان ٣٢
كولا ٣٩
كهند كهاديكا ٧٩
كهيتل ١٩٩
كيخسرو حفيد بلبن ١٤٣، ١٤٥
كيقباذ بن بلبن ١٤٣ ـ ١٤٧

« ك »

كاكوى : أنظر علاء الدين
كبتا ٣٢، ٣٤
الكجرات ٢٩، ٢١٠
كوتاماده ( أنظر أيضا اليد ) ١٧

« ل »

لادى ٦٣
لاهور ٨٩، ١٩٣، ٢٠٥
لكشمن ١١٩
الليث بن ظريف ٧٢
لمغان ٦٣
لويس الخامس عشر ٥١

« م »

مارشال ٢٦
ماريكله ١٥٠
مالوة ٢٩، ٢١٢
ماندو ١٥٨، ٢٢٣
مانكو المغولي ١٣١
مبارك شاة ( السادات ) ١٣١
مبارك شاة شرقي ٢٠٦، ٢١٦، ٢١٧
مجدود بن مسعود ١٠٧
المجسطي ٧٩
محمد بن بختيار الخلجي ٨، ١٤١
محمد بن الحارث الملافي ٥٧
محمد بن فيروز تغلق ١٨٩ـ١٩٢

محمد بن القاسم ٥٨ ـ ٦٧ ، ٨٦
محمد بن هارون ٥٩
محمد تغلق ١٧١ ـ ١٨١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٧
محمد جها نكير ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٧
محمد خان فرملي ٢٤٢
محمد شاه ( السادات ) ٢١٤ ، ٢٤٢ ، ٢٢٣ ـ ٢٢٧
محمد الغزنوى ١٠٠ ، ١٠٥
محمد الغورى ( معز الدين ) ١١٠ ، ١١٢ ـ ١٢٢
محمد الفاتح ٢٢٢
محمد قاسم هند وشاه ١٤٨
محمود بهمنى ٢٢٥
محمود بيكر كجراتي ٢١١ ، ٢١٥
محمود تغلق ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٦
محمود جوان ٢٢٠ ـ ٢٢٢ ، ٢٢٤
محمود الخلجى ٢١٤ ، ٢٣٣ ـ ٢٣٧ ، ٢٤٧
محمود شاه شرق ٢٣٩
محمود الغزنوى ٢٧ ، ٣٤ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٨٦ ـ ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٩٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
مسعود الغزنوى ١٠١ ـ ١٠٥
المسعودى ٤٧
المسيح بن مريم : انظر عيسى بن مريم
مظفر خان ٢١٠ ، ٢١٧
معاوية بن ابي سفيان ٥٧
معين الدين عمراني ٢٦٤
المغيرة بن يزيد ٧٢
المقدسى ٢٥٧
مقرب خان ١٩٣
ملك راجا فاروقى ٢١٥
ملك شير ١٦٥
منصور بن جمهور الكلبى ٦٩
منو ١٥ ، ١٦ ، ١٧
منكه ٨٠
موات ١٣٤
موار ١٥٧
مودود بن مسعود ٦٠١ ، ٦٠٧
الموريا ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١
موهنجو دارو ٢٦
المهابهارتا ٥ ، ٢٦٢
مهابير ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٠
مهر بهوج ٣٥
ميروت ٢٠٥
ميفاستين ٢٨ ، ٣٠
الميندى : انظر أبو القاسم الميندى

« ن »

ناصر الدين محمود بن ألتمش ١٣٢
ناندس ١٤
نصرت خاز بنغالى ٥٥ ، ١٥٩ ، ٨ ، ٢

نصرت خان ( تغلق ) ١٩٣ ، ٢٠٦
نظام الدين احمد ١٤٨
نظام الدين اوليا ١٦٣ ، ١٧١ ، ٢٦٠
نواسه شاه ٨٩
نيرون ٦١
نيكاتور ٢٩

« و »

وشنو ( وشنا ) ٢٣
الوليد بن عبد الملك ٥٥ ، ٦٥
الويدا ٤

« ه »

هارى هارا ١٧٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
هاقل ٧٨
هانسى ١٣٤ ، ٢٤٦
هانومان ١٤
هرشا ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
هشام بن عبد الملك ٦٨
هشام بن عمرو التغلبى ٧١
همايون تغلق ١٩٢ ، ٢٤١
همايون شيروانى ٢٤٧ ، ٢٤٨
همايون فرملى ٢٤٣
همايون لودهى ٢٤٧
همايون المغولى ٢١٢ ، ٢١٤
هو شنك شاه : انظر ألب خان
هو ميروس ١٥
هيون تسيانغ ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٣

« ى »

يادافا ٢٢٦
يزيد بن ابي كبشه ٦٧
يزيد بن غرار ٦٩
يعقوب بن طارق ٧٩
يلدز ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤
يوجين ٤٤ ، ١٥٨
يوسف عادل شاه ٢٢٢ ، ٢٢٣

منتديات مكتبتنا العربية www.almaktabah.net

تم ، بعون الله ، الجزء الأول من هذا الكتاب ،
ويليه الجزء الثانى وموضوعه « الدولة المغولية »